د . ريم هلال

البصر والبصيرة

سيرة ذاتية



د . ريم هلال

البصر والبصيرة

سيرة ذاتيّة

د. ريم هلال

البصر والبصيرة

سيرة ذاتيّة

طبعة إلكترونيّة ٢٠١٥

صدرت ورقيّاً عن دار الآداب – بيروت ٢٠٠٢

لوحة الغلاف للفنّان العالميّ فان جوخ

يحكي هذا الكتاب ، تجربة المؤلِّفة الكفيفة البصر ، منذ ميلادها حتى حصولها على درجة الدكتوراه ، وما تخلَّلَ هاتين المرحلتين من آلام وأفراح ، قد تُمثِّلُ في عمقها وحرارتها ونزعتها الإنسانيّة ، ظلاً لجوهر الحياة . كلُّ ذلك في إطار سردٍ روائيّ شفّاف .

وُلِدَت المؤلِّفة في اللاذقيّة ، وتعمل الآن أستاذةً للنقد العربيّ الحديث في كليّة الآداب – قسم اللغة العربيّة بجامعة اللاذقيّة .

- ١ -

في التاسعَ عشرَ من نيسان ، عام ستين وتسعمئة وألف ، كان المساء قد غطّى تماماً مدينة اللاذقيّة ، حين قَدِمتُ مولودةً أولى لوالديَّ . نظرَتْ أمي إلى أبي بعينين دامعتين : لم يأتِنا " عُمَر " ، لم أحقّق لكَ كنيةَ أبي عُمَر التي باتَ يطلقها عليكَ رفاقُكَ . انصرفَ عن الكلام الذي حَمَلَ شيئاً من معارضة القَدَر ، ليغرقَ في تأمُّل وجهي ، ويتفحَّص بعمقٍ كيف رَسَمَه الله . يدرجُ الآن في السويداء اسم ريم ، فما رأيُكِ في أن نجعل طفلتنا الريم الثانية في اللاذقيّة ؟ أومأَتْ أمي على الفور بالموافقة ، حذَرَاً من أن يخطر بباله اسماً أكثر طولاً وثِقَلاً .

ما كادَ الخال عهد الذي يكبرني بستّة أعوام يخطو بضعة أمتار بعيداً عن بيت جدّي الكائن في نهاية شارع القلعة ، متوجهاً نحو الجنوب ، بغية الوصول إلى بيت أخته ، حتى تراجعَ مسرعاً ، خوفاً من العتم الذي بدا له بحراً آخذاً في التكاثف والاتساع ، وحذراً من أمه التي لا بد أن تؤنِّبَه ، فيما إذا وجدَتْه قادماً بمفرده . وهكذا آثرَ الركون إلى قربِ إحدى النوافذ ، منتظراً قدوم أيّ أحدٍ يكسر الصمت الذي باتَ يكتنفه ، ويطفئُ فضوله الملتهب إلى علمِ أيّ أمر حول الآتي الذي سيشكل جديداً على محيطه ، وامتداداً لشقيقته الأثيرة لديه . وهكذا إلى أن لاحَتْ له في النهاية الخادمة ، إذ هبطَ إليها مسرعاً متلهّفاً : ماذا أتانا ؟ بوجومٍ زائدٍ نامٍّ على ذلك الموقف

المتوارَث من قدوم الإناث ، ندَّتْ عنها بغضبٍ ، تلك الكلمة التي لا تزال تُضحِكُ خالي : مصيبة .

لم يكن بيت الطفلة ووالديها كثير الجمال ، ولا قليله ، إنما بين هذا وذاك ، لكنه لا يزال يرتاح في ذاكرتها شُعلةً مضيئةً ، تحملها على الحلم بأن تَلِجَه ثانيةً ، وإن كانت الوجوه الغريبة التي باتت تحرسه ، وتحويلُه فيما بعد إلى مجموعة من المستودعات ، قد وضعا أمامها حاجزَين متدرِّجَين في الضخامة .

كان البيت يقع على شارع القلعة تماماً ، على امتداد بيت الجدّ للأم ، ويمكن ولوجُه من الشارع مباشرةً ، بعد صعود ثلاث درجات خارجيّة ، ثم ثلاث أو أكثر أو أقلّ داخليّة ، فيتم الوصول إلى بهوٍ متوسط ، تحيط به أربع غرف ، وينتهي بفسحة تحتضن حوضاً ، ومن الحوض تُعرّش ياسمينة وكرمة ، إنْ هما ذبلتا فيما بعد ، وانضمتا إلى نفايات الزمان ، فإنهما لا تزالان تشكّلان في نفسي ، جذرَ كلِّ ياسمينة وكلِّ كرمة طرقَتْ بابنا . وعلى الرغم مما توحي به كلمة فسحة ، من صورة الرئة ، فإن فَصْلَها ما بين البيت من جهة ، والحمام والمطبخ من جهة أخرى ، وانتهاءها بجدار عالٍ يحجب الكثير من أشعة الشروق التي لا يتسرّب سواها إلينا ، جعلاها تشكّلُ مصدراً لسوء الظروف الصحيّة . الأمر الذي اضطرَّ والدي الذي كان محبّاً لي بصورة كبيرة متميّزة ، وحريصاً على صحتي بصورة أتعبَته وأتعبَت أمي ، إلى بيعه بثمن الشراء ذاته ، غير آبهٍ بتحقيق أيّ ربحٍ ، ومتظاهراً برميِه إيّاه بازدراء . كيف لا يكون ذلك ؟ وقد كان يضطرُّ كلَّ يوم ، إلى إخراجي منه نحو الشارع ، ورفعي على

كتفيه لكي آخذ من الشمس ما افتقدتُ ، هذا إلى جانب رفعه لي في البيت ملاعباً متظاهراً ، بأنه يبيع خروفاً بثمنٍ باهظٍ جداً ، ولا يجد من راغب .

تمَّ انتقالنا إلى البيت الذي كان يسكنه جدّي لأبي ، إذ أهداه الجدّ إلينا بعد انتقاله إلى بيت آخر قد بناه في منطقة المشروع الثاني . لم يكن بيتنا الجديد بعيداً كثيراً عن الأول ، فهو يقع في المنطقة ذاتها القلعة ، في الزقاق الفاصل ما بين الشارع الممتد من شارعنا الأول إلى الكورنيش الغربي ، ومنطقة الأشرفيّة قرب الجامع الجديد . وعلى الرغم مما تحمل كلمة زقاق من سلبيّات كثيرة ، تتحدّدُ في الضيق والقذارة وتَبِعات البيئة الشعبيّة ، فإن البيت الجميل استطاع بصفاته الإيجابيّة المتعدِّدَة ، أن يُنسينا ما في الخارج . فهو كان يستقلُّ بمدخله الذي يبدأ ببابٍ حديديٍّ أسود ، ثم بمجموعتين متتاليتين من الدرج غير المسقوف ، وحين يتمُّ الوصول إلى الباب الخشبيّ الذي يشكّل باباً خارجيّاً آخر للبيت ، تصطفُّ من الداخل من الجهة اليسرى مجموعة درج ثالثة ، تنتهي بموزِّعَين طويلَين ، يوصِل أحدهما إلى بهوٍ مديد عريض ، تنفتح فيه من الجهة الغربية ثلاث نوافذ كبيرة ، ويعلوه كما يعلو معظم البيت سقفٌ خشبيّ ، يحمي مع قرميده من الحرارة والبرودة ، ويضفي جوّاً شاعريّاً حميميّاً. أما حول البهو ، فكانت تنفتح أربع غرف فسيحة ، لا تبخل هي الأخرى بنوافذها وشمسها وهوائها ، إذ كان البيت الجديد مفتوحاً من جهات ثلاث . أما الموزِّع الثاني ، فكان ينتهي بغرفةٍ خامسةٍ مخصَّصةٍ للطعام ، مساوية في مساحتها لغرفتين ، لذا أُضيفت إليها

مقاعد للجلوس ، إلى جانب المنضدة والكراسي المخصَّصة لذلك الغرض المذكور . ومن غرفة الطعام ، ينفتح باب الحمّام ، وباب المطبخ الذي يتمُّ من خلال سلَّمه الخشبيّ المريح الثابت ، الصعود إلى سطح البيت ، مكان جلسات العصر وموائد التبّولة والخضار المقليّة ، ذلك برفقة جارتنا وقريبتنا الأثيرة هيفاء ، والخادمة التي تكون قد اصطحبتني قبلاً إلى هذا المكان ، لنتفقَّد أحوال الدجاجات والبيض من خلال القنّ الذي خُصِّصَ لها ، ولأبتهج بصورة المئذنة التي تكون قد أصبحت كبيرةً ، بعد الارتفاع إليها والدنوّ منها ، وبحمرة القرميد الذي يشغل سطح البهو والغرف المحيطة به .

كلُّ هذا كان قبل هدم غرفة الطعام وملحقاتها ، وبيت الخالة هيفاء ، إذ حدث ذلك من قِبَل بلديّة اللاذقيّة ، لإضافة زقاق آخر ينفتح على الأول . وهكذا استُعيضَ عن السطح الذي افتقدناه بإحداث شرفة كبيرة ممتدّة على طول الموزِّع المنتهي إلى المكان المهدوم . وعلى الرغم من جمال هذه الشرفة ، الذي تأتَّى من الامتداد والاتساع والانفتاح على الجهات الجنوبيّة والشرقيّة والغربيّة، وإقامة حوض في إحدى زواياها محتوٍ على مختلف أنواع الزهور ، وتخييمها بكرمةٍ تَمَّ مدُّها من حديقة الطابق السفليّ ، فإن السطح ظلَّ في نفسي هو الأجمل ، برغم خلوِّه – على ما أتذكَّر – من أيِّ خضرة ، بل إنه حتى الآن ، إذا ما ذُكِرَتْ كلمة الجنَّة ، سرعان ما يثبُ إلى خيالي ذلك المكان ، بما تبقّى من أطيافه التي لن تعود ثانيةً إلى الوجود .

وسواءٌ أقَبلَ الهدم أم بعدَه ، فإن التميُّز الذي مُنِحَ لبيتنا بالقياس إلى سواه من بيوت الزقاق ، أو ربما خارج الزقاق ، جعله محطّة لأنظار مَن حولَنا وخطاهم ، ذلك من جيران وأقرباء وأصدقاء وغرباء. ولا أنسى السلّم الخارجيّ المبلّط الذي وجد فيه أطفال الحي البسيط الطيّب ، مأوىً لهم دون تلك السلالم الحجريّة المتعثّرة ، التي بَعَثَتْ ذات يوم رفيقات عروس من الحيّ حين عرضت عليهن صور زفافها ، على ظنِّهن أنها ذهبت وزوجها إلى تَدمُر .

لقد تحوَّلَ بيتنا هذا إلى مقهىً حقيقيّ ، يستقبل الزوّار منذ السادسة صباحاً حتى الثانية عشرة ليلاً ، يشربون القهوة ، يدخّنون النراجيل ، يرافقوننا على موائد الفطور والغداء والعشاء ، يلوّنون الجوّ الداخليّ بالحيويّة والفرح ، فباتوا وكأنهم جزء من البيت ، أو وكأن البيت جزء منهم . ولا أزال أتذكّر، كيف كنّا نضطرّ إلى فتح باب البيت الخارجيّ ، لنوفّر على أنفسنا عناء الاستجابة لكل رنين من جرسه ، هذا الذي كان يتكرَّر في اليوم الواحد عشرات المرات ، وعناء نزول الدرجات الثمانية الداخليّة التي تُوصِلُ إلى الباب الخشبيّ . كما لا تزال تضجُّ في أذنيَّ طَرَقات أحذية القادمين في الصباح ، وأنا لم أكن قد نهضتُ بعد من الفراش ، القادمين الذين سرعان ما يتبيّن أنهم هم أنفسهم الذين زارونا صباحَ أو مساءَ أمس ، ولم يكن هذا أمراً مدهشاً ، ما دام قد كان هناك من يتردَّدون علينا مرتين أو ثلاثاً في اليوم الواحد . وكان اجتماع الشمل في كنفنا يبدو أكثر اكتمالاً في التاسعة مساءً ، وقت عرض المسلسلات ، إذ لم يكن أحد في الحيّ يملك التلفاز سوانا ، وإذا ما وُجِد من لا

يستطيعون القدوم ، كان بإمكانهم المتابعة من خلال نوافذهم المقابلة لنا . كما كنا نشهد مثل ذلك التكتُّل ، في حرب ١٩٧٣ ، إذ إنه إذا لم تكن هنالك من غارات تذهب بنا مسرعين إلى الملاجئ ، اصطفَّ الجميع في بهونا ، يتحادثون ويتشاورون كما لو أنهم قادة سياسيون، وبعد ذلك يبدؤون بالإنصات إلى المحاضرات الحماسيّة من جارتنا س ، وتفصيلاتها حول ما لملمتْ من أنباء ، مستفيدةً من وجود زوجها حينذاك في جبهة القتال .

لم نكن ندري أيّ يدٍ كانت تُدفِق علينا النقود اللازمة لحياةٍ كتلك ، صحيحٌ أن كلاً من والديّ حصل على بعض الرزق من أهله ، لكن الدخل المتوسط لأبي الذي رافق وظيفتيه العاليتين ، رئاسة الماليّة ثم رئاسة فرع الهيئة المركزية للرقابة والتفتيش ، ليس له أن يرفد ما كان يتناقص يوماً بعد يوم .

لا شك في أن زقاقنا ، كان زقاق القمامات التي تفوح علينا بأرجها صباحَ مساء ، زقاق الفقر المدقع الذي يحمل أطفاله على أن يصطفّوا أمام بابنا الحديديّ مندهشين منبهرين كلما رأونا نهبط الدرج للقيام بزيارة ، إذ لم يألفوا الثياب المرتبة النظيفة ، والشعور المسرّحة، وبعض الزينة ، وحين كنا نسألهم عمّا بهم مبتغين إيقاظهم ، يتبيّن أن حالتهم التي سرعان ما سيطرت عليهم وأخذتهم بعيداً ، أقوى من أيّ تنبيه . كما كان زقاقُنا زقاقَ الجهل ، إذ لا يحفل غالباً لدى صدور النتائج الدراسيّة ، إلا بالراسبين أو الناجحين بالمعجزات ، ولا يجد فيه الأهل من وسيلة لعقاب أولادهم فيما إذا خرجوا عن طاعتهم، إلا بحرمانهم من متابعة الذهاب إلى المدرسة . وكانت

ضحية هذه الحال الفتاة ن التي قرضتْ الشعر مبكّراً ، وأمتعَتنا في سهرات كثيرة من خلال نافذتها القريبة ، بتلاوة ما كانت تنظم من قصائد ، ولكي نتأكد من أنها هي التي نظمتها ، طلبنا منها أن تكتب قصيدة رثاء لعبد الحليم حافظ بعد يوم من وفاته ، فاستجابت خلال دقائق عشر . كما تحضرني بشأن الجهل في زقاقنا ، صورة تلك الأم التي كانت تجلس في كلّ يوم إلى جانب طفلها على منضدة الدراسة ، وتطلب منه أن يكتب ويقرأ أمامها ، باعثةً في نفسه الهيبة من اتساع علمها ، وهي أميّة لا تميّز بين حرف وآخر ، وإذا ما صدرت النتائج في نهاية الفصل أو العام ، وزّعتْ عينيها ما بين الصحيفة التي تتظاهر بقراءتها ووجه ابنها الذي ينبغي أن تحدّجه بنظراتها القاسية ، وتؤنّبه وتشتمه لعدم حصوله على ما يتوافق وجهودَها خلال الفترة السابقة . وإذا لم يتمكن الطفل من اكتشاف أمر أمه ، فقد كشفه له والده ذات يوم ، حين سألها عن سبب معاقبتها له بالحبس في غرفته ، وهو الحاصل على المرتبة الأولى ؟! كما كان زقاقُنا زقاقَ الأمراض السارية ، ما له اسم منها وما ليس له من اسم ، لذلك فقد كان من البديهيّ أن يكون المستقبِل الأول للكوليرا ، كلما زارت المدينة ، والمقدِّم الأول لقرابينها ، الأمر الذي كان يبعث في نفوسنا لدى سريان هذا المرض هلعاً لا حدود له، يحملنا على اتخاذ أشدّ الإجراءات الصحيّة ، وعلى عدم التحرُّج من أن نطلب من ضيوفنا خلع أحذيتهم قبل دخولهم بيتنا .

هكذا كان زقاقُنا ، لكنه من جانب آخر كان زقاق الطيبين الذين لمّا تلوثْهم الحضارة بآفة الزيف . إنهم كانوا لنا الأم والأب والإخوة

في المناسبات المتنوّعة ، إذ يجتمعون في كنفنا ، ويقدّمون ما أمكنَ من المساعدات . وإذا ما سافر والدي ، تحوَّلَ بيتنا إلى مبيت لهم ، وإذا ما سافرت أمي ، تحوَّلَت بيوتهم إلى مطاعم تورِد لنا الأطباق . ولم تفارق مخيلتي صورة الجارة العجوز وديعة ، التي صعدت درجنا ذات يوم وهي تَحبو ، لتؤدّي واجبها نحو أمي المريضة ، ولا صورة الدموع المنهمرة من عيون جارتنا أميرة حين كنتُ أحصل على الدرجات العليا ، وهربها دون أن نشعر إلى بيتها لتنهمك في إعداد قرص من الحلوى وحمله إلينا ، ثم حضورها في اليوم التالي لإتيانها لي بقطعة ذهبيّة صغيرة على الرغم من سوء أحوالها الماديّة. ولا أجد بداً من احترام المعربدين الذين يكونون قبل دخولنا الزقاق في حالة من الشغب والضوضاء ، والذين لا يلبثون بعد دخولنا أن يتفرقوا عن بعضهم بعضاً ليفسحوا لنا المجال للسير الأكثر أمناً ، وليلتفت كلٌّ منهم إلى الجدار ، حفاظاً على مَن هنَّ بمنزلة أخواتهم .

ومثل هذه العلاقات لا بد أن تعني امّحاء كلِّ الفوارق التي تقوم عادةً بين البشر ، الدينيّة منها والطبقيّة والقوميّة ، إنها لم تكن تشكّل هنا سوى حافز للتحابب والتعاضد . ففي حيّنا كان يلتقي المسلم والمسيحيّ ، الغنيّ والفقير ، السوريّ وغير السوريّ . وبذلك نشأت الصداقة الأمتن ما بين أم محمد علي التركيّة وأم آجوب الأرمنيّة ، غير آبهتين بدهشتنا ، منصرفتين عن تساؤلاتنا الممازحة حول كيفية التقاء ذينكَ الشعبين فيهما ، أو بالأحرى إنهما كانتا تجعلان من مواقفنا وقوداً لاشتداد ألفتهما وتأجُّجها . كما نشأت صداقة مماثلة بين والدي وأبي رشيد السكّير ، أو أبي الرشد في عُرف الحيّ ،

لإشفاق أبي عليه دائماً بالنقود والمحبة والودّ ، لذلك لم يجد هذا حرجاً في أن يتخذ في بعض الأحيان من مدخل بيتنا الخارجيّ أو مدخل المكان الذي يعمل فيه والدي مبيتاً له .

واستكمالاً لهذه الصور الطريفة ، يحضرني الشاب عُمَر الذي يُنسيه شربه للخمر كلَّ مساء التحدث باللغة العاميّة ، ويحوّله بغتةً إلى إنسان فصيح مستقيم اللسان . أما الحاجَّة مريم التي صرفَها عشقها لله عن الزواج وكلّ شؤون الدنيا ، وأمكثَها في صومعتها تتعبّد وتتقرّب ، فكانت تضطرّ بين الفينة والأخرى من المناسبات الدينيّة إلى فتح نافذتها المطلّة على الزقاق ، لتصبَّ بصوتها الأجشّ العريض غضبها الملتهب على أطفال الحيّ ، الذين لا يحسنون اللعب دون شتم أرباب بعضهم بعضاً ، وتدبيج قراءتها القرآن بما يبعثها على الشهيق هَلِعةً والرصف السريع لدعاءات الاستغفار ، وفي نهاية كلّ فورة ، لا تجد من سبيل سوى ملاينتهم قليلاً ، والإخفاض من صوتها متضرِّعةً ، أن يتركوا إلهها بسلام ، ويفعلوا بعد ذلك ما يشاؤون ، لكن سرعان ما كان يتبيّن لها لدى بدئها بجولتها التعبديّة التالية ، أن كلا الأسلوبين لم يُجديا معهم ، إذ صاروا يتقصّدون ذلك للاستمتاع بأعاصيرها . بل إنها لم تتخلص بين فترة وأخرى من ممازحات أبي التي كان يرسلها إليها عن طريق أمي ، مسائلاً ما إذا كانت تقبَل باستثنائه من بين الرجال وتجلس بحضرته ؟ فتردّ عليه عن طريق أمي ذاتها بالنفي القاطع المسبوق بما يجود به لسانها من بسملاتها المتحببة حوله ، إذ كيف ستستجيب لتمنّياته ؟ وهي تحرص لدى الخروج من بيتها على

تغطية جسدها بأكمله من الرأس حتى أخمص القدمين ، وترى العورة في كلّ نقطة منه . أما جارتنا س المحاضِرة حول حرب تشرين ، فلم يكن يحلو لها العيش دون أن تدخل بين الحين والحين في خصومات ناريّة مع الذاهب والآيب ، وتجعل منها غذاءً إضافيّاً لها. ونحن الذين لم نكن نتساءل حول أسباب خلافاتها هذه لسطحيّتها المحتَّمة ، لم يكن يعنينا منها سوى أن نمدَّ رؤوسنا من نوافذنا ، ونستمتع بحضور ذلك المشهد . فمن جانبٍ كانت تبدو هي بجسدها الذي يثبُ ويحطّ ، وهجماتها التي تؤهّلها لحلولها محلّ زوجها في جبهة القتال ، وصوتها الذي يوحي بخروجه من بركان يغلي ويفور ، وكلماتها التي تأبى إلا أن تلتصق ببعضها بعضاً ، ومن جانبٍ آخر، هناك الضحيّة المرأة أو الرجل ، التي لا تقوى في هذه الحال إلا على الصمت أو الارتداد إلى الوراء ، تجنُّباً لضرباتها التي ربما تكون قاضيةً أو لعضّاتها . ولم يكن يُطفئ هيبتها في نفسي سوى ولوجها بيتنا ، إذ كانت لا تلبث أن تتحوّل إلى حمامة وديعة متفوّقة علينا في رقّة الصوت ، مستعدّة لبذل كلّ نفسها في سبيلنا ، الأمر الذي كان يجعلنا ندخل في شكٍّ وتساؤل ما إذا هذه التي أمامنا هي ذاتها التي كانت بالأمس ؟! ولم نَرَها تضعف وتستسلم أمام الخصومات ، إلا في مرة واحدة ، ذلك حين أوقدَ مجهول ناراً في مدخل بيتها ، إذ أخمدتها وراحت تبكي مذعورةً من الخطر الذي كاد يحيط بها وبأبنائها . و كريكور الذي لم يَعُد يتذكر بعد سقوطه عن الدرّاجة سوى أبيه المتوفّى منذ ثلاثين عاماً ، وأصبح يتصوّره وكأنه مات منذ أيام ، كم كان يحملنا لدى قدومه إلينا ، ونحييه على من

فقدَ وتخفيف والدتي الطيبة عنه على اللجوء إلى غرفتنا أنا وإخوتي ، وإطلاق العنان لضحكاتنا ، خشيةَ أن تبقى في حلوقنا وتسبِّب لنا الاختناق . لكنه إذا لم يستطع إلا أن يُضحكنا ، فإنه استطاع أن يُبكي معه أخته السليمة المعافاة لكثرة ما أخذ يتردَّد عليها ويحرّك في ذاكرتها أطياف ذلك الأب المفقود .

وهكذا إلى أن جاء عام ١٩٨٠ ، ليقرع جرسَ الشؤم ، ويُلبِس بيتَنا ثوب الحداد على أهله الذين اضطرّوا إلى بيعه والخروج من الحيّ . جاء عام ١٩٨٠ ، ليتوافد إلينا الجيران ، لا من أجل أن يفرحوا ويتسامروا ، إنما ليذرفوا ما أمكنَ من دموع الوداع والتحسُّر على تلك الأيام الجميلة التي أعارنا إياها الزمان إعارةً . جاء عام ١٩٨٠ ، لتهدأ كلّ حركة بعد سبعة عشر عاماً ، وليصمت كلّ فرح، وليدخل كلّ شيء الذاكرة ، الذاكرة وحدها التي لا تنفكّ تزهر بالأخيلة الجميلة . وعلى الرغم من انتقالنا إلى بيت محاط بظروف أفضل ، ومن ثم إلى بيت أفضل وأفضل ، فإن أمي الحزينة التي وزّعتْ السنين الأولى من الخروج ، ما بين البكاء والتأسُّف ، لا تزال تمتلك شعور من فقدت ابناً ، إنها لا تزال تسمع نداءاته لها ، ولا سيما في هذه الأيام التي أصبح فيها خالياً ، وكذلك نداءات الجيران ، الذين لم يتكرروا ولن يتكرروا ، ولا سيما بعد خروجهم – هم الآخرون – من الحيّ تِباعاً ، وتشتُّتهم في أماكن متفرقة لم تمنحهم سوى الوحدة والفراغ .

- ٢ -

لم أكن قد بلغتُ بعدُ سوى بضعة أشهر من عمري ، حين اصطحبَتني أمي لزيارة عمتها السيّدة دلال صفيّة ، بمناسبة قدومها لفترة وجيزة من دمشق مكان إقامتها ، إلى اللاذقيّة . ولم يكن قد مضى وقت طويل على فرحها بلقائها الأول بي ، وانهماكها بملاعبتي ، حين استدارت نحو أمي مذهولةً تسألها ، ما إذا كانت قد لاحظتْ ما يتعلق بأمري ؟! فعيناي – كما تراءى لها – ليستا على ما يرام ، إنهما لا تستجيبان لإشاراتها الكثيرة ، وتتحوّلان عنها نحو جهات أخرى ، وإذا ما اتجهتا إليها ، فإنهما لا تدقّقان النظر بصورة جيّدة . كان من البديهيّ أن تحظى ملاحظة العمّة بكثير من الاهتمام ، لِما تميّزت به من حدة في الذكاء ، ووضوح في الحكمة ، وتماسك في الشخصيّة ، وما عنى هذا كلّه إلى جانب جبروتها وجمالها ، من امتلاكها مكانة مرموقة بين الأقارب وجميع المحيطين بها ، وإنصاتهم بتركيز إلى كلّ كلمة تقولها ، وكلّ رأي تُدلي به .

كم تمنَّت أمي وقتذاك ، لو مرت زيارتها بسلام ، واقتصرت على استمتاعها فيها برؤية عمّتها ، دون أن تطرأ عليها تلك الصدمة العنيفة ، وكم تمنَّت العمّة دون شكٍّ ، لو لم تمتلك الجرأة على التصريح بريبها الذي اقترب من الحقيقة الموسومة غالباً بالمرارة والقسوة ، لكن التوازن في محبتها قد حالَ دون أيّ تردُّد قد يُلحِق بنا الأذى ، محبتها التي قامت من جهة على القلب ، فجعلت مني ومن

أسرتي جزءاً لا ينفصل عنها ، ومن جهة ثانية على العقل ، فاقتضت دفع أسرتي إلى التحقُّق من الموقع الذي خصَّصتْه لي الحياة بغية معالجته ، وتفادي ما أمكنَ من آثاره السلبيّة .

عَرَضَني والدي خلال أعوامي الأولى ، على من تعدَّدَ من الأطبّاء ، فكان منهم الدكتور صلاح أديب في اللاذقيّة ، وثلاثة أطبّاء في دمشق . وللمزيد من التأكد اصطحبتني أمي إلى بيروت مرتين ، فعَرَضَتني في الأولى على الدكتور وحيد سنّو بمساعدة زوج قريبتنا السيّد محمد الساحليّ ، وفي الثانية على الدكتور كميل متّى الذي كان يَقْدُم كلّ عام لفترة محدَّدَة من الولايات المتحدة الأمريكية إلى مستشفى الجامعة الأمريكية ببيروت . وقد تم إجماع الآراء على وجود خلل في البقعة الصفراء الكائنة في أقصى الشبكية، والمسؤولة عن تلقّي العين الضوء الخارجي ، وعلى أنه ليس من علاج حاليٍّ لهذه الحالة ، وما علينا إلا أن ننتظر ريثما يتم التوصل إلى شيء بهذا الخصوص . وقد وصف لي الدكتور وحيد سنّو نظارات مكبِّرة ، عساها تسهم إلى حد ما في توضيح الرؤية ، لكنها من جانب أول لم تفدني ، ومن جانب آخر لم أصبر على استعمالها ، لعدم ألفتي أي جسم غريب يلحق بي وإن كان حليةً ثمينة . كما أنه نظراً لتسبيب القرابة بين والديّ في تشكيل وضعي الصحي ، نصح الدكتور كميل متّى أمي بألا يتكرر الزواج بين أقاربنا ، تلافياً لتكرار الوصول إلى مثل هذه النتيجة . وكان من المفترض أيضاً أن أسافر إلى تشيكوسلوفاكيا برفقة صديق مقرّب إلى والدي ، يدرس الاقتصاد السياسي هناك ، هو السيّد عبد الله البرّي ،

ولكي آلفه تم الاتفاق بينه وبين أسرتي على الإكثار من تردده علينا، والتقرّب مني بشتى الوسائل . وقد نجحت خطته حقاً ، إذ لا أزال أتذكّر التعلق الذي تكوّن في نفسي تجاهه ، لكن فكرة السفر ما لبثت أن ألغِيَتْ ، إذ اقترح والدي تلافياً لمتاعب قد يبذلها صديقه دون جدوى ، أن يرسل أولاً تقريراً حول وضعي إلى الأطباء في ذلك البلد، وعلى ضوء الإجابة التي سيتلقّاها ، يتم اتخاذ القرار المناسب. وبالفعل سرعان ما تبيّنَت السلامة في اقتراح والدي ، لأن رأيهم جاء مطابقاً لرأي الأطباء السوريين واللبنانيين .

من خلال تنقلاتي السابقة بين الأطباء ، لم أعُد أتذكر ما يمكن الوقوف عنده سوى أمر واحد : فحين شرع الدكتور ر بدمشق في معاينتي المبدئية ، أشعلَ لي عود ثقاب ، فتراجعتُ باكيةً مذعورةً لظني أنه سيحرقني ، لكنه سرعان ما نفى ظني بقوله إنه لا يتقصَّد سوى معرفة ما إذا كنتُ أرى اللهب أو لا . أما ما سوى ذلك من الأحداث ، فقد سرده لي والدي على النحو التالي :

لدى وصولنا إلى عيادة أحد الأطباء الثلاثة بدمشق ، ترك لي والدي الحرية في الحركة داخل صالة الانتظار الكبيرة ، ذلك بناءً على أسلوبه البسيط في تعامله مع الأطفال ، ثم إنه ربما وجد في تحريري ذاك ما يصرفني عن الملل الذي قد لا أحتمله ريثما يحين دخولنا إلى الطبيب ، إلا أنني ما لبثتُ أن اقتربتُ من أحد الأشخاص الجالسين ، وناديتُه بابا .. فأعطاني والدي على الفور صوته ليرشدني إليه ، بعدما شعرَ بتأثّر عميق لعدم تمكن ابنته من تمييزه ، ورؤيتها إياه في رجل غريب . وأطلَّ الطبيب لدى خروج

أحد المرضى ، فهرع إليه والدي ، يسأله ما إذا كان بالإمكان الإسراع في معاينتي مراعاةً لسنّي ولحالتي الخاصة ؟ فردَّ عليه بلهجةِ من يستخدم العقل في غير مكانه : ليس عندي حالات خاصة . وهنا على الفور انصرف بي والدي إلى خارج العيادة ، واصطحبَني إلى الطبيب ر . ونتيجة الخوف الشديد الذي كنتُ أشعر به لدى إجراء الفحوصات السابقة ، سأل والدي الطبيب عن الطريقة التي يمكن من خلالها تلافي ذلك ، فاقترح إخضاعي لتخدير عامّ . لم تكمن المشكلة هنا ، إنما في الموعد المتأخر الذي اضطر الطبيب إلى تحديده لكونه موظفاً ، وهو الخامسة عصراً من يوم الغد ، وما سيعني هذا من إخضاعي طيلةَ النهار لصيام تامّ . وقد حاولَ والدي تلطّفاً بسنّي تقديم الموعد إلى الثالثة مثلاً ، أو إلى ما قبل الدوام الوظيفي ، لكن يبدو أن الطبيب كان أقلّ احتمالاً مني للإخلال بنظام حياته . لم يجد والدي من سبيل إذن إلا أن يستسلم للمعاناة التي ستلحق به من جرّاء تحويل نفسه إلى حارس على طعامي وشرابي ، بعدما كان يبالغ في ملاحقتي بهما ، ويحرص على تأمين متطلباتي ، وإن فاقت طاقاته المادية .

وصلْنا في اليوم التالي وفق الوقت المحدَّد ، بعدما ثقلَ على والدي إحصاء الساعات السوداء ، ففوجئ بأن باب العيادة لا يزال مغلقاً ، احتضنني وجلس على الدرج ، ينتظر إلى أن جاء الطبيب وبرفقته طبيب التخدير في الخامسة والنصف أو السادسة ، فلم يجد والدي من حرج في معاتبتهما ، لأن هذا التأخر لم يدل على الفوضى وعدم القدرة على التقيّد بالنظام ، بقدر ما يدل على ضعف

الشعور الإنساني ، تجاه طفلة أنهكَها الجوع والعطش . أنجزَ طبيب التخدير مهمته بطريقة بدائية ، وفوق ذلك غير لطيفة ، إذ وضع كمامة على وجهي ، وراح يخضُّ السائل المخدّر عليها بغزارة وتتابُع، الأمر الذي أشعرَني بالرعب الشديد والقرب من الاختناق ، فرُحتُ أنتفض وأتشنج فاقدةً صوابي ، وظللتُ أصرخ بابا بابا ... إلى أن استسلمتُ لنوم عميق . عقّبَ والدي الذي آذاه ما رأى ، وعجز عن إنقاذي متسائلاً عن أي فائدة قد جنيناها من هذه العملية، ما دامت لم تحقق إراحتي المنشودة ، بل زادت من تخويفي ؟ وفي لحظات قصيرة تم تأكيد ما ذهب إليه الأطباء السابقون ، أو بالأحرى اختطاف بصيص الأمل الخافت الذي تشبَّثَ به والدي قبل الاستسلام لتلك الهوّة . ثم طولِبَ والدي بمبلغ ماليٍّ ، قد يُعَدُّ ضخماً في ذلك الزمن ١٩٦٣ ، وهو خمس وعشرون ليرة للطبيب ، ومثلها لطبيب التخدير .

حملَ والدي جسدي الصغير ، عائداً إلى بيت عمي الذي أقمنا فيه بدمشق ، مثقلاً بالألم الذي كنتُ غائبة عنه ، وبينما أخذ يفكر في المسؤولية التي لم يجد وأمي مهرباً منها ، تصدّى له رجال الشرطة ، معلنين منع التجول في الطريق الذي يتخذه ، بسبب قدوم السَّلاّل ، رئيس جمهورية اليمن ، حاول استعطافهم شارحاً لهم ظرفي، متسائلاً عن المكان الذي يمكن اللجوء إليه وابنتُه في هذه الحال ؟ إلا أن السلال كان فوق كل ظرف ، وفوق كل عاطفة إنسانية ، بل إنهم ربما خشوا عليه من خطر قد أُلحِقه به ، فراح والدي ينهال عليهم وعلى السَّلال شتماً وسباباً غير آبهٍ بأحد ولا

بالحياة بمجملها . وفجأةً خرج من حيرته ، حين تراءى له بيت العمة دلال قريباً من المكان الذي كنا متسمرين فيه ، وبدا له أن طريقه غير متصل بالطريق الأول المغلق ، وهناك ، في بيت العمّة ، وضعني على سرير ، لأتابع استغراقي في النوم ، ثم وضع رأسه إلى جانبي ، ليستغرق في نشيج مرير .

- ٣ -

قضيتُ الشطر الأول من طفولتي في سعادة عارمة ، ذلك ما بين الأهل والأقارب والجيران والمحيطين الآخرين بي ، إذ لم يطلعني أحد منهم على الحقيقة التي تنتظرني ، واكتفوا بالتعبير عنها من خلال إبدائهم من العناية والاهتمام بي ما يفوقان الحدود أحياناً ، ولا سيما حين لجأ بعضهم إلى تمييزي عن أخويَّ رندة وعُمَر اللذين يصغرانني . فقد خصَّص لي جدّي لأبي السيّد محمد هلال بيتاً من البيوت التي يملكها قبل أن يخصص لأخي . وفي صباح كلّ عيد ، كان جدّي لأمي السيّد وجيه صفيّة يقدّم لي عشرين ليرة سورية مقابل خمس ليرات لكلّ من أختي وأخي ، بل علمتُ مؤخّراً أنه كان يفضلني في ذلك على أخوالي الذين كان يقدّم لهم من الليرات ، بعدد سنوات أعمارهم التي لم تصل لدى الواحد منهم حينذاك إلى العشرين. علماً أن هذا التفريق بيني وبين أخويّ كان يحزُّ في نفسي، ويُشعرني بغياب العدل ، إلى جانب فرحي بالمبلغ الضخم وإحساسي بالامتنان تجاه جدّي ، فلا ألبث بعد ذهابه من بيتنا ، أن أعيد

القسمة ، ليصبح بحوزة كل منا عشر ليرات ، ولنتأهب بعد ذلك لشراء ما يتم شراؤه في الأعياد ، فألقى بذلك التشجيع والثناء الكبيرين من والدي الذي لا بد أن يكون قد تألّم هو الآخر من ذلك التفريق . إلا أنني أنتهز هذه السطور لأثني بدوري على أخويّ اللذين كانا يستوعبان القضية بكل موضوعية ومنطقية ، واللذين لم تظهر لديهما أي ردة فعل سلبية تجاهي ، على الرغم من أنها كان ينبغي أن تتضح بصورة حتمية ، بل إنهما كانا ولا يزالان يشكلان فيما يبديان لي من المحبة والعون والعناية والحرص ، فردين لا يقلان عن أولئك الذين سبقَت الإشارة إليهم .

أَتَذْكُرُ يا عُمَر ؟؟؟

في صباح الأول من آب .. عام ١٩٦٤ ..

وأنا طفلةٌ في الرابعة ..

كم ملأتُ البيت وثباتٍ وصياحاً ..

سيأتينا عُمَر ..

سيأتينا عُمَر ..

أَتَذْكُرُ يا عُمَر ؟؟؟

وكم رُحتُ أفتَحُ البابَ حيث كانت تمكُثُ أمي ..

ألم يأتِ بعدُ عُمَر ؟؟؟

أمَا آنَ الأوان أن يأتيَ عُمَر ؟؟؟

متى سيأتي عُمَر ؟؟؟

فترفعُ القابلةُ دعاءَها إلى الله :

إلهي .. أرسِلْ إليها عُمَر ..

وأتى عُمَر ..

حقَّاً أتى عُمَر ..

من أنبأَني أنكَ ستأتي ؟؟؟

من أنبأَني أنكَ دون سواك ؟؟؟

كم أَبهجتَني حينذاك يا عُمَر ..

كم ملأتَ كياني بالفرح ..

الفرحِ الذي لم أدرك يومذاكَ اسمَه ..

اقتحمتُ الغرفةَ نحوَ سريرِ أمي ..

نحوَ وجودِكَ بجانبها

وهجاً من أنوارِ القمر ..

التفتَتْ أمي إليّ :

ها قد أنجبتُ لكِ عُمَر ..

ثم أخبرَتْني أمي ..

بأنكَ تنظرُ إليّ ..

ماذا كنتَ تقولُ لي يا عُمَر ؟؟؟

هل قلتَ سأكونُ لكِ أخاً حبيباً ؟؟؟

هل قلتَ سأكونُ لكِ عيداً ؟؟؟

حقَّاً كنتَ لي عيداً يا عُمَر ..

كنتَ لي من اللهِ هديَّةً

لم أُخطئ حين ابتغيتُكَ يا عُمَر ..

يا من بقيتَ لي عبر أيامي سَنَدَاً ..

سنداً اسمُهُ عُمَر ...

ولا بد في هذا المجال أيضاً من أن أذكر أطفال أختي ؛ فزينة التي لم تكن قد بلغَتْ بعد سوى عامين من عمرها ، بدأَتْ تدلني على الأشياء من خلال إمساكها بيدي ، وتمريرها من فوقها . وفؤاد الذي يصغر أخته ، حاول ذات يوم أن يحمل الكنبا التي تفوقه في حجمها بضعة أضعاف لكي يفسح لي المجال لمتابعة طريقي إلى الشرفة . أما رشا الصغرى ، فإنها ما إن ترني أنهض حتى تهرع إلي بلهفة لتقودني إلى غايتي ، ولتنتظرني بعد ذلك لكي تعيدني إلى حيث كنت. أما زوج أختي السيّد أحمد راعي ، فلا أنفكُّ أقرأ انشغاله الداخلي بي وبأسرتي ، ذلك إما من خلال سلوكه أو عباراته أو صمته أو ذرفه لِما تجود به عيناه السخيتان من دموع في كلّ مناسبة تتاح له ، ولذلك لم أتأخر يوماً عن تصريحي بأنني لا أخشى الحياة القادمة وما يمكن أن تتحفني به من عراقيل جديدة ، ما دام أحمد متواجداً بجانبنا .

كنتُ في الشطر الأول من طفولتي ، كعصفورةٍ خليّة ، تغرّد وسط الربيع ، ولا تزال ذاكرتي تلامس بفرحِ الألعابَ والسكاكر التي كانت تُغدَق عليّ ، كما لاتزال ذاكرتي تطرَب لأصداء غنائي الذي كان يملأ البيت ، وأحياناً الحي لدى عودتنا من بعض الزيارات ، وتصفّق بابتسام لطَيفي وهو يرقص دون إتقان لأي أغنية تنبعث من المذياع. لكن بين الحين والحين ، كان يتردّد عليّ ذلك السؤال التقليدي ، ذلك الذي أصبح ممجوجاً مبتذلاً في منظوري ، لِما يعني من غباء طارحيه ، وعدم تقديرهم مشاعر الآخرين ، وتظاهرهم بحمل مسؤولية لا تشبه سوى الزَّبَد ، إنه سؤالهم : " أأنتِ لا تبصرين ؟ " وعلى

الرغم من عدم معرفتي المقصودَ بما يسألون عنه ، فقد كنتُ أجيبهم بالنفي ، ثم سرعان ما أعود إلى زماني النقي غير آبهة بما أسمع ، وغير عادّة إياه سوى سحابة لا تلبث أن تنقشع عن نهاري المشمس.

أما الشطر الثاني من طفولتي ، فقد تحوّلَتْ فيه شعلة الطبيب التي أخافَتْني إلى نيران عاتية نهشتْ خضرة أيامي ، وذهبتْ بنقائها. فقوافل الأطفال الذين هم في مثل سنّي ، بدأتْ تمر من أمامي ، وهم يحملون بفرح ولهفة حقائبهم ليهرعوا في الصباح الباكر إلى المدرسة ، وبدأتْ تساؤلاتي الملحّة تنهال على أمي جرعاتٍ مُرّة ، حول الاستنكاف عن إلحاقي بهم ؟ فلا تملك إلا أن تجيبني ، بأن المعلمات يلجأن إلى ضرب التلاميذ ، في حين أنني لم أكن أدري ماذا يجري وراء الحجب ، فقد كان أبي يعارض إخضاع ابنته التي تعاظَمَ حبُّه لها لهذه التجربة ، خشيةً عليها من مرارتها وقسوتها ، ومن تبعات إخفاقها فيما إذا حدث ، أو محاوَلَةً منه تجنيبها المهانة التي لا ينفكّ يردّد علينا ضرورة عدم القبول بها ، مهما بلغ شأو الذي يمكن أن تصدر عنه تجاهنا . وبذلك اقترح أن يقتصر حل هذه القضية على إبقائي في البيت ، بعيداً عن أي عامل يمكن أن يؤدي إلى إزعاجي ، ومحاولته وأمي تدريجياً تعليمي ما يمكن أن أتعلمه . أما أمي ، فقد كانت بالمقابل تصرّ وفق شدة أبي ذاتها أو أكثر ، على تحقيق رغبتي وذاتي مهما كلفها ذلك من الجهد والمعاناة . وقد قصَّتْ عليّ – فيما بعد – حول الألم الذي كان يعتصرها ، حين كانت تلجأ القريبة والجارة م لدى زيارتها المتكررة لنا إلى نداء ابنها العائد من المدرسة ، كي يتبعها إلى بيتنا ، إذ كنتُ سرعان ما

أتهافت على حقيبته ، فألامسها بحنان ، وأطيل التأمُّل فيها ، ثم أبدأ بطرح أسئلة لا تنتهي حول العالم المأمول الذي لم يُحظَّر عليه هو. وأتذكر كم شعرتُ بالامتنان تجاه امرأة عمّ أمي السيدة ليلى عجّان ، حين حدّجَتْ أمي باستغراب واستنكار ، بعد عِلمها مني أنني لم أذهب إلى المدرسة ، وحين اقترحَتْ عليها بعفويتها وطيبتها أن أضع نظارات وأذهب كما يفعل ابنها حسّان .

بعد إخفاق محاولات أمي الكثيرة مع أبي ، لجأَتْ إلى ابنة عمّتها السيدة خديجة حكيم ، التي لا تقلّ عن أمها دلال حناناً وتماسكاً في الشخصية ، وقدرةً على إقناع الآخرين بحكمتها وآرائها السديدة . وبعد أيام قليلة من حوار جادٍّ ، أدارَتْه السيدة مع أبي خفيةً عني ، لم أجد وأنا جالسة بمفردي ، إلا قد قدِمت أمي إليّ من الردهة ، تخبرني بصوت يتهدج ابتهاجاً أن أبي وافق على إدخالي المدرسة . وعلى الرغم من الغبطة الكبيرة التي انتابتني حين زفَّتْ إليّ أمي ذلك النبأ، والتي كشفَتْ عن مدى حرصها على الوصول إليه ، فإنني ما لبثتُ بعد دقائق أن هبطَتْ عليّ حالة من الكآبة الكبيرة ، فقد شعرتُ بالهلع من العالم المجهول الذي أصررتُ على فتح بابه لمجرد الاقتداء بأقراني ، ودون إقامة حساب للضياع الذي قد يحلّ عليّ في غياهبه ، فما كان مني إلا أن انتقلتُ إلى مقعد قرب إحدى النوافذ ، ورحتُ أبحِرُ عبر المدى وحيدةً صامتةً في تأمُّل عميق .

- ٤ -

تم الاتفاق على البدء بذلك بصيغة التجريب ، ثم تم اختيار ثانوية الكرمل ، للاعتقاد أن في المدرسة الخاصة ما ينوب مناب مدرسة للمكفوفين ، ولا أزال أتذكر بهذا الصدد ، كيف استُدعيتُ إلى مجلس ضمَّ أمي وأبي والسيدة خديجة ، وكيف أخذت السيدة تلقِّنني التعليمات التي تُلقَّن لكل طفل قبل ولوجه تلك المرحلة . وحين لم يكن من الممكن أن أُرسَل بمفردي ، تم الاضطرار إلى تسجيل أختي رندة التي تصغرني بثلاث سنوات ، كي تكون رفيقة لي . والأمر الذي يبعث على دهشتي هنا، هو أن أسرتي إذا ما وجدَتْ في ذلك أمراً لا بد منه ، فإن أختي على الرغم من صغر سنّها ، وعدم بلوغها سوى ثلاث سنوات ونصف ، وما عنى هذا من التبكير عليها في التقيُّد ، فإنها بدت جدّ متفهمة الموضوع ، مستوعبة إياه بكل سعة صدر وصبر وحنان ، ولم أتذكر أنها صدرَتْ عنها بهذا الصدد، كلمة واحدة تنمّ على احتجاج طفولي .

حين اصطحبَتْني أمي في اليوم الأول إلى ذلك المكان من العام الدراسي ١٩٦٦ - ١٩٦٧ ، برفقة السيدة خديجة وابنتها فاتن وأختي رندة ، ما لبثتُ أن استعدتُ لهفتي الأولى إليه ، وأن غاب عني ذلك القلق الطارئ الذي كان قد انتابني . لقد كنتُ أظن أنني سائرة إلى النعيم ، إلى اللحظات التي سيتحقق فيها ذلك الحلم الذي طالما راودني ، وأنه لن تعود لديّ مشكلة تبعث على إلحاحي وألمي ، ما

دمتُ سأتساوى مع الأطفال الآخرين . وكان لي في البداية بعض ما تخيلتُ ، فقد استقبلتني إحدى الراهبات اللائي كنَّ يُدِرنَ المدرسة ، وهي الأخت بريجيت ، بصورة ملؤها الترحيب والثناء والتشجيع ، ولا سيما حين أخبرتْها أمي أنني لم أنَم في الليلة السابقة من البهجة . ثم قُدنَني جميعاً إلى الباحة التي بدت لي في غاية الجمال ، حيث الأشجار الملتفّة ، والظلال الكثيفة ، والدرّاجات والمراجيح المتناثرة هنا وهناك .

هذا ما كان في الساعات الأولى ، لكن لم يكد ينتهي ذلك اليوم ، حتى تلقيتُ أول مشكلة أو أول صدمة ، فقد كنتُ أظن كل الظن أنني سأذهب إلى المدرسة كل يوم برفقة جميع اللائي اصطحبنَني في الصباح ، إلا أن خالي عهد أخبرَني لدى قيامنا بزيارة لبيت جدّي أنني لن أذهب إلا برفقة شقيقتي . لم أصدِّق في البدء قوله ، لكن اليوم التالي أثبتَ تماماً صحته . وعلى الرغم من ذلك ، ظللتُ أشعر بشيء من الطمأنينة ، ما دمتُ قد كنتُ أجد أختي جالسة إلى جانبي على مقعد واحد ، لكن لم يكد يبدأ الدوام الثاني المسائي ، حتى فاجأتني معلمتي بأن أمسكَتْ بيدِ أختي ، وقادتها صامتةً إلى خارج الصف ، إلى مكان لم أدرِ وجهتَه . ربما لا أمتلك العبارة التي أستطيع من خلالها التعبير الدقيق عن تلك اللحظة التي قد تكون الأضيق في حياتي ، لكن ربما يكفي قولي : إنني أحسستُ حينذاك بأن روحي انسحبت معها ، مع تلك التي لم يبقَ لي سواها هناك ، وبقيتُ جسداً وحيداً لا يُحييه سوى الألم والاغتراب . وفيما بعد تيقنتُ مما تصوّرتُ بهذا الصدد ، إذ بحكم تفاوت السنّ بيني وبين أختي ،

ينبغي أن أكون أنا في الصف الذي كانوا يطلقون عليه التمهيدي ، وأن تكون هي في الصف الذي كانوا يطلقون عليه صف اللعب .

وفي اليوم التالي ، هانَ عليَّ الأمر قليلاً ، وعاودني شيء من الاطمئنان ، ذلك حين قدِمَتْ إلى صفنا الطفلة س التي هي ابنة قريبة لنا ، وطلبَتْ منها معلمتي أن تجلس بجانبي ، إلا أنني لم أشعر برغم ذلك بأنها عوضت عن قرب أختي ، لأن أمها كانت من القريبات نصف الودودات ، أو بالأحرى كانت هذه الأم ابنة السيدة م التي كانت تستدعي إلينا دائماً ابنها العائد من المدرسة ، وشجعت أمي بصورة سلبية على تجاوز توجّس أبي من إرسالي إلى المدرسة . ولم تمضِ أيام ، حتى صدق ارتيابي ، وتلقّيتُ من الطفلة الصدمة الثالثة المتعلقة بعالم المدرسة ، إذ بينما كنا ذات صباح نتحادث ونتسلى أنا وإياها ، أخرجَتْ من حقيبتها بعض الحلوى التي وضعتها لها أمها ، واقتسمَتْ لي بعفوية ورضىً جزءاً منها ، إلا أنني بعدما انتهيتُ من تناولها ، بدت وكأنها شعرَتْ بالندم على ما قدّمَتْ لي ، فأخذَتْ تئنّ وتبكي متذرعةً بأنني لم أبقِ لها شيئاً ، علماً أنني – كما أشرتُ – لم أكن أنا التي مددتُ يدي إلى ما تحمل . وفي الغد أنبأتني بأنها شكت الأمر إلى أمها ، وحين سألتُها عن تعقيبها ؟ أجابتني بأنها طلبت منها أن تكفّ عن مصاحبتي ، ومنذ ذلك الحين لم أجد س على مقعدي . علماً أن قبل هذه الحادثة بأيام ، كانت هذه الأم قد عبّرَتْ عن موقفها غير الإنساني تجاهي بصورة أكثر مباشرة ، إذ قدِمَتْ إلى المدرسة لزيارة ابنتها وتفقُّد أحوالها كما تفعل كل أم في بداية المرحلة الجديدة من حياة أبنائها ،

وحينئذٍ داخلَني سرور كبير ، إذ إنني بحكم صلتنا بها ، شعرتُ وكأن أمي هي التي أتت ، أمي التي كنت أشعر حيالها في تلك الساعات من بُعدي عنها بشوق عارم ، وانتظرتُ من السيدة أن تتقدم إليَّ ، وتخفف عني ببعض كلماتها شيئاً من شعوري بالغربة ، إلا أنها بقيَتْ متسمرة في مكانها عند باب الصف ، واكتفت بالترحيب بابنتها وتقبيلها ، ثم غادرتنا كما لو أنها كانت أماً لتلميذ غريب .

هذا ما كان من س وأمها ، أما فيما يتعلق بالتلاميذ الآخرين ، فبدا الأمر أكثر سوءاً . لقد كنتُ طيلة ذلك العام أتعرض لسخريتهم واستهزائهم ، ولا سيما حين كان يطلب مني ص جاري في المقعد أن أكتب كلمة بابا ، فأجعلها باءً وألفاً مقلوبتين . وفي الباحة حين كانوا يصادفونني دون أختي التي كانت تنصرف أحياناً إلى اللعب مع رفيقاتها ، كانوا يجدون الفرصة الواسعة لتسلية أنفسهم بي ، فيأخذون بالتناوب على ضربي ، ويفرحون بعجزي عن ملاحقتهم والدفاع عن نفسي . ومرةً واحدةً فقط استطعتُ التغلب عليهم وتهريبهم من حولي ، ذلك حين لم أجد من سبيل للتخلص من عنفهم إلا بالاستسلام لبكاء مرير . وكثيراً ما كان هؤلاء يكررون عليّ السؤال الذي كنتُ أتلقّاه في السنوات السابقة من بعضهم حول عاهتي ، ولما أصبحتُ في ذلك العام في سنّ تفترض استيعاب ما أسمع ، كنتُ أسرعُ إلى أمي ، فألحُّ عليها كي تخبرني بحقيقة الأمر ، وهنا كانت تبدأ بتصغير المشكلة وتضييق مساحتها إلى درجة إخفائها أحياناً ، فتحدثني عن الصم الذين لا يسمعون ، والبكم الذين لا ينطقون ، والمشلولين الذين لا يتحركون ، والعمي الذين لا

يبصرون مطلقاً ولا ينعمون بالدرجات الثلاث التي أنعم بها ، وبعد ذلك تسألني ما إذا كنت أريد أن أكون واحدة منهم ؟ فأجيب بالنفي ، ثم أدخل في تأمل مُوَزَّع ما بين الحزن والرضى .

ولما كان التلاميذ ينصرفون عن إيذائي ، كنت أنكفئ على ذاتي، وأخلد إلى وحدتي وصمتي الطويلين اللذين كانا يمتدان عبر دوامَي اليوم الصباحي والمسائي ، لذا فما كان أشد فرحي حين كان يتناهى إلى سمعي رنين جرس الانصراف الذي يبشّرني بانفكاك أسري ، وعودتي إلى أحضان البيت الدافئة ، وما كان أشد انقباضي وكآبتي لدى وصولنا كل صباح بالباص المخصص لنقلنا ، وتهيُّئي للبدء بسَجن نفسي نهاراً آخر . بل إنني في الأيام الأولى كنت أشعر بالخشية من دخول المدرسة برفقة أختي الصغيرة فحسب ، لذا صرتُ أتظاهر أمام معاونة السائق بعد نزولنا من الباص بعدم معرفتي موقعها القريب منا ، فأبدأ بتكرار مساءلتها عنه : أين المدرسة – أين المدرسة ؟ فعساها بذلك تحقق رغبتي في اصطحابنا إلى الداخل ، إلا أنها على ما يبدو لم تكن تدرك مبتغاي ، فكانت تكتفي بعد كل سؤال مني بإشارتها إلى الباب المقابل الأسود المتسع المخيف ، ثم تتابع حديثها الذي كنت أقطعه عليها مع سواها . وبينما كنت ذات يوم على حالي المشفقة في الصف ، وكان التلاميذ يضجون ويشاغبون ، تظاهرت المعلمة بأنها لن تسمح لهم بالذهاب إلى البيت ، ولما شعرتُ بأن العقوبة ستشملني ، هرعتُ إليها مذعورةً ، وأعلمتُها أنني لم أتفوه بكلمة واحدة ، فعفت عني مستدركةً الأمر ، وسمحت لي بمفردي بالتوجه إلى الباص ، وخارج الصف

انتابتني السعادة العارمة لإحساسي بأنه قد تم ثأري من زملائي بعد طول إيذائهم لي ، وبأنه قد تم تخلصي من الهلع المؤقت الذي سببته لي المعلمة ، إذ إن أكثر ما كان يبعث على رعبي هو أن يهبط الليل على ذلك المكان قبل مغادرته إلى البيت ، بل إن ما ضاعف من سعادتي تلك ، هو أن أمي كانت قد أخبرَتْني بعزمها على اصطحابنا بعد العودة إلى جدّتي الحبيبة .

أما في الباحة ، مكان الحركة واللهو ، فقد تجلت وحدتي في اللجوء إلى اللعب بالرمل ، وصرف كل نفسي إليه ما دام قد شكَّلَ وسيلة تسليتي الوحيدة والأكثر أمناً . علماً أن ذلك كان محظوراً علينا ، لكون الغرض من فرش الباحة بهذه المادة اقتصر على التخفيف من أذى الأطفال فيما إذا سقطوا ، لكنني لم آبه بهذا الغرض ، ولا بالتعليمات التي كانت تُكرَّر علينا بهذا الشأن ، إلى أن جاء يوم طلبَتْ فيه إحدى المعلمات بتحدٍّ وحزم خروج كل من لعب بالرمل من الصف كي يتلقى عقوبته ، إذ كان مني على الفور ، أن خبَّأتُ يديَّ تحت منضدتي ، ورحتُ أنفضهما بسرعة وذعر ، ثم ما لبثتُ أن عاهدتُ نفسي أن أترك هذه العادة ، ولا سيما حين رأيت التلاميذ العائدين يبكون بصورة تنم على شدة ما نزل بهم . وبذلك لم يبقَ لي في هذه الحال سوى الجلوس وحيدةً على إحدى الحافتين الموجودتين في الباحة ، ريثما يُقرَع جرس الدخول ، أو التسلي مع أختي حين لم تلعب .

ومما كان يزيد من شعوري بالوحدة ، ويضاعف من حجمه ، هو أنني كنت بين فترة وأخرى أفقد حقيبتي ، ثم ألقاها بعد يوم أو أكثر ،

دون أن أدرك كيفية حدوث ذلك . ويجدر بالذكر مدى الارتباط الذي كنت أحس به تجاه هذه الحقيبة ، هذه التي إن بدت للآخرين شيئاً جامداً ، فإنها كانت تشكل في منظوري رفيقتي الوحيدة التي تبقى هادئة صامتة مثلي طوال تلك الساعات ، ولا تُلحِق بي أي إزعاج ، ذلك إلى جانب تجسيدها – فيما سبق – حلمي بعالم المدرسة . وربما أستطيع بناءً على هذه المشاعر الخاصة تجاهها تفسير إصراري على إبقائها بجانبي على المقعد في الأيام الأولى من ذلك العام الدراسي ، ومدى إحساسي بالقلق لدى إصرار المعلمة على إنزالها إلى الأرض . كما قد أستطيع تفسير شعوري بالحنان نحوها لدى اضطراري إلى تنفيذ الأوامر بعدم حملها إلى البيت بين الدوامين الصباحي والمسائي ، إذ كنت في هذه الحال أتوجّه إليها قبل أن أغادرها ، مُنبئةً إياها بقرب عودتي إليها ، وكأنني حيال كائن إنساني .

ثم يبقى من ذلك العام أن أتحدث عن المعلمات اللائي كان بأيديهن الغاية الرئيسة التي من أجلها رضيتُ بتلك المعاناة . فقد كُنَّ أربعاً يتناوبن علينا طيلةَ النهار ، وبديهيٌّ أن يعني هذا العدد تنوع أدوارهن تجاه التلاميذ ، وتنوع مواقفهن تجاهي .

ففي الصباح الباكر كانت تأتينا السيدة م التي تحددت مهمتها في قص الحكايات علينا ، وإذا ما كانت الغاية مما تفعل تقديم الحِكَم التي لم نصل إليها بعد ، فإن ما حققَتْ من خلال روايتها ما كان يخيف ، هو غرس بذرة الرعب في نفوسنا ، والإسهام في إنمائها لكي تتحول شيئاً فشيئاً إلى شجرة لم تتأخر عن الإتيان بأُكُلها . ولم

ألقَ من هذه المعلمة شخصياً سوى الإهمال الكامل إلى درجة كانت تشككني في أنها لم ترني ولم تتنبه إلى وجودي ، لكن ريبي سرعان ما زال حين كان عليها أن تشملني مع التلاميذ الآخرين بسؤال مؤلَّف من كلمة واحدة ، وهي أمرتاحة ؟ ذلك حين بدّلَتْ مواقع جلوسنا ، ونقلتني من المقعد الأول القريب من السبورة إلى المقعد الأخير .

ثم تأتينا بعد ذلك المعلمة ج التي تحددت مهمتها في تدريبنا على القراءة والكتابة ، والتي كنت أخصها بالكثير من المحبة بسبب دماثتها ، لكن ما لبث أن تبين لي من خلال ما أعلمتني به أمي بعد سنوات ، من أن هذه الدماثة لم تكن تعني شيئاً ، ولم تشكل سوى صورة ظاهرية لا يكمن خلفها أي جوهر إنساني . فقد كانت أمي بين الفترة والأخرى تقوم بزيارة للمدرسة للاستفسار عن وضعي ، وكلما سألتْ هذه المعلمة عن إمكان سيري في العلم ؟ محَتْ من أمامها كل أمل ، وأغرقَتْها في بحر من اليأس المطلق ، متذرعةً بأنها تحاول كثيراً معي ، لكن كل ذلك يبوء بالإخفاق . علماً أنها كما توقن ذاكرتي ، لم تحاول إلا مع التلاميذ الذين كان بالإمكان أن تكتفي بالكتابة لهم على السبورة ، أما معي أنا التي كان من الممكن أن تستفيد من الدرجات الثلاث من بصري ، وأن توضح لي على دفتري القريب مني ما على السبورة من الحروف أو الكلمات ، فلم تجهد نفسها إلا بمحاولة واحدة ، وكان نصيبها النجاح ، إذ علمتني كيف أكتب حرف Q بالفرنسية ، فملأتُ لها صفحة كاملة منه . وبناء على ما كان يتناهى إلى سمع أمي المتلهفة من المعلمة ،

كانت تعود من المدرسة إلى البيت وهي تنتحب ، غير آبهة بنظرات المارة المستغربة ، وإلى جانب ذلك كانت تفكر بما ينبغي أن تقول لأبي الذي ينتظر منها اتصالاً هاتفياً ، والذي تشعر حياله بضخامة المسؤولية ما دامت قد أصرت على مخالفة رأيه والولوج في هذه التجربة ، ثم تنتهي إلى تمويه الحقيقة أمامه بعض الشيء ، وإلى إيقادها له بصيصاً من الأمل الذي أطفأتْه المعلمة ، وبعد ذلك تنفلت من تماسكها المؤقت لتعود ثانيةً إلى النحيب .

ثم تأتينا بعد الآنسة ج الآنسة جولييت أشخنيان التي لم أتذكر تماماً دورها ، لكن ما أتذكره هو لطفها ولهجتها المحببة المريحة لنفس الطفل ، وعدم تسبيبها لي ولا لأمي أي إزعاج .

ثم تشغل الدوام المسائي السيدة أ ، وقد تتضح العلاقة فيما بيننا من خلال الحادثتين التاليتين :

ذات يوم خطر ببال هذه المعلمة أن تدربني على كتابة كلمة باب ، مساويةً في ذلك بيني وبين أقراني ، فأخذَتْ دفتري ، وخطَّتْ لي الكلمة في زاوية من الصفحة ، وعلى الرغم من أنها عَدَّت نفسها قد خصَّتني في ذلك بشيء من الاهتمام ، لنقلها إليَّ ما كتبَتْ على السبورة ، فقد قضيتُ النصف الأول من الوقت وأنا أبحث عن الكلمة، ولمّا عدتُ إلى المعلمة لتدلني على موقعها ، لم تجهد نفسها إلا بمطالبتي بالمزيد من البحث . وهكذا إلى أن عثرتُ عليها بعد عناء ، وعدتُ إلى مقعدي مثبِّتةً إصبعي عليها خشية أن تنفلت مني، وأقع ثانيةً في الحرج ، لكن سرعان ما تبيَّنَ لي أن الأمرين سيان ، إذ إن خط المعلمة كان جد صغير ورفيع ، لا ينمُّ على

شيء من المراعاة لوضعي الخاص ، الأمر الذي جعل تجربتي تنتهي بالإخفاق . ومما زاد في ألمي وإزعاجي بصددها ، أن المعلمة لمَّحتْ لأمي بالحقيقة حين زارت المدرسة بعد أيام ، إذ قالت لها : طلبتُ منها أن تكتب كلمة باب ، ثم عقَّبَتْ بلهجة يائسة معبِّرة عن مدى عجزي وضعف حيلتها : فكتبَتْ .

وفي يوم آخر ، أخذت توزع بصخبٍ نياشين حمراء على بعض التلاميذ الذين نجحوا في نقل ما كتبَتْ على السبورة ، والنيشان باللون الأحمر كان يشكل رمزاً لأعلى درجات التفوق . كم تمنيتُ وقتذاك أن تذكر اسمي على سبيل السهو أو الخطأ ، وإن لم أحقق أي شيء ، أو بالأحرى وإن لم تتح لي تحقيق أي شيء . كم تمنيتُ أن يحدث ذلك ، ليس من أجلي ، إنما من أجل أن أبهج أمي التي كنت أحس بشكل غير مباشر بعمق الحزن الذي أسببه لها . فجأة لاح لي شيء من الانفراج ، حين قرأ أحد الصِّبيَة ما في داخلي ، وإن كان من الذين يسيئون إليّ ، إذ ساءل المعلمة قائلاً ، أو مذكراً إياها بي : وريم ؟ إلا أنها انتفضَتْ وكأنه أفزعها متسائلةً : مَن ريم؟! وفي اليوم التالي شعرتُ بأن جزءاً من حلم الأمس قد تحقق ، حين وجدتُ نيشاناً على صدر أختي ، إنه غدا في ذلك اليوم قريباً مني ، وملكاً لأقرب قريبة ، لذا رحتُ ألامسه بحنان قد يذكِّر بشأني تجاه حقيبة الصبيّ الذي كان يتردد على بيتنا قبل دخولي المدرسة .

ويبقى في النهاية أن أتحدث عن المعلمة سامية ، التي كنتُ أوثرها على الجميع ، لِما تميزَتْ به من دماثة وإنسانية ، وما لاقيتُ منها من حب وحرص كبيرين صادقين لم ألقَهما من سواها ، لكنها

للأسف لم تكن لنا معلمة أصيلة ، بل تتردد علينا بين الحين والحين لتحل محل أخرى غائبة . ويبقى في ذهني من صورتها المضيئة الحادثتان التاليتان :

ذات يوم كانت المعلمة تأكل الشوكولا في الصف ، ففاجأَتْني بأن وضعت منها قطعة في فمي ، شعرتُ بالخجل قليلاً لما دل عليه ذلك من إيثارها لي على أقراني ، لكن الأقران بالمقابل راحوا يتغامزون ويضحكون إما بدافع السخرية وإما الغيرة ، ثم نعتني أحدهم بصوت واضح بالشحاذه ، فهرعَتْ إليه على الفور تعاقبه وتؤنبه ، متمنيةً ربما لو لم تفعل ذلك معي ، وتوصلني إلى تلك النتيجة . ولم أتردد ذات يوم في أن أشكو إليها مشاركة الطفلة القريبة س الصغار في ضربي وإزعاجي في الباحة ، إذ مكَّنني صوتها من التعرف إليها ، فلم تقصِّر المعلمة سامية أيضاً في تأنيبها وتهديدها وكأنها مَسَّتْ ابنة لها .

على الرغم من الصعوبات الجمّة التي مررتُ بها خلال ذلك العام، أو بالأحرى من النار التي دأبَتْ على إحراقي منذ بدايته حتى نهايته دون فائدة أجنيها ، لم أتذكر أنني شكوت إلى أهلي أي أمر مهما كان ضئيلاً ، أو أنني طالبتهم مرة واحدة بالكف عن إرسالي إلى المدرسة ، أو بتعطيلي يوماً واحداً . لكن أمرين حدثا ، فكان لهما الفضل في إبعادي المؤقت عنها ، وإنقاذي من رؤية وجهها المقيت ، فلم أملك بذلك برغم سلبيتهما سوى الشعور تجاههما بعرفان طفولي كبير . لقد هبَّتْ خلال فترة من ذلك العام على مدينة اللاذقية، زوبعة من العواصف والأمطار والثلوج لم أشهد لها مثيلاً

خلال الأعوام السابقة أو التالية من حياتي ، من حيث عنفوانها وطول مدتها ، فبدت بذلك وكأنها أتت من أجلي ، لذا رحت أحاورها سراً ، وأطالبها كلما اشتدت بالمزيد والمزيد ، وهكذا إلى أن أوصلتني إلى غايتي المنشودة ، وسببَتْ في تعطيلي عشرين يوماً تقريباً ، لذلك فكم كنت أشعر خلال تلك المدة بالشماتة حيال الباص المخصص لنقلنا حين كان يأتينا كل صباح ، ويبدأ بإطلاق صفارته دون جدوى ، ثم كم كنت أستهزئ منه في داخلي حين يستأنف سيره خائباً لينتقل إلى تلميذ آخر .

وذات يوم من أيام العام النهائية ، وزعت الآنسة سامية على كل منا ورقة وقلماً ، وما كدنا نلمسهما ، حتى وجدناها تستعيدهما منا بانهماك وذعر ، ثم طالبتنا بالاتجاه على الفور إلى باص المدرسة لنقلنا إلى البيت . تساءلتُ فيما بيني وبين نفسي : أي مصيبة جميلة قد حلت ؟ أي فاجعة محبَّبة ؟ فإذا هي كما علمتُ لدى وصولي إلى أمي ، إعلان الحرب ، حرب الخامس من حزيران ، هذه التي إن عنت بالنسبة إلى الضمير العربي النكسة والهزيمة ، فربما يكون من البديهي أن تعني بالنسبة إلى تلك الطفلة بداية التحرر من عام ثقيل، أو انفتاح أبواب سجنها ، واستعادة أفراح طفولتها الأولى من خلال دخولها العطلة الصيفية .

لا شك في أن ذلك العام ، عام الدراسة التمهيدية ١٩٦٦-١٩٦٧، قد ترك في نفسي احتراقاً لا تزال آثاره قائمة إلى الآن ، تتمثل في بُغضي الشديد للمدرسة ، ولكل ما يمتُّ إليها بصلة ، وفي إشفاقي على كل طفل أراه يبدأ حياته الدراسية ، بل إنها تتمثل في

خشيتي من أن أمرّ بحياة ثانية فتعيدني طفلةً ، وتفتح لي من جديد ذلك الباب الأسود ، لكنني من جهة أخرى ، وبناء على إيماني بالوجه الآخر للألم ، أرى أن القَدَر مرَّرَني بتلك المرحلة متقصِّداً ، لينسج المقدمة الضرورية لقصة حياتي الحارَّة .

– ٥ –

انتهت العطلة الصيفية ، وبدأ عام دراسي آخر ، وبدأت عودتي إلى النار التي توقدت من جديد ، إذ إن العام الأول الابتدائي لم يكن بطابعه الشمولي أفضل من الذي سبقه ، وإن كان لا بد من أن تتخلله بعض التغيرات .

لقد عدتُ إلى وحدتي المحزنة ، لأن أقراني ظلوا يقْصرون علاقتهم معي على التجاور المكاني ، دون أن يخطر ببال أي أحد منهم أي توجه إليّ يشعرني بوجودي ، ولا يُفتَرَض أن يلاموا في ذلك، ما دامت طفولتهم لا تقودهم بالضرورة إلا إلى الحركة واللهو والنفور من الهدوء الذي كانوا يجدونه واضحاً لديّ . إلا أن ما كان يؤلمني بهذا الصدد هو الألم والحزن اللذان كانا ينتابان والدي حين يسألني ويلح في السؤال ، عمّا إذا كان لديَّ أصدقاء ؟ ثم عمّا إذا أصبح لديَّ أصدقاء ؟ إذ لم يلقَ مني حينئذ سوى الإجابة بالنفي . بل إن وحدتي في هذا العام بدت أكثر تفاقماً ، لأن الانتقال إلى الأول الابتدائي كان يعني الانتقال إلى بناء آخر داخل المدرسة منفصل عن السابق ببناء متوسط ، وما أدى إليه هذا من ابتعادي

تماماً عن أختي التي كانت تشغل في العام السابق في الباحة شيئاً من فراغي . وإذا ما كان في الباحة السابقة مكان أجلس فيه وأستريح، فقد بدا مثل هذا المكان في الثانية بعيداً بعض الشيء ، لذا فتجنباً للسير إليه ، ولاحتمال ارتطامي بالأطفال الذين يركضون دائماً ، كنت لا ألبث بعد هبوط الدرجات المؤدية إلى الباحة الجديدة، أن أحتمي بزاوية شَكَّلَها الدرابزين ، وأقف صامتةً منتظرةً إلى أن يقرع الجرس المُؤْذن بالعودة إلى الصف . ورَدَّاً على ما كنت أعاني من الضجر ، تظاهرتُ يوماً بأن أخي عُمَر الذي أسبقه بصفّين ، قد تشبث بي لمرافقتي إلى صفي وجلوسه بجانبي ، لكن ما لبثَتْ معلمتي التي رأته صاعداً معي ، أن اعترضَتْ على ذلك ، وردَّتْه إلى المكان الذي ينبغي أن يوجد فيه .

وعلى الرغم مما سبق توضيحه من موقف الأقران حيالي ، لا بد من الإشارة إلى أن جزءاً منه قد تغيَّرَ عن العام السابق ، ذلك من حيث الكفّ عن إيذائي ، إذ كأنهم في هذا العام أصبحوا في مرحلة أكثر وعياً ، أو أكثر ألفةً لوضعي . لذا لم أتذكر أنني خلال العام المذكور ، تعرضتُ لِما يزعجني من الأطفال ، سوى مرة واحدة فحسب ، إذ لجأت تلميذة لا أدري ما إذا كانت من صفي ذاته إلى رشّي بالماء لدى وجودي في الباحة ، وظلت تكرر فعلها وأكرر لحاقي المخفِق بها إلى أن ارتأيتُ الولوج إلى الصالة الداخلية ، والاختباء وراء أحد الأبواب منتظرةً حتى وقتِ قرعِ الجرس .

ومن ناحية المعلمات ، لم تكن لنا سوى واحدة فحسب ، وهي د مقابل العديدات اللائي كنَّ يتناوبن علينا خلال العام السابق . وعلى

الرغم من ذلك لم ألقَ منها سوى ما كنت ألقاه من السابقات ، ذلك من التعامل المقتصر على الكلام اللطيف البعيد كل البعد عن الشعور بالمسؤولية . وخارج إطار التدريس أنبأَتْنا في صباح يوم بأنها ستصحبنا في الدوام المسائي إلى الحديقة العامة المجاورة لمدرستنا . ابتهجتُ كثيراً بالخبر عن النزهة كما ابتهج التلاميذ ، وعشتُ الساعات التالية في أمل طفولي . وفي لحظة الانطلاق طلبَتْ منا كالعادة أن نصطف بصورة ثنائية ، وحين لم تكن لي صديقة ولا صديق ، لم أجد من أجاور سوى ظلي . شعرتُ في بداية سَيري خارج المدرسة بشيء من الهلع ، فقد كنت في نهاية الرتل ، وكانت المعلمة في بدايته ، لتدلَّ على مشاركتها التلاميذ في إهمالي وعدم الالتفات إليّ . وعلى الرغم من ذلك ، ونتيجة سيرهم المتأني في البداية ، نجحتُ في اللحاق بهم إلى حيث يتوجهون ، لكن في وسط الطريق ، وحين شعروا ببداية اقترابهم من الحديقة لم أجد إلا قد انفلتوا من أمامي جميعاً ، وراحوا يبتعدون عني بسرعة إلى أن اختفوا تماماً وغابت أصواتهم ، فوجدتُ نفسي وحيدةً في وسط الشارع، وبين السيارات الذاهبة والآيبة ، لا أدري كيف أتقدّم ولا كيف أتأخّر ، فلم أملك وقتذاك سوى الاستسلام لنحيب شديد ، قد نَمَّ على مدى شعوري بالرعب . وهكذا إلى أن ركضَتْ نحوي طالبة من المرحلة الإعدادية تسألني عن أمري ؟ فسمّيتُ لها معلمتي مطالبةً بأن تصحبني إليها ، إلا أنني لا أدري بعد قليل من جلوسي بجانب المعلمة لماذا طلبتُ منها أن تغني لي ، هل كان الأمر يتعلق بتثبيت شعوري بالاطمئنان الذي عاد إليّ ؟ أم أنني رغبتُ في أن

ترضيَني بعد إحساسي بإساءتها ؟ وسواء أكان هذا الأمر أم ذاك ، فإنها استجابت لي على الفور ، وغنَّت لي بصوت مغلف بشيء من الحرج .

وهكذا مرت الحادثة بسلام ، لكن نفسي التي جُرحت بذلك العمق، لم تسمح لأصدائها بأن تتبعثر ، لذا فمنذ ذلك اليوم قررتُ ألا أشارك الصف في أي خروج إلى أي مكان . لقد أحجمتُ عن الذهاب في رحلة إلى ضاحية فديو على الرغم من أنني دفعتُ – فيما سبق – الاشتراك المالي المحدد . وحين أنبأَتْنا المعلمة في دوام صباحي أنها ستصحبنا في الدوام المسائي إلى المركز الثقافي ، كففتُ نهائياً عن العودة إلى المدرسة في ذلك اليوم ، وظللتُ في البيت محتميةً به ، بعدما طلبتُ من أختي أن تعتذر إلى معلمتي ، لكن حين عادت أنبأتني أن المعلمة قد تذمَّرتْ ، ولم تقبل اعتذاري ، فرُحتُ أبكي متذكرةً الدافع الذي أدى بي إلى هذا التصرف ، وراحت أمي تهدئني، وتوحي إليَّ ببساطة الأمر ، وعدم استحقاقه مثل ذلك ، فكان أن أخذتُ أتخيل موقفها المناقض فيما لو علمَتْ بتلك الحادثة ، موقفها الذي كان من الممكن أن يتحدد في إقامة المدرسة وإقعادها على رأس المعلمة ، وقد تأكد لي ذلك الاحتمال حين أنبأتُها بالواقعة في هذا اليوم الذي أكتبها فيه .

وكما فرضت الطفلة على نفسها المزيد من العزلة بعدما حدث الذي حدث ، كان ينبغي أيضاً أن تعاقِب المعلمة وفق طريقتها الخاصة . فقد خلا لي الصف في ساعة أخيرة من ذات يوم بعدما نزل الجميع إلى الباحة من أجل القيام بتمارين رياضية ، فقمت إلى

فتحة جدارية اعتادت المعلمة أن تُودِع فيها مطمئنةً بعض الأغراض، فحظيتُ بأربع بطات غاية في الجمال صُنعت من الأعواد والكرتون والريش في غاية الإتقان . لا أدري كيف اتسعَتْ لها جميعاً حقيبتي الممتلئة هي الأخرى بأغراضي ؟ أو كيف وصلَتْ بعد حشري لها بسلام إلى بيت جدّي ؟ لكن يبدو أن ذلك كان ضروريَّ الحدوث من أجل مشاركة من حولي لي في الاحتفال بها، بعدما تذرعتُ لهم بأن المعلمة قدمتها لي ، وهكذا قضيت ساعات جميلة ألهو بها وأحلق معها برفقة خالي خالد الأقرب إليَّ سنّاً . وفي اليوم التالي اكتملت غايتي التي ابتغيتُ الوصول إليها ، حين انتاب المعلمة لدى افتقادها البطات حالة شبه هستيرية ، ساوت في شدتها ابتهاجي في الأمس ، فهي بناءً على ما راحت تذكر في أثناء عاصفتها ، كانت قد أعدَّتْ تلك البطات وجهدَتْ فيها لكي تساعد معلمة الصف التمهيدي ، أو معلمة أختي التي رغبَتْ في أن توزع منها على تلاميذها . بل إنني لم أكتفِ بتلك العقوبة لمعلمتي ، لأن نفسي الجريحة التي لم تكن قد اندملت بعد ، كانت بحاجة إلى المزيد من الانتقام . لذا فحين كنت بعد أيام في الباحة ألهو بسُكَّرة في فمي ، وبعدما امتصصتُ منها ما كان كافياً لثقبها ، خطر ببالي أن أزفها لمعلمتي التي تروح وتجيء أمامي ، فأخرجتُها وأعدتُ لفّها، فقبلتْها مني شاكرةً كل الشكر ، ثم وضعتها في فمها ، وتابعَتْ تنزهها .

وإلى جانب تماثل هذه المعلمة مع سابقاتها في ذلك المجال ، فإنها تماثلت معهن أيضاً من حيث عدم بذلها أي جهد في مجال

تعليمي ، أو من حيث عدم توضيحها لي أي حرف مستفيدةً من بقايا بصري ، بل إنها اكتفت كسواها بهذا الصدد بصرف كل عنايتها إلى التلاميذ الآخرين ، الذين ربما كانت ترتاح معهم أكثر ، إذ تكتب لهم على السبورة التي لا أستطيع رؤية سطورها ، لعدم التصاقي بها ، فينقلون على دفاترهم ما يماثلها بيسر ، ثم يطلعونها عليها ، لتخطَّ لهم الثناءات الكثيرة .

هكذا كانت الأمور في هذا العام تدور ، لكن ما كان ينبغي أن تتكرر عليّ ساعات الفراغ والصمت ، لذا ارتأيتُ أن أحمل في حقيبتي كل يوم ما يكفي من أدوات التسلية ، كالأوراق الملوَّنة والمقصّات الصغيرة والكرتون والصمغ وأقلام التلوين ، فأملأ بها وقتي كله من خلال ما كانت توحي إليَّ من أشغال .

أما والدتي ، فقد قررت في هذا العام الذي أصبحت فيه الدراسة رسمية ، أن تستغني نهائياً عن جهود المعلمات ، وأن تكفَّ بصورة مطلقة عن الاهتمام بكلامهن وآرائهن غير المتفائلة ، فأخذَتْ بكتابيَّ المقرَّرين ، وأمسكَتْ بيدي الصغيرة مصممةً بحزم على أن نقتحم معاً الدرب الوعر الطويل . لقد بدأت معي بمفردها دون أي أحد ، وغالباً دون والدي الذي كان لا يعود من عمله حتى الثامنة مساءً . وقد استعانت لهذا الغرض بلوحٍ صغير ، لأن الخط المكتوب بالطباشير سيكون ببياضه وثخنه أكثر وضوحاً أمامي مما هو عليه في الدفتر ، يضاف إلى ذلك أنني قد أستطيع تركيز خطي على الأول أكثر من الثاني الذي لا أتمكن دائماً من تبيّن سطوره ، ولا سيما في المساء .

بدأت أمي معي بحرف الألف ، فكان سهلاً بسيطاً ، لا يحتاج إلا إلى تمرير قطعة الطباشير من الأعلى إلى الأسفل . ثم انتقلَتْ إلى حرف الباء ، فكان أكثر صعوبة ، واحتاجَ إلى جهد من أمي لا أزال أتذكره ، أتذكره من خلال ما يتطلبه رسم الحرف من هبوط فامتداد فعلو فنقطة ، ثم من خلال ما أثمر عنه لدى تعلمي الرسم المذكور من فرح أمي الكبير الذي انتقل إلى والدي وإلي ، إذ صرتُ كلما طلبَتْ مني أن أكرر كتابة الحرف ، وكلما وصلتُ إلى النقطة أرفع يدي عالياً ، ثم أُسقِطها عشوائياً دون اهتمام بالمكان الذي سترسو فيه .

وهكذا استمرت أمي في تدريبي على كتابة حرف بعد حرف ، ثم كلمة بعد كلمة ، ثم عبارة بعد عبارة . وعلى الرغم من الصعوبات الكبيرة التي واجهَتْها بفعل جدة التجربة ، واضطرارها إلى بذل الجهود المضاعفة التي تفوق أحياناً طاقات الإنسان ، فقد كانت تتعامل معي بهدوء وعطف لا أدري كيف أعبّر عنهما ، أو كيف أردُّ جميلهما . إنني لا أتذكر أنها أظهرت لي شيئاً من الغضب أو التوتر في يوم من أيام تعليمها لي أو في ساعة أو في لحظة ، أو أن صوتها ارتفع درجة واحدة عن حدوده الطبيعية ، الأمر الذي جعلها تظهر وكأن الله قد انتقاها من بين ملائكته ، ثم أرسلها إليّ ليعوضني عما أخذه مني ، ويعينني بوساطتها على تجاوز المشكلة.

لكن تلك الصعوبات عَنَتْ من جانب آخر الاضطرار إلى بطئنا في السير ، وعدم التمكن من مواكبة زملائي في الدراسة ، الأمر الذي جعلني مستمرة في الانفصال عنهم ضمن هذا المجال إلى

جانب مجال الصداقة . وهكذا حضرت مديرة المدرسة إلى صفنا في منتصف العام ، لتوزع علينا الصحف المدرسية التي كُتِبَتْ عليها نتائج الفصل الأول . ذكرَتْ الاسم تلو الاسم ، ووزعَتْ الصحف على التلميذ تلو التلميذ ، وصُفِّق للواحد تلو الآخر ، ثم خرجَتْ من الصف ليتبين لي على الفور أنني أنا الوحيدة التي كنت خارج هذه العملية ، وأنني كنت المستثناة في عدم حصولي على ما أبهجَ أقراني . نبَّأتُ أمي بالأمر فورَ عودتي إلى البيت ، متأثرةً بخيبتي ، ملقيةً إليها في هذه المرة بعبء الاقتصاص ممن يؤذيني ، فتخلّتْ عن هدوئها ، وذهبَتْ في اليوم التالي إلى المدرسة ، لتصبَّ سيول غضبها على المديرة والمعلمة معاً قائلةً لهما : أُدرِكُ أن الطفلة قد لا تستحق الحصول على ما حصل عليه الآخرون ، لتقصيرها عنهم ، لكن ماذا كان قد حدث لو شجعتُماها بدلاً من أن تدفعا إلى الخلف بخطواتها القليلة التي تفرح باجتيازها ؟ ماذا كان قد حدث لو أشعرتُماها ولو بصورة وهمية بأنها مساوية لأقرانها ؟ فتُعوِّضا عما يُشعِرونها هم به من نقصها بالنسبة إليهم ؟ فكان ردُّهما عليها بالإفراط في الاعتذار ، والتذرع بالنسيان ، ثم بالتبرع لي بصحيفة .

مر الفصل الثاني عليَّ كما الفصل الأول ، ولم يتجدد فيه سوى أمر واحد فحسب ، وهو مساواتي بأقراني من حيث التقديم المباشر لصحيفتي المدرسية دون حاجة إلى وساطة أمي . ثم بدأت العطلة الصيفية ، لكنها لم تبهجني كما أبهجتني العطلة التي تلت العام الدراسي السابق ، لشعوري بعدم التخلص من ظلال المدرسة الثقيلة، أو بالأحرى لعدم تمكني بعدُ من إنجاز البرنامج الدراسي المقرر .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن أمي أضافت إلى جهودها في تدريبي على الكتابة جهوداً في تدريبي على القراءة ، ذلك من الكتابين ذاتيهما مستفيدة من خطهما الواضح الكبير ، وإن كان هذا يجعلني أحتاج في أثناء هذه العملية أو في أثناء عملية الكتابة إلى تقريب الكتاب أو اللوح من عينيَّ إلى حد الالتصاق بهما .

وهكذا ، دأبَتْ أمي خلال العطلة الصيفية على الاهتمام بي ، وبُعدِها عن أي ملل أو يأس ، إلى أن تمكنَتْ في النهاية من الوصول إلى ما خططَتْ له منذ بدايات العام ، وأخذَتْ بغبطةٍ لا حدود لها ، تكرر إعلانها أمام كل فرد من المحيطين بنا أنني ختمت البرنامج الدراسي للأول الابتدائي . علماً أن هذا لم يسعدني كثيراً ، لشعوري من خلاله بتخلفي عن أقراني ، ثم لإحساسي باستمرار الفارق بيني وبينهم ، هم الذين يستطيعون الكتابة على الدفتر كما يكتبون على اللوح بخط مستقيم منظم .

- ٦ -

انتهت العطلة الصيفية مرة ثانية ، وبدأ عام دراسي ثالث ، عام الثاني الابتدائي الذي سأترك تحديد طبيعته للسطور التالية :

عادت إليّ وحدتي المعهودة ، فعاد معها الألم والقهر اللذان لم يتقلصا مع الزمن وألفة المشكلة ، كما عادت تساؤلات أبي الحزينة المندهشة حول صداقاتي ، وإجاباتي الدائمة عنها بالنفي . علماً أن هذه الوحدة تغيرت عليَّ من ناحية واحدة ، إذ تمكنتُ من أن أجد

وسيلة لتسلية نفسي في الباحة تناسبني ولا تؤذيني ، وأستطيع القيام بها بمفردي دون حاجة إلى مشاركة أحد ، وهي الإمساك بأحد الأعمدة الحديدية المصطفة على امتداد الزاوية التي كنت أمكث فيها، والدوران حوله إلى أن يقرع جرس الدخول .

وفيما يتعلق بدراستي ، عادت المشكلة المتحددة في عدم تمكني من الكتابة على الدفتر بخط مستقيم ، وما عنى هذا من تعذر قيامي بالوظائف اليومية ، إذ إن اللوح الصغير لا يتسع لسوى كلمة واحدة من كلماتي . كما ظهرت لي ضمن هذا المجال الدراسي مشكلة جديدة ، إذ إنه حين وُزع علينا الكتاب المقرر لهذا العام ، تبينت لي صعوبة قراءته ، نظراً لتقلص خطه ، واختلافه عن خط الكتابين السابقين الكبير الواضح .

لم تتأخر أمي في هذا العام عن زيارة المدرسة ، كما لم تتأخر في العامين السابقين ، لكن زيارتها الأخيرة هذه كان ينبغي أن تحدث من أجل التقائها معلمتي الجديدة الآنسة سامية حدّاد ، تلك التي اختلفت عن سابقاتها كل الاختلاف ، وانفصلَتْ عن عالمهن تماماً . فقد تفوقت عليهن في اللطف والرقة والدماثة ، وفي جمع ذلك مع الروح الإنسانية الشفافة والمثُل الرفيعة السامية . كما استطاعت أن تجمع بين الهيبة الواضحة والتواضع الملائكي ، وربما ظهر ذلك من خلال علاقتها مع التلاميذ ، فعلى الرغم من صغر سنّهم ، وميلهم الطبيعي إلى الشغب والضوضاء ، كانت حين تدخل عليهم ينتابهم الهدوء الكلي ، وربما الخَدَر ، لفرط ما كانت تفرض خصالها المتميزة من احترام وتوقير لها ، وهي بالمقابل لم يحدث أن ضربت

واحداً منهم أو أنّبته أو رفعت صوتها فيما إذا انحرف عن سلوك زملائه الجديد . بل إنها تفوقت على سابقاتها في جمالها أيضاً ، إذ شكلت في جوانبه المتعددة نموذجاً فرنسياً ، تم اكتماله من خلال انتقائها اللغةَ الفرنسية وآدابها في دراستها الجامعية . ولا بد من استكمال نواحيها السابقة من خلال الإشارة إلى ردائها الأبيض الذي كانت تضعه عليها بعد دخولها حجرة الصف ، لتزداد نصاعةً وطهراً، وتبرز جانب نظافتها وترتيبها . إنني قد لا أستطيع تصوير هذه الشخصية المتميزة التي لم يحدث أن التقيت من يماثلها إلا من خلال القول : إنني كنت أشعر في ظلها بوجودي ضمن عالم حالم غريب ، كم أتمنى لو يتكرر عليّ في هذه الأيام من خلال التقائها ، وكم أخشى من رحيل إحدانا قبل أن يتحقق ذلك .

وحين تميزت المعلمة بهذا الوضوح ، كان لا بد من أن يتميز التقاؤها أمي أيضاً . فقد هرعَتْ إليها لدى قدومها الأول بلهفة نمّت على مدى انشغالها الداخلي بموضوعي ، وتشوقها إلى التحاور بشأنه ، ثم خرجَتْ بأمي من حجرة الصف ، معبِّرةً عن مدى اهتمامها بمشاعري ، وخشيتها من أن تصل إليّ كلمة من حديثهما قد تجرحني . لقد وقفتا معاً طويلاً ، تجاوز اللقاء في امتداده حدوده الطبيعية التي عهدتُها في العامين السابقين ، انتظرتُ كثيراً التفاتهما إليّ ، لأنني كما ذكرت سابقاً أشعر في المدرسة بشوق إلى أمي كما لو كنتُ في بلد بعيد ، ذلك إلى جانب شوقي إلى والدي .

طالَ انتظاري لأمي والآنسة سامية ، فبدأتُ أشعر بالضيق والملل، وأخذتُ أسائل نفسي بحذر عما تدبران لي ؟ وهكذا إلى أن

نادتني الآنسة سامية ، وعانقتني أمي التي لاحظتُ في صوتها هذه المرة أمارات التفاؤل . ومع الزمن تبيّنَ لي أن المعلمة أرادت الإنصات إلى قصتي من أولها إلى تلك اللحظة بغية التبصر بها من جميع نواحيها ، والإمساك بيد أمي الوحيدة وضم مساعداتها إليها . أما بعد عودتي إلى البيت مباشرة ، فقد بينت لي أمي أن الآنسة قدمت اقتراحاً بشأن المشكلة الدراسية التي تشغلنا وتقلقنا ، مشكلة الكتابة على الدفتر . لقد ارتأت أن يعاد تسطير الصفحة بخط غامق إلى أن تصبح واضحة أمامي ، وأن يضاف إلى السطور الأفقية سطور عمودية لتتشكل في النهاية مجموعة من المربعات ، ويخصَّص لكل كلمة مربع واحد بدلاً من تخصيص اللوح .

نجحَتْ التجربة على الفور ، نجحَتْ بيسر زائد ودون أي تعذر ، فعمَّ الفرح الكبير بيتنا عادّين المعلمة قد قدَّمت فتحاً ثانياً يضاف إلى الذي قدَّمتْه أمي لدى بدئها بتعليمي على اللوح الصغير . ومما زاد في ابتهاج والدي ، أن أمي راحت تصف له جمال المعلمة ، وتنقل له بأمانةٍ الشعر الأشقر اللامع والبشرة النضرة النقية والعينين الزرقاوين الرائعتين والصوت العذب الرقيق الذي يحاكي أنغام العصافير .

وبناءً على الجديد الذي طرأ ، أصبح بإمكاني أن أشغل وقتي في الصف بما يقوم به التلاميذ ، فأتساوى معهم في آفاقهم وهدفهم من القدوم إلى المدرسة . كما أصبح بإمكاني أن أقوم بوظائفي اليومية بصورة نظامية ودون أي تقصير ، إذ عادت أمي لتتفرغ لي ساعات طويلة كل يوم ، لكن مع كثير من التفاؤل والأمل بمستقبلي . علماً

أن واجبها ثقل في هذا العام ، حين أصبح عليها أن تُدرِّس إلى جانبي أخويَّ الأصغر مني . وعلى الرغم من وضوح الصفحة أمامي بفعل الفكرة الجديدة ، فإن تدنيها في ذلك قليلاً عن اللوح جعلني بحاجة إلى ضوء بجانبي ، لذا صارت أمي توقِد على منضدتي منذ بدئي في الدرس حتى الانتهاء منه مصباحاً كهربائياً لا أزال أحتفظ به إلى اليوم ، ذكرى عزيزة وجميلة لا أريد لها أن تُخدَش .

ازدادَ حبي للمعلمة وتعلقي بها ، وصار اسمها عيداً يشرق على بيتنا كل يوم ، ليس من أجل فكرة التسطير فحسب ، إنما لِما دلت عليه نفسها من لهفة صادقة تجاهي وتجاه أسرتي . وازدادت هي بالمقابل اهتماماً وحرصاً إلى درجة امتدادها بهما إلى ما هو خارج مجال التعليم ، أو إلى درجة ظهورها من خلالهما وكأنها ولجت باب الأمومة . فهي كانت كلما فرغت من واجباتها في الصف تجاهي وتجاه التلاميذ ، سارعَتْ إليّ لتقف إلى جانب مقعدي ، وتحدثني وتمازحني كما لو كانت صديقتي ، ولتملأ بعض ما تبقّى في هذا العام من فراغي ، لذلك فإنها حين كانت تغيب أحياناً عن المدرسة لأسباب ما ، وتخلو لي حجرة الصف ، كنتُ سرعان ما أتجه إلى ردائها الأبيض المعلق قرب الفتحة الجدارية ، لا لأحشره في حقيبتي كما حشرتُ البطات ، إنما لألامسه بحنان وأتعطر بنقائه .

وبشأن المشكلة الدراسية الثانية التي استجدت عليّ ، مشكلة القراءة من الكتاب ذي الخط الأصغر ، اقترحتُ على أمي أن تكتب لي الدرس المقرر كلمة كلمة على اللوح الصغير ، فتُسهّل عليَّ تهجئته ، لكن حين عرضَتْ ذلك على والدي ، طلب ألا أستسلم

للأمر بهذه الصورة ، وأن أدرِّب نفسي وعينيَّ ولو جهدتُ قليلاً ، على القراءة من الكتاب ذاته . وما لبثتُ في ذلك أياماً معدودة ، حتى نجحَتْ فكرة والدي ، وتيسرت عليّ الدراسة من مختلف النواحي.

ويحضرني بشأن أحد غيابات الآنسة سامية ، أن أُرسِلَتْ إلينا طالبة من المرحلة الثانوية لكي تملأ ساعة من فراغنا . كتبَتْ على السبورة كلمات لم أدرِ ما هي ؟ وطلبَتْ نقلها على دفاترنا . ظللتُ ساكنة بلا حراك ، قلقةً من الأسلوب القديم الذي تَكَرَّر عليّ ، ومن الموقف الذي ربما ستتخذه مني الطالبة . جاءت إليّ وعاتبتني لعدم كتابتي ، وقارنت لي بيني وبين زميلة بجواري تكاد تنتهي من عملها، فلم أجبها إلا بالصمت واللوم الداخلي لعماها . ظلت تكرر معاتبتها وأكرر إجابتي الخاصة ، إلى أن نبّأها التلاميذ بعدم تمكّني من الرؤية عن السبورة ، فما لبثَتْ حينئذ أن نقلتني إلى مكان آخر ربما كان أقرب إلى تلك السبورة ، لكن الطالبة لم تعلم أنني لا أستطيع إبصار السطور إلا إذا قرَّبتُها تماماً من عينيّ .

وفي اليوم التالي ، وإذ أصبحتُ بعد ذلك الانتقال بجانب تلميذة تحاكي الصِّبْيَة في طباعها ، بل تفوقهم عنفاً وصلابة ، أمرَتْني وهي تكتب بألا ألامسها مطلقاً ، وكان هذا ما هو متحققاً في الأصل ، لكن لم أدرِ حقيقة دافعها إلى هذا التوجه ، ثم ما لبثَ أن تحوَّلَ أمرها إلى إنذار وتهديد ، على الرغم من أنني احتطتُ بالابتعاد عنها قدر الإمكان ، وحاولتُ وفقاً لما أستطيع ، التكوّم على ذاتي ، لكنني على الرغم من ذلك ما لبثتُ أن فوجئتُ بصفعات من يدين لم

أستطع الاقتناع بأنهما لطفلة لم تتجاوز السابعة ، لكن بعض استغرابي زال بعد أيام ، حين لاحظتُ أنها لا تشارك في لعبها سوى الصِّبْيَة دون البنات ، ولا تنسجم مطلقاً إلا معهم ، ولا تجد راحتها إلا في كنفهم ، فقد كانت تصفق لهم بيديها الغليظتين القويتين ، وتشجعهم بصوتها الجهوري مرددة عبارات مثل : طيبة نجيب طيبة وليد . بل إن استغرابي كله زال بعد عامين حين علمتُ من أبيها بصورة غير مباشرة أنها تلاكم إخوتها الشباب ، وتنتصر عليهم مستفيدة من ضخامة جسدها إلى جانب قوة عضلاتها .

علمَتْ معلمتي سامية بالحادثة ، إذ كانت خارج الصف لأمر عارض ، فظهر عليها التأثر العميق ، ولا سيما حين رأت ما أسفر عنه ذلك من بكائي المتألم الطويل ، إلا أنها لم تواجهها ، إما لهدوئها، وإما اتقاءً لشرها الذي ربما أدركَتْه ، إذ إن المعلمات لم يسلمن كذلك من فظاظتها وتحدّيها ، بل لم تسلم منها الإداريات . فقد قدِمَتْ في يوم إلينا إحداهن ، وطلبَتْ منا أن نخلي حجرة الصف لنقلنا إلى سواها ، وحين كانت حقيبة الملاكِمَة لا تزال ثابتة في مكانها ، مخلصة له ، وتساءلت الإدارية بقليل من اللوم عن صاحبة هذه الحقيبة ؟ توجهت تلك إلى مقعدها بعنف ونرفزة ، وأوعزت إلى الإدارية بأن توحِّد ربها ، فلم تجد الأخيرة من سبيل لوقاية نفسها ، وصيانتها مما قد يحرجها أمام التلاميذ إلا الصمت . وهكذا أمسكت الآنسة سامية بيدي ، وظلت مرافقة لي خلال مدة الفرصة ، وبعد صمتها الحزين سألتني ما إذا كنت أريد أن أغيِّر مكاني ؟ ولما كان

من غير المعقول أن أرغب في مجاورة سوبرمان ، أومأتُ على الفور بالموافقة ، ثم تابعتُ بكائي .

لم يمضِ شهر واحد من العام ، حتى فوجئتُ بانطفاء راحتي التي بدت كما لو أطلت مع القمر ، وانهدام العالم النقي الذي هدّأ من بُغضي الداخلي للمدرسة . فقد صُدِمتُ ذات يوم كنا ننتظر فيه قدوم الآنسة سامية كالعادة ، بمعلمة جديدة سرعان ما امتلكت الصف ، وشغلت أنظارنا بهيئة أخرى ، وأسماعنا بصوت آخر . بدأ تساؤلي الكبير حول سر ما حدث ؟ وبدأ قلقي وخوفي من مصير قد يعود إليّ نتيجة هذا التحول ، فالآنسة سامية لم تعد كما سبق أن أشرتُ بالنسبة إليّ فحسب المعلمة التي أزاحت ما تبقّى من صعوبات سيري، إنما عوضت بلهفتها ومحبتها الصادقتين اللامحدودتين عن أمي ، التي كنت أفتقدها في المدرسة ، وعن الصداقات التي حُرِمتُ منها بصورة نهائية .

لم أتذكر مطلقاً ما حدث في ذلك اليوم الانتقالي ، لكن ما أتذكر هو أنني فوجئتُ في اليوم التالي بقدوم الآنسة سامية التي أوهمتني في الأمس بأنني لن ألقاها ثانيةً . لقد دخلت لتتجه إليّ مباشرة وتعانقني بحرارة ، ثم لتتجه إلى المعلمة الجديدة وتسرّ إليها بحديث بدا أنه يخصني ، وما إن انتهت من ذلك حتى اتجهت إليَّ المعلمة الجديدة مسرعة ، وبدأت بالتسطير على دفتري ، ومحاوَلَةً مني التقرّب إليها ، نبهتُها إلى أنها وضعت المسطرة بصورة منحرفة قبل أن تبدأ برسم السطر ، فردَّتْ عليَّ ملاطِفةً ، بأنها تبتغي من ذلك تركيز المسطرة ، ثم عقّبَتْ على ملاحظتي بعبارات إطراء وثناء ،

سرعان ما تبين لي انطواؤها على كثير من دهشتها ، فعادت إليّ طمأنينتي ، وشعرتُ وكأن المعلمة السابقة أتت لتمنح الجديدة ظلاً من روحها .

وبمرور فترة وجيزة ، تبيَّن لي أن المعلمة الجديدة هذه ، لم تصدُر في تعاملها الطيب الرائع الذي لم يقلّ عن تعامل الآنسة سامية ، من خلال التنبيه الخارجي ، بقدر ما صدر عما فرضَتْ مُثُلها التي ارتفعت في نفسها هي الأخرى . وبذلك يكون قد تناوبَ على عامي ذاك اسمان مضيئان : سامية حدّاد و نهى إلياس . وبذلك اقترح والدي أن أكتب على الغلاف الخارجي لزجاجة العطر التي أهديتُها للآنسة سامية في عيد المعلم عبارة : كنتِ نوراً في طريقي . وعلى الرغم مما شكّلت لي المعلمة الجديدة من راحة نفسية وجوٍّ حميميٍّ لم يختلفا عن اللذين تشكّلا قبل قدومها ، فإنني لم أستطع الاستغناء عن وجود معلمتي سامية التي تكاملت صورتها من جوانبها المختلفة، إذ لم أعُدْ ألمح الرداء الأبيض النقي ، أو نواحي الجمال الفرنسي ، ولم أعُدْ أسمع الصوت العذب الرقيق ، إنما أصبحتُ ألحظ فقط التواضع الملائكي دون الهيبة وقوة الحضور . لذا لم أقصِّر يوماً في أن أسأل معلمتي نهى عن اليوم الذي ستعود فيه الآنسة سامية ؟ ونظراً لطيبةِ من كنت أسألها وسماحة خلقها اللتين أظهرتاها وكأنها واحدة من تلاميذ المسيح ، كانت تجيبني دون أي انزعاج وبكل رحابة صدر وابتسام نقي ، بأنها ستعود في الغد ، ويأتي الغد لأرى الآنسة نهى أمامي ، فأعود لأسألها من جديد ، وحين أجابتني ذات يوم بالعبارة ذاتها قلت لها : لكن في الغد عطلة،

فعقَّبَتْ ضاحكة : إذاً بعد غد . وهكذا ظللتُ أسألها ، وظلت تجيبني، إلى أن نبهتني أمي بلطف إلى ضرورة الكف عما أفعل ، لما يدل عليه من تقليل من شأن الآنسة نهى .

في يوم من تلك المرحلة حدث لي ما يزال يبعث على دهشتي إلى الآن ، إذ بينما كنت أدور حول أحد الأعمدة كعادتي ، شعرت بأنني فقدتُ جزءاً من وعيي ، أو دخلتُ في نصف إغفاءة ، ولا أظن ارتباط ذلك بالدوار ، إذ ما كانت حالتي تتم عليه ، كما أنني لم أُصَب به خلال مرة من قيامي اليومي بهذا السلوك الذي تعودتُه ، وحين صحوتُ فوجئتُ بما لم أصدق وقوعه ، إذ تنبهتُ إلى وجود تلميذة تشاركني لعبتي على العمود ذاته ، وأنني وإياها كنا غارقتين ودون أن أشعر في تحاوُر جِدّ وديّ . وقفتُ مع نفسي ، رحتُ أتساءل بفرح جنوني صامت وأنا أتابع الدوران والتحاور مع التلميذة : يا الله ، أحقاً إن برفقتي زميلة تحدثني وتحاول التقرّب إليّ ؟ بعد عامين وشهرين من لقاء الأذى والإهمال الكلي ؟ أحقاً إنني متساوية مع زملائي لكي تتجه إليّ دونهم ؟ متى أتت ؟ وكيف ؟ متى بدأنا نتحدث ؟ وكيف ؟ ثم توجهتُ إليها :

- ما اسمكِ ؟
- زينة عبدو .
- في أي صف ؟
- في صفك .
- كم لديك من إخوة ؟
- أنا وحيدة لوالديّ ، إذ سلمتُ لهما بعد أربعة أطفال .

وما كادت تحدثني عن معاناتها من الوحدة والضجر في البيت ، وعن آلام أمها على من فقدَتْ ، حتى فوجئتُ ثانيةً بانضمام تلميذتين أخريين إلينا ، وهما ليليان التي يؤسفني ألا أتذكر اسم عائلتها ، إذ ما لبثَتْ أن انتقلَتْ مع أسرتها إلى دمشق ، وسَحَر عرنوق التي سرعان ما أنبأتني عن وجود شلل في يدها اليسرى ، والتي كان يلفتني قبلاً صوتها النامّ على الكثير من الدماثة واللطف حين تقرأ للمعلمة . استؤنِف بيننا التحاور الودي الهادئ ، ثم ارتأين القيام ببعض الألعاب البسيطة المناسبة بغية إشراكي فيها . فما كنت أشعر حينذاك بأنني بين طفلات صغيرات ، إنما بين فتيات شابات، اكتمل لديهن الوعي والحس الإنساني والقدرة على الاستيعاب . تابعتُ تساؤلاتي بفرحٍ أكثر هدوءاً ، غير خالٍ من الدهشة الكبيرة : من أين أتين إليّ ؟ هل كان ذلك نتيجة رغباتهن الشخصية ؟ أم نتيجة تنبيه من الآنسة نهى ؟ أم من أهل إحداهن ؟ أم هبطنَ عليّ من السماء ؟ ولا سيما أنني لم أمرّ بأسمائهن في العامين الماضيين. لم تهتدِ نفسي إلى إجابة محددة ، لكنها لم تدرِ كيف تيقنَتْ من أنهن سيبقين لي على الدوام . وهكذا لم يبقَ لي في ذلك الحين سوى التشوق العارم للعودة إلى البيت ، لا من أجل التحرر من سجني ، إنما من أجل أن أزف لوالدي البشرى الكبيرة التي ما أصبحنا نفتقر إلا إليها . وصلتُ البيت ، اتجهتُ على الفور إلى غرفته : بابا ... لقد أصبح لديَّ صديقات . فتنهَّدَ كما لو ظفر بشيء ثمين قد افتقده، وقال براحة لم أعهدها لديه : الحمد لله رب العالمين .

لم تمضِ أيام قليلة ، حتى ثبتَتْ صحة يقيني من إخلاص صديقاتي وصدقهن ، إذ لم أجد نفسي إلا قد أصبحتُ بين زينة وسَحَر على مقعد واحد دون ليليان التي جاورتنا في مقعدها أياماً ، ثم آلمتنا بسفرها . كنا في ساعات الدراسة نجتهد سوية ، وكانتا تقدّمان لي بكل رحابة صدر ما كنت أحتاج إليه ، ولا سيما من إملاء عن السبورة ، فشكّلتا في ذلك وسيلتين لإعانة معلمتي ، التي كانت تبذل كل نفسها في سبيلي . وفي أوقات الفراغ ، كانت الحواجز تتهدم بيننا تماماً ، لنمرح ونبتهج بنقاء وعفوية . وفي الباحة، فإما السير مع الثرثرة ، وإما القيام ببعض الألعاب التي أتقنتُها كلعبة الحبل ولعبة الحلجة ، وإما إطلاق أصواتنا في إنشاد بعض الأغنيات الفرنسية التي كانت تلقنها مَدْرسة الكرمل للتلاميذ . وكم غرقنا ذات يوم في الضحك بعدما تم تلقيحنا ضد السلّ ، إذ ما إن دخلت الممرضتان حجرة الصف ، حتى أصبحنا نحن الثلاث تحت مقعدنا ننبه إلى وجودنا بالصراخ ، ولم تنتهِ عمليتنا الجراحية إلا بمنتهى الصعوبة والتعذر ، على الرغم من أن اللائي تعاونَّ عليها كنَّ ثلاثاً مثلنا ، الممرضتان والآنسة نهى ، بل كنَّ يفُقْنَنا حجماً وقوة ، وحين كان دوري في النهاية ، نظراً لظهوري الأكثر عسراً ، راحت زينة وسحر اللتان فرحتا بخلاصهما تكافئان نفسيهما بالضحك عليّ .

هكذا تحولت مَدْرستي ، أو ذلك العالم الذي كان بالأمس قبيحاً أسود ، إلى بيت دافئ أراحني من النواحي المختلفة ، قد تألَّفَ من الآنسة نهى ، الأم التي فقهتْ تماماً ماذا تعني كلمتا المحبة

والعطاء، ومن زينة وسحر، الأختين الودودتين اللتين لم تسوِّل لهما طفولتهما الانفصال عني لحظة واحدة ، هذا مع نداء زينة الدائم لي: ستّي ريمو . كما أضيف إلى زينة وسحر الأخ الصديق جوزيف مَخُّول الذي ما إن كان يرى إحداهما تغيب ، حتى يسرع إلى مقعدي راغباً في مجاورتي ، والذي ما إن كنتُ أطلب منه أن يملي عليّ عن السبورة ، حتى يبدي لي من الرضى ما هو أقرب إلى الفرح ، وكأنني أعطيه الذي أنا أسأله . ثم أضيف إلى أولئك جميعاً مديرتنا الجديدة السيدة لبنى الخيّر ، التي كانت تتردد علينا كما على الصفوف الأخرى لألقى منها اللطف والتشجيع الكافيين ، ولا سيما حين كنتُ أجيب عن الأسئلة التي كانت تطرحها على التلاميذ ، وحين كانت تطّلِع على دفاتري ، وتنصت إلى ثناءات الآنسة نهى عليّ . ولا أنسى بهذا الصدد أيضاً الآنسة سامية حدّاد ، التي حملها إخلاصها على الزيارات المتكررة لصفي ، لتطّلع على سير أموري وتطورها ، ولتخرج مغتبطةً بما ترى وما تسمع . وحين طلبَتْ مني مرةً أن أقرأ لها ، يبدو أنها ظنّت حفظي الدرس غيباً ، لعدم مروري بالكثير من التعثرات التي كانت تلاحظها في قراءاتي السابقة ، فوضعتْ إصبعها على كلمة بعيدة ، وسألتني بتحبُّب عنها ؟ لكنني ما لبثتُ أن أعدتُ إليها اطمئنانها ، حين قرأتُها لها بعفوية ، وكانت الكلمة وفقاً لما أتذكر " شاهَدَ " .

أما والدي ، فكان رده الفعليّ على البُشرى التي أهديتُها إليه بشأن صداقاتي ، وخلصَتْه من همومه تجاهي ، بإقامته الولائم الدورية في بيتنا لصديقتيَّ ، مبتهجاً بكلفتها المادية مقابل ابتهاج أمي بجهدها

العضوي . وكان يسمح لي أيضاً بقبول دعواتهما المماثلة ، فنقضي معاً نهارات جميلة في ظل محبة بعضنا بعضاً ، ورعاية أسرة الواحدة منا للأخريين ، فإذا كانت زينة أول صديقة لي ، فلا ينبغي التغافل عن ذكر أمها التي لم تعاملني إلا كأنني ابنة ثانية لها .

لم تبقَ لي في ذلك العام سوى ثغرة واحدة فقط ، وعلى الرغم من سطحيتها وبساطتها ، فإن وجودها كان يسبّب لي الضيق والانزعاج. فكما أن المعلمة كانت تخصّص أوقاتاً للقراءة والكتابة والحساب ، كذلك كانت تخصّص لمادة الفنون كما هو معروف . وبهذا الصدد لم تكن لي مطلقاً مشكلة مع الرسم ، إذ إن ساعات الفراغ الطويلة في الأول الابتدائي ، جعلتني أتدرب على رسم المناظر الطبيعية من أشجار وورود وبطات وعصافير ومياه ، وفقاً لما يصل إلى بصري منها ، ثم أدت بي إلى إتقان هذا الرسم إلى درجة جعلت الصِّبْيَة من زملائي يطلقون الصفير الطويل ، حين كانت تعرض عليهم عملي الآنسة نهى ، ومن أعقبها في السنوات التالية من المعلمات . إذاً.. إن مشكلتي لم تتحدد إلا في شغل التي كان يُطلَق عليها " الكنفا " ، والتي لم تجد الآنسة نهى ضرورة لإجهادي فيها لعدم خطورة أمرها ، واقتصار الهدف من تشغيل التلميذات بها على انتقاء الأفضل ، من أجل المشاركة في المعرض الذي ستقيمه المدرسة . رضيتُ في البداية على مضض بالاستسلام للأمر ، لكن حين أتت زينة بلوحتها الجميلة التي ظفرت بإعجاب المعلمة الكبير ، وبانتقائها دون سواها للمعرض ، أصررتُ على رتق تلك الثغرة ، ورفضتُ نهائياً العجز أمامها ، فرُحتُ أتنقّل من أمي إلى أختي إلى جارتنا حياة ، لكي

يرشدنَني إلى طريقة الشغل فيها ، لكن لم تنجح واحدة منهن في إيصالي إلى هدفي ، لذا فكم كنَّ حينذاك يظفرنَ بتذمري وغضبي . وبينما رآني والدي ذات يوم على هذه الحال ، واستفسر عن أمري ، طلب من أمي أن ترشده إلى مبدأ الشغل ، فكان منه على الفور أن نجح في نقله إليَّ ، لاستعانته بحاسّة اللمس لديَّ بصورة أكثر ذكاءً، وكان له في ذلك الفضل في إبهاجي ، وتخليصي من الحالة الأولى، وإراحة اللائي كنتُ أشغلهن بهذه القضية . ومنذ ذلك الحين ، صرتُ وأختي نتردد على بائع الكنفا المجاور لنا ، فتنتقي منها الأجمل ، وأنتقي منها الأكثر بساطة واتساعاً في مساحات الألوان التي كان بإمكاني أن أميزها بصورة أدق من الآن ، ولا سيما لدى تقريبها من عينيّ . وبرغم ذلك ، لا أستطيع أن أعُدّ نفسي قد أتقنتُ تماماً ذلك الشغل ، إذ إن إمكاناتي البصرية المحدودة ، كان لا بد من أن توقعني فيما تعدَّد من الأخطاء ، ولا سيما في البقع اللونية الصغيرة المتناثرة أو المتداخلة . لكن ما يهمني من هذا الأمر ، هو تحطيمي الباب الذي أُغلِق أمامي .

ثم أتبعتُ تعلُّم شغل الكنفا بتعلُّم شغل الصوف عن طريق أمي والجارة حياة ، إذ كان أسهل عليَّ لعدم تطلبه التدقيق البصري كما هي الحال في الكنفا ، ولتمكّني فيه من الاقتصار على حاسة اللمس.

ثم لم يبقَ لي في هذا العام سوى حلم واحد ، وهو أن يقال عن صوتي إنه جميل ، دون أن أدري ما إذا كان كذلك أم لا . وربما كان هذا الحلم بتأثير من الصوت المخملي الذي تمتلكه امرأة عمي

السيدة سميرة عجّان ، والذي كانت تطلقه في بيوت الأقارب لدى قدومها من دمشق مكان إقامتها ، ليهزّ بآفاقه مَن حولَه ، وليمنحني جناحين رقيقين يمكّنانني من اللحاق به ، ولا سيما حين كانت تصدح بأغنية " أعطني الناي وغنِّ " ، لذا صرتُ كلما زارتنا أطلب منها أن تغنيها لي ، فتحضنني بحنان ، وتمتعني بالصوت واللحن والكلمات . وهكذا لم أجد من فرصة للوصول إلى ما هدفتُ إليه وحلمتُ به ، سوى أن أغني لوالديّ في عيد الأم تلك الأغنية البسيطة التي حفّظتنا إياها الآنسة نهى من أجل هذه المناسبة ، ولما انتهيتُ من أدائها أمامهما ، التفتا إلى بعضهما بعضاً ليقولا بدهشة هامسة تنم على الفرح باكتشاف أمر مخبّأ لم يدركاه من قبل : صوتها جميل جداً .

كان في تلك الفترة يُعرَض فيلم " بنت الحارس " الذي أدت بطولته فيروز ، فعمد والدي الذي لم أدرِ أي حوار صار يجري في داخله إلى تعطيلي في دوام مسائي عن المدرسة ، واصطحبني وأسرتي إلى السينما لحضور الفيلم ، وصار كلما انطلق صوت فيروز بأغنية ، يشجعني على حفظها مثل طيري يا طيارة و نسم علينا الهوا . ثم أكمل مشروعه بأن طلب من أمي أن تحفّظني أغنيةً كلما سنحت لها الفرصة ، مستفيداً من جمال صوتها هي الأخرى ، وعدم بُعدها عن تجربة الغناء . وهكذا أضيفت إلى أمي مهمة جديدة، إذ صارت تسجل من المذياع ما تراه مناسباً لي ، ثم تبدأ بتحفيظي مستمتعةً بصوتي ، مندهشةً من سرعة التقاطي اللحن ، ثم

تسجل ما حفظتُ بصوتي ليستمتع والدي أيضاً ، وليتأكد من الاستجابة لمطلبه .

وهكذا ناب والدي منابي في ذلك الحلم ، وأخذ يداوم على نقله إليّ من مستقبلي إلى حاضري وردياً مشرقاً . ولفرط إلحاحه عليَّ في تحقيقه ما لبث أن تحوَّلَ الغناء لديَّ إلى واجب ثقيل ، وبدأتُ أشعر تجاهه بالملل والضيق ، ولا سيما حين ظلت الآنسة نهى لفترة ليست بقصيرة ، تضحك مني بأسلوبها البريء ، بسبب تعطلي عن المدرسة من أجل الذهاب إلى السينما . لكن حين ارتأى والدي بذكائه الاستعانة بأسلوب آخر للوصول إلى هدفه ، ذلك بإنبائي عن الثروة الضخمة التي جمعتها المطربة فيروز ، سرعان ما تحقَّقَ له ما أراد، واستأنفتُ تدرُّبي على الغناء بإقبال أكبر ، وصرتُ أستجيب له بصورة أكثر يسراً ورضىً كلما طلب مني أن أغني أمام الأقارب والأصدقاء .

وإلى جانب الغناء ، دخل برنامجنا الدراسي تعليم العزف على البيانو ، من قِبَل الأستاذ فؤاد أبو عقل . وحين كان الأمر اختيارياً لا إجبارياً ، ترددتُ بشأنه قليلاً ، حَذَراً من العلم الجديد ، ومن الأستاذ الذي لا أعلم عن طبيعته شيئاً . لكن والدي سرعان ما بدَّد مشاعري ، ودفعني إلى ذلك كما كان يدفعني إلى الأمر السابق .

وقبل البدء في الدرس الأول ، أخذت الآنسة نهى تحدِّث الأستاذ بصورة مطوَّلة قليلاً ، وسرعان ما تبيَّن لي أن موضوع الحديث كان يدور حولي ، إذ كنت أول من نوديَ إلى التدريب ، كما أنني تلقَّيتُ من الأستاذ درجة عالية من اللطف والتشجيع والمراعاة ، ولِمَ لا

يكون ذلك ، وقد استوَتْ أموري جميعها ، وأشرقت عليَّ الدنيا من جوانبها المختلفة ؟! ونظراً لرهافة أذني ، واقترابي من المجال الفني ، كنتُ في رأي أستاذي دائماً أفضل من يتلقّى عنه ، ويتقن ما يعلِّمنا من المعزوفات . لكن بمضيِّ العام الدراسي ، انقطع عنا هذا البرنامج ، ولم يتكرر علينا في الأعوام التالية ، الأمر الذي جعلني أتأسف على الخطوات التي تجاوزتها بتلك السهولة والسرعة ، والتي كان من الممكن أن تشكل مقدمة لانطلاقة واسعة . هذا مع العلم أنني تلقّيتُ بعد سنوات دروساً خاصة في العزف على الآلة ذاتها لدى الآنسة جاكلين إلياس ، لكن بعد فترة ليست بقصيرة من رعاية الآنسة وجهودها الخاصة التي بذلتها تجاهي ، وابتهاجها بخطاي ، تبيَّن لي أنه من الممكن الحصول على نتائج أفضل بكثير فيما لو استمر الأمر منذ تلك السنّ المبكرة .

انتهى ذلك العام المثمر الجميل ، عام الثاني الابتدائي ١٩٦٨ – ١٩٦٩ ، وجاء يوم الحصاد ، انتهى ليؤسفني على دفئه وثرائه ، انتهى ليُختَتَم بِعيدٍ ، وليبقى في ذاكرتي فجراً وردياً لا ينطفئ مع حلول الليل .

صعدنا في البداية إلى حجرة الصف لنستمع إلى آخر حكاية من حكايات الآنسة نهى ، نهى التي على أوراقي أن تحتضن ذكراها كما يحتضن التراب الآن بقاياها . ثم نزلنا الباحة الأكثر اتساعاً من بين باحات ثانوية الكرمل ، حيث اجتمع التلاميذ والمعلمات والإداريات كافة ، وصعدت مديرتنا السيدة لبنى الخيّر المنبر لتوزع صحف النتائج ، ويعم التصفيق لكل متفوق .

الأولى : زينة عبدو ، التي استمرت في تفوقها لتصبح فيما بعد طبيبة للعيون .

الثانية : ريم هلال ، التي رأيتُها في ذلك اليوم تحمل إلى جانب جائزتها صحيفة أخرى ، تختلف تماماً عن التي حملَتْها في العام السابق ، إنها الآن غنية مثل كرمة آتت أُكُلها ، إنها تنطوي على سطور الآنسة سامية واهتمامها وحرصها ومحبتها ، تنطوي على ظلال الآنسة نهى التي حلّت محل الآنسة سامية ، لتطرد عني أشباح ذلك العالم ، تنطوي على عطاءات الأم التي ظلت تتدفق عليّ ينبوعاً لم يجف لحظة واحدة ، وسهرها الشاق المتفائل مع دفاتري وأقلامي والمصباح الكهربائي ، تنطوي على جهود والدي التي لم يتأخر عن بذلها بأعمق ما يُتَصور من اندفاع وإخلاص كلما أفرغ له عمله المضني الطويل من وقت ، أو كلما احتاجت أمي إلى غزارة علمه ورجاحة عقله واتساع قلبه ، تنطوي على صوتَي زينة وسحر ، اللذين غرسا الفرح في خُطاي ، وأسهما في تيسيرها وإسراعها . ولكي يتم اغتباطي ، تفوقت أختي رندة ، وحصلت على جائزتها .

أمي ... بهذه القطعة الكرتونية وحدها أستطيع أن أكافئك ، فتناوليها ، إنها ستدرُّ عليك ما هو أثمن من جواهر الكون ، أمي... ليت الله يسمح لي ولو مرة واحدة بأن أسجد لك ، فالشعور بالعرفان نحوك يضغط عليّ ، يكاد يشلني ، يخنقني .

ثقلتْ المفاجأة على أمي ، ثقلتْ الفرحة التي ضمت كل أعراس الأرض . ريم ... ريم التي لم يكن بالأمس من أمل بسيرها خطوة

واحدة في رأي معلمات العامين السابقين ، تتفوق اليوم مع زينة على زميلاتها وزملائها جميعاً ؟! أحقاً هذا صحيح ؟! أحقاً ليس هو بحلم؟! شكراً لك يا الله ، شكراً لنعمائك وكرمك . ثم ارتمت على الدرج الداخلي للبيت ، وأخذت تغرق في نحيبها ، ذلك الذي بدا وقد جمع أفراح اليوم وأحزان الأمس وما بينهما من التفصيلات والتحوّلات التي تلوَّنت بصراعنا مع النار ، وبعطاءات الله .

هرعَتْ وصحيفتها نحو الهاتف ، هرعَتْ ليصبَّ صوتها دفعةً واحدةً لوالدي ما حملتْ إليها ، وليتلقّى هو ما هطل عليه ، كطفل يضج من الفرح بهدايا العيد . وهكذا .. وبعد أن تناولنا الغداء ، جلست أمي بجانبي ، لتقرأ عليَّ القصة المهداة ، وهي كانت بعنوان " العصفور والأمير" لأستاذ والدي السيد خالد كَيَّال . وإذا ما كنتُ اليوم لا أتذكر شيئاً منها ، فإن ما يظل باقياً في ذهني متشبثاً به ، هو أنني لم ولن أتمتع بقصة كما تمتعتُ بها . وبعد الانتهاء من القراءة والإنصات ، رحتُ أتطلع إلى ذلك الأفق ، الأفق ذاته الذي كانت قد غاصت تأملاتي فيه ، بعد لحظات من إنباء أمي لي بموافقة والدي على دخولي المدرسة ، لكن لا شك في أنه بدا في يوم العيد هذا مرتدياً لوناً آخر .

- ٧ -

مرت المرحلة الابتدائية بسلام ، لكن لا بد من الوقوف عند بعض الأحداث والأمور التي لوَّنَتْها ، فمنحَتْها الجمال تارة والقتامة تارة أخرى .

استمرت جهود أمي في تعليمي ، تُكتّبني وتُقرئني وتُحفّظني مع الصبر والهدوء ذاتيهما ، مع التفاؤل ذاته ، إلى أن أصبح بإمكاني الاعتماد على نفسي في الصف الخامس الابتدائي . وإذا ما ظللتُ بحاجة إلى تقريب الكتاب أو الدفتر من عينيّ ، فإنني منذ الثالث الابتدائي استطعت التخلي عن فكرة التسطير ، إذ يبدو أن إكثاري من الكتابة وطول المران ، عوّداني على رؤية سطور الدفتر الأصلية بشيء من الوضوح ، فتخلصتُ بذلك مما كان يزعجني في العام الثاني الابتدائي ، ويُشعِرني بتدنّي قدراتي عن الآخرين .

وإلى جانب جهود أمي ، استمر اجتهادي وتفوقي ، إلى أن حصلتُ على الشهادة الابتدائية ، بل لقد غدت وسيلة تسليتي الوحيدة والأثيرة في أوقات الفراغ والعطل الصيفية ، الدفاتر والأقلام ، وإعادة كتابتي ما رسخ في ذهني من معلومات . لكن ما أصبح يبعث على تذمري بشأن الاجتهاد هو إلغاء الدرجات ، والاقتصار على إظهار الأولى منها فحسب ، إذ إن في هذا ما عنى عدم تبيُّني موقعي الدقيق بين أقراني ، لذا فكم كنت أتمنى أن أحصل ولو مرة واحدة على تلك الدرجة الواضحة ، أو أن تخفف زينة من الإصرار عليها ،

ذلك على الرغم مما كان يوجد من تقارب بين درجاتي ودرجاتها في أعمالنا خلال العام .

وضمن مجال دراستي البعيد عن الشمولية ، أتذكر أنني حين كنت في الثالث الابتدائي ، وكانت تدرّسنا السيدة أوديت سكاف ، التي أكنُّ لها الكثير من العرفان ، لاتخاذها مسلك الآنستين سامية ونهى ، يبدو أنني لم أستوعب في مادة التعبير – للوهلة الأولى – فكرة ملء الفراغات ، نظراً لجدَّتها عليَّ ، لذا فبدلاً من أن أضع الكلمة المناسبة لكل فراغ ، ملأتُ النص بالكلمات الموضوعة قبله وفق ترتيبها ذاته ، ففوجئَتْ معلمتي بما فعلتُ ، وأنبأَتْني بهمسٍ وتأسفٍ بحصولي على درجتين فقط من أصل عشر .

أنبأتُ أمي على غير عادتي بما حدث ، نظراً لخطورته وخدشه تفوقي ، فذهبَتْ أمي إلى المدرسة في الدوام المسائي ، والتقَتْ معلمتي حين كنا مصطفين في الباحة استعداداً لدخول الصف . ظننتُ أن الأمر بدايةً سيقتصر على توضيح أمي سوء فهمي عن المعلمة ، لكن ما بدا لي بعد حين هو أن وقوفهما امتد طويلاً ، كما هي الحال في الوقوف الأول مع الآنسة سامية . وفجأةً أنبأتني زينة وهي لاتتمالك نفسها من الضحك ، أن أمي والمعلمة غارقتان في البكاء ، وحين شاركتُ زينة في فعلها ، تشكّلَ على الفور مشهد درامي : اثنتان تبكيان من جانب ، واثنتان تضحكان من جانب ، إضافة إلى ما تخلل ذلك من نداء إحدى المعلمات لمعلمتي بصورة متكررة بغية مساءلتها عن أمر ، وخيبة كل من هذه النداءات لانصراف السيدة أوديت التام إلى دموعها وحديث أمي . الأمر الذي

جعل هذه المعلمة الثانية في النهاية تتوقف عما لم تجدْ جدوى منه ، وتنظر إليهما باندهاش . ظلت الاثنتان تبكيان ، وظللتُ وزينة نضحك بصوت مرتفع ، حتى انتهى المشهد بإسراع معلمتي نحوي ، وإسرافها في عناقي وتقبيلي . وبعد دخولنا الصف ، أخذَتْ تحفّظنا قصيدة ، وحين كان انتباهها كله متركزاً عليَّ ، وتبيَّن لها تقدُّمي على أقراني في الحفظ ، توجهَتْ إليهم قائلة : ريم هي التي سبقتكم.. صفِّقوا لها . وبعد فترة قصيرة أكملتُ تعويضي عن ذلك التقصير، بأن قدتُ معلمتي إلى وضع اسمي على لوحة الشرف المعلقة على جدار الصف ، لحصولي على الدرجات الكاملة في ثلاثة اختبارات ، وكم ازداد اغتباطي بهذا الأمر حين أتت مديرة المدرسة لتقرأ ما تضمنت اللوحة من أسماء .

وفيما يتعلق بمادة الرياضيات التي كنت أمقتها إلى حد بعيد ، لعدم توافقها وميولي ، أخذَتْ تتعقد وتغلظ شيئاً فشيئاً ، حتى وصلَتْ إلى درجة أعجزَتْ أمي التي لم تحصل إلا على الشهادة الابتدائية عن توضيح مسائلها لي ، فكان عليَّ أن أستعين بآخر سواها ، وهنا لم أجد سوى أبي ذي الشخصية المسرفة في التأني والهدوء ، بل المتقصدة إياهما فيما يبدو لي أحياناً ، بغية الحصول في رأيه على النتائج الأفضل . فقد كان يقضي معي من أجل إنجاز الوظيفة المقررة ساعتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو نهار العطلة كله ، وبدلاً من أن يبشرني بعد ذلك بالخلاص ، يطلب مني أن أستريح قليلاً . وقد لا يُستغرَب ذلك إذا ما ذكرتُ ، أنه حين طلبَتْ منه أمي ذات يوم ، أن يساعدها في تجليد كتبنا ودفاترنا ، واستجاب لها باندفاع كعادته ،

ظل من الساعة الثانية حتى الرابعة لينتهي فقط من تجليد كتابين ، لكن لا ينبغي في الوقت ذاته أن أنكر أن الكتابين ظهرا في منتهى الأناقة والترتيب ، وكأن آلة قد مرت عليهما .

عَلِمَ خالي سعد بمعاناتي التي أصبحت مثاراً للتفكّه ، فصار يأتيني في كل يوم ، ولكن حين يكون في اللاذقية دون دمشق التي كان يقضي فيها دراسته الجامعية . وكان كلما قَرع الباب ، وبدا لي بانهماكه الطيب واستعداده التام لبذل ما نريد من جهوده ، احتفلنا به هامسين فيما بيننا ، مباركين جميله : جاء الإسعاف – جاء الإنقاذ ، ولا سيما إذا ما كان أبي قد بدأ بفتح ثلاجته عليّ ، ولفحني بصقيعها.

وكما استمرت خطاي الموفَّقة في الدراسة ، كذلك استمرت صداقتي مع زينة وسحر ، وفق الحميمية والمحبة ذاتيهما ، بل أُضيفَتْ إليهما في الرابع الابتدائي ندى سيد رصاص ، التي انتقلَتْ إلى مدرستنا ، والتي كان يوجد بيني وبينها في الأصل ودّ عميق قد نبع من رقتها ووداعتها ، ومن التوادّ القديم القائم بين أسرتي وأسرتها. لكن منذ الخامس الابتدائي ، بدأ التنافس بين زينة وندى ، على مجاورتي على مقعد الدراسة ، الذي أصبح لا يتسع إلا لفردين، وكان ذلك أمام معلمة اللغة الفرنسية ، إذ أوقفت الاثنتين ، وأخذت تحاورهما عساها تصل معهما إلى حل ، لكن ندى فاجأتنا بأن قطعت تحكيم المعلمة ، وتجاوزتْ رغبة زينة متحركة من مقعدها البعيد لتسير واثقة باتجاهي . هذا مع العلم أن مجاورتي تكلِّف الآخرين شيئاً من الجهد ، للاضطرار إلى الإملاء عليّ عن السبورة

كلمة كلمة ، وشيئاً من الوقت الثمين في أوقات الاختبارات الشهرية والامتحانات . وإذا ما تخللتْ صداقتي مع ندى بعض الخصومات البريئة التي تحدث بين الأطفال ، انهمكتْ أختها مها الأكبر سنّاً ، لتتحول إلى قاضية حيادية غير مستجيبة لعاطفة الأخوَّة ، وأخذت تدارينا وتلحّ على كل منا إلى أن يطمئنها صلحنا وعودتنا إلى ما كنا عليه .

وفيما يتعلق بمعلّماتي اللائي مررن بي خلال ما تبقّى من تلك المرحلة الابتدائية ، أركّزُ على المقارنة بين اثنتين ، ذلك نتيجة التناقض الحاد بين سلوكيهما تجاهي . وأبدأ بالتي تستحق الشعور بالعرفان ، وطلب الرحمة والمغفرة لروحها ، وهي السيدة عرفان عبد المُطَّلب ، معلمة اللغة الفرنسية . فقد كان من المعروف عنها في ثانوية الكرمل قسوتها وشدتها مع التلاميذ ، وعدم تأخرها عن إلحاق العقوبات الجسدية العنيفة تجاه من يصدر عنه أي تقصير مهما كان صغيراً تافهاً ، وسواء أكان متعلقاً بجملة أو كلمة أو حرف ، فشكّلتْ في نفوسنا منذ الثالث الابتدائي ، أي قبل أن تدرّسنا بعام ، مصدر هلع وترقّب متوتر لمصيرنا الآتي بين يديها ، وكان شعورنا هذا يتحفّز – على وجه الخصوص – حين كانت تصعد الباص المخصص لنقلنا ، وتتخذ المقعد المقابل لمقعدنا . إلا أنها فاجأتنا ذات يوم بالتفاتها إلينا ، لتؤنب زينة باقتضاب على ارتفاع صوتها ، ثم لتتوجه إليّ بأسئلة متعددة ، انطوت على الكثير من التودد ومحاولة التقرب وحملي على التفاؤل بما سألقى منها في العام

القادم، فبثتْ في نفسي الراحة والاطمئنان ، وهدمتْ من أمامي شبح القلق الذي كان يتردَّد عليَّ بين الحين والحين .

وبصورة فعلية تدفقت عليَّ محبة المعلمة بقدر قد لا يقلُّ عما هو لدى والديّ ، وكانتْ تُبديها لي بطريقة جعلتْني أضيق بها أحياناً . فكلما صعدتْ الباص ، انتزعتني من زينة وأخويّ لتُجلِسني بجوارها ، وتغمرني بعواطفها التي تحاكي البحر غزارةً وصخباً ، لذا أصبحتُ أحياناً أتهرّبُ منها إلى المقعد الكائن في أقصى الخلف ، لكن على الرغم من ذلك لم أسلَم من سماعي سؤالها عني ، أو من جمرك قبلاتها الذي لا بد أن يوقفني لدى مروري بجوارها من أجل النزول . أما حين تدخل الصف ، فينبغي أن تتجه عيناها مباشرة نحوي ، وتقدّم تعليقاتها التي تثبت تركيزها الخاص على وجودي ، فتبدي مثلاً آراءها الإيجابية أو السلبية حول تسريحة شعري فيما إذا بدلتُها، وتسألني عن سبب غيابي فيما إذا حدث بالأمس ، ولا تتحرج من الإدلاء بشعورها في أثنائه بفراغ الصف وصمته ، ومن طلبها من زملائي أن يشهدوا على ما تقول . وهي لاتملّ مطلقاً من نصيحتها لي بأكل السمك الذي يفيد البصر كما علمتْ ، ومن إلحاحها في مساءلتي عما إذا كنت أستجيب لها ؟ وعن المرة الأخيرة التي تناولته فيها ؟ فتكون إجابتي دائماً بأنني تناولته في الأمس مداراةً لحرصها. وحين تُدرّسنا ، ينبغي بعد شرحها كل أمر على السبورة أن تسرع إليّ وتجلس بجواري لتعيد لي توضيح الأمر ذاته على دفتري ، ذلك على الرغم من أنه كان يتبيّن لها في كل مرة فهمي عنها بعد الشرح الأول. أما العقوبات الجسدية القاسية التي لا بد أن تشمل الجميع

بدءاً من صاحبة المرتبة الأولى حتى الأخيرة ، فأنا مُعفاة منها نهائياً ما دمت قد كنت حبيبة معلمتها كما تصرح ، لكن هذا لا يعني في الوقت ذاته أنني لم أكن أحاول تجنبها قدر الإمكان ، من خلال الإفراط في اجتهادي ، وعلى الرغم من ذلك ، فإنني إذا ما وقعتُ في خطأ ، كان ذنبي مغفوراً دائماً ، الأمر الذي جعلني مثاراً لحسد باطني لدى أقراني . لكن ما أكثر ما أثارت ضحكهم ذات يوم ، حين أتت بها إحدى المعلمات لتقابل أمي القادمة إلى المدرسة ، إذ سرعان ما لفتتهم خطاها المسرفة في السرعة والانهماك ، ثم جلوسها بجوار أمي لتعبر عن رأيها بي من خلال الوجه واليدين والعينين والحماس الشديد الذي لم يصل إلينا شيء منه ، إذ كنا نراقبهما ونحن مبتعدون عنهما قليلاً ، لكي يتاح لنا بصورة أكبر التفكّه المريح الحر .

لكن قسوة المعلمة وعنفها لم ينفيا طرافتها المفرطة التي كانت تُظهرها خارج إطار الدرس ، والتي كانت كثيراً ما تثير مرحنا وتسليتنا ، وشعورنا بتحوّل من تصدر عنها إلى طفلة مثلنا ، أو إلى أحد الظرفاء الذين يفكّهنا بهم التاريخ ، وكانت طرافتها هذه تبدو حتى في أكثر الأمور سلبية . إنها كانت طريفة في جشعها ، إذ لم تنسَ يوماً مطالبتنا بإحضار الزهور لولهها بها إلى حد بعيد ، إلى حد لم يمنعها ذات مرة من أن تسطو على باقة لمعلمتنا الثانية ، فتختار منها الأجود والأجمل ، وتترك الذابل المتقصف حراً طليقاً ، مما جعل تلك المعلمة التي أزعجها هذا الفعل تتساءل مستسلمةً حول عدم حملها الباقة بأكملها ؟ وكلما لاحت تباشير عيد المعلم ،

حفّزتْنا على التباري في الهدايا التي ينبغي أن نقدمها لها ، ذلك من أجل أن تجعل من اليوم المذكور عرساً حقيقياً تجني فيه الأفراح التي بدأتْ بالاستعداد لها منذ شهر أو شهرين . ولا أخفي بهذا الصدد ، أنني كم أشعر بالندم الكبير ، واللوم الدائم لنفسي ، نتيجة قيامي باتفاق مع بعض الزميلات على عدم إهدائها في العام الثالث والأخير من تدريسها لنا ، ذلك احتجاجاً على طمعها الذي بث في نفوسنا الملل ، وبدا في حالة واضحة التناقض مع تعفف المعلمات الأخريات . لا أخفي بهذا الصدد أنني أمارس الكثير من التأنيب لنفسي ، لأنه مهما بلغ الأمر من التفاقم لدى مثل هذه المعلمة ، ما كان ينبغي أن أرد جميلها بتلك الطريقة ، بل أن أنتهز أي فرصة تتاح لي لكي أقابلها بشيء مما قابلتني به . وذات يوم أُعجِبَتْ كثيراً بقلم قدَّمه لي والدي ، ولما علمَتْ من زميلة أننا نستحوذ أيضاً على اثنين بلونين آخرين ، طالبَتْني على الفور هامسةً ، بأن أحضر لها واحداً منهما . كنتُ أتمنى جداً أن أفعل ذلك ، لكن حرجي من والدي الذي لن أُبقِي له بذلك سوى واحد ، ضيَّقَ عليَّ ، وجعلني طوال اليوم أشغل ذهني في طريقة المطالبة الأكثر لياقة ، والأبعد عن أن تخدش صورة المعلمة الناصعة أمام عينيه ، ولم أجدْ في النهاية سوى أن أنقل إليه إعجابها بقلمي ، فكان منه على الفور أن أعطاني القلم الأحمر الذي سيفيدها في التصحيح ، وحين قدّمتُه إليها شكرتني بالفرنسية ، دون أن تخفي أثناء ذلك لهجة الظافر الغانم .

وكانت المعلمة طريفة في بدانتها ، وعرضها الذي لا أدري كم يبلغ من السنتيمترات الكثيرة ، إذ ترى لدى تشجيعنا على التغذية الجيدة ، أن على كل منا أن يصبح مثلها .

وكانت طريفة في طبعها الهَلِع الخائف دائماً ، إذ صوَّرَتْه لنا بصراحة ذات يوم ، حين سألتنا ما إذا كان أحد أقربائنا سيذهب إلى الحج ، ذلك لكي يحضر لها من هناك ما يسمى بطاسة الرعبة ، وهي إناء نحاسي كُتِبَتْ عليه آيات قرآنية ، يُستخدَم لكي يشرب منه من يتعرض لما يخيف ، وقد لبّت أمي رغبتها عن طريق جدتها التي كانت ستحج في ذلك العام . لكنها إذا ما استفادت من التعبير عن رعبها بالحصول على ما أرادت ، فإنها بالمقابل عرّضت نفسها لمزحة من تلاميذها الذين وضعت أيديهم على نقطة ضعفها ، إذ استغلوا عيد الكذب في الأول من نيسان ، لكي يدسّوا في دُرج منضدتها أفعى بلاستيكية ، وليجعلوها بجسدها الضخم والكرسي الذي يحمله يطيران إلى الخلف فراراً منها ، فلا يستفيدان من طاسة الرعبة التي ظنت أن وظيفتها منحصرة في البيت .

وكانت طريفة في غرورها وعجرفتها ، إذ لا تزال تضحكني هيئتها وهي تدخل حجرة الصف متقدِّمةً بصدرها ، مقهقرةً إلى الخلف بظهرها ورأسها ، ضاجّةً بحذائها بصورة لا تخفي التقصد والإسراف. وكم كانت تحدثنا عن ابنها الذي سيصبح ضابطاً ، وتحفزنا لكي نردِّد جميعاً اسم هذه الرتبة بصوت مرتفع .

وكانت أخيراً طريفة في قسوتها ذاتها ، في صوتها الذي يرتفع بصورة مفاجئة تُبهِت أسماعنا وفرائصنا فور ملاحظتها لأمر من

أحدنا لم يحظَ بإعجابها . وكم بدت غضباتها ذات يوم مضحكة ضعيفة الحيلة حين راح تلميذ مجهول أو تلميذة يردُّ على كل منها بدمدمات منغَّمة ، فيثيرها من جديد ، ويشحنها بعنف أقوى ، أو بالأحرى أوهى قدرة على أن يُفرِّغ في المشاغب الذي لم يتم اصطياده .

ومقابل صورة السيدة عرفان العزيزة على ذكرياتي ، يؤسفني أن أنقل صورة السيدة ل معلمة اللغة العربية في الرابع الابتدائي ، لما حملت من قتامة وسلبية وعجز عن العطاء . لكن ما يعزّيني هو أنني لم أكن أنا التي شكّلتُها أو رغبتُ في تشكيلها .

إن قسوة المعلمة هذه كانت موجَّهة إليَّ دون التلاميذ ، أو بالأحرى إلى العاهة دون العافية والسلامة ، وربما تمثَّل ذلك من خلال توجُّهها المتكرر إليَّ بلفظة " العمى " ، ذلك احتجاجاً على أي خطأ أنزلق فيه دون اختيار مني ، كالانحراف عن السطر مثلاً . ومن المعروف أن كلمة " العمى " في العامية ، تأتي في سياق الهزء ممن يبدو مشابهاً لفاقد البصر في غفلته . ومقابل ذلك لا أنكر أنها كانت تلاطفني في أحيان قليلة ، وتحظى بمحبتي ، لكن ذلك كان اضطراراً منها لا اختياراً لما كانت تلحظ من تفوقي . أما خارج الملاطفة العارضة المؤقتة التي تحاكي البرق ، فالمعاملة موزعة ما بين السخرية والصراخ والأذى والزجر .

إنها حين دخلت علينا في المرة الأولى ، طلبت من كل تلميذ بالترتيب أن يذكر لها اسمه ، ولما تحدَّد مكان جلوسي في المقعد الأول من الفرقة الثانية ، ولم أتنبه إلى لحظة انتهائها من الفرقة

الأولى وابتدائها بفرقتي ، ما لبثتْ أن تذمرت من الانتظار القليل الذي سببتُه لها ، ولما استدركتُ من زينة أنها تقصدني بهذا التذمر دون سواي ، وذكرتُ لها على الفور اسمي ، هزئتْ مني بعبارة " صحَّ نومكِ " . ولا شك في أنه كان ينبغي عليَّ في ذلك اليوم الأول، أن أعتقد عدم إدراكها بعد لوضعي ، لكن الأيام التالية ما لبثتْ أن بيَّنتْ لي أن هذه المعلمة لم تكن مؤهلة على الإطلاق لاستيعاب الأوضاع الخاصة ، هذا وإن كانت قد بدأت تتردد عليها التوصيات الإنسانية من صديقة أسرتي وابنة عمتها . إنها كانت تمدُّ إليَّ بالشيء ، الدفتر أو القلم ، دون أن تُسمعني كلمة تنبهني إلى فعلها، فأظلّ محجمةً عن أخذه إلى أن تشير إليَّ زينة . وكانت تضع إصبعها على دفتري لتدلني على المكان الذي ينبغي أن أبدأ منه الكتابة ، وإذا لم ألمحها ببقايا بصري على الفور ، صرختْ بحقد: هنا .

وبناء على ذلك ، كيف لها أن تغفر أخطائي التي كان بإمكاني تجنّبها ؟ لقد كان بديهيّاً أن تشملني بالضرب مع زملائي لعدم إحضارنا كتاب القواعد ، وأن تحتج أمام التلاميذ على أم أحدنا ، وبصورة مبطنة على أمي ، التي أنَّبتها طويلاً على الهاتف ، فهي كما ادَّعت لم تؤلمنا . لكن حبذا لو تدري أي انكسار خلفته في نفسي ، التي كانت لا تزال هشَّة بفعل لطمات الزمان ! وأي جزء من وعيي قد أفقدتني ، لعدم تعرّضي لما يماثل ذلك فيما سبق ! كما كان بديهيّاً أن تسخر مني حين اضطررتُ إلى إنبائها في أحد امتحاناتي النصفية أن قلمي تعطَّل عن الكتابة ، إذ أجابتني بلهجة

مُنعَّمة : ليعطّله الله ، ثم تسأل التلاميذ بحدة ما إذا كان بحوزة أحدهم قلم إضافي ؟ وكان بديهيّاً أن تجيب بالإهمال عن سؤالي الذي طرحتُه عليها في امتحان مادة الرسم ، ذلك فيما إذا كان ينبغي أن نلوِّن ما طلبت رسمه ؟ وبعد ذلك .. كيف لا تختتم العام الدراسي وفي الامتحان النهائي بأن تنفجر عليَّ بذلك الصراخ العنيف المديد؟ مكرّرةً خلاله كلمة " العمى " لانحراف خطي عن سطر كان قد بدا لي جِدَّ باهت . هكذا أرادت السيدة ل أن تنهي سيرتها معي ، وأن تردَّ على توصيات ابنة عمتها خلال العام ، وعلى توصيات السيدة عرفان في ذلك اليوم ، إذ كانت تراقبنا معها ، ولكن لا تستطيع أن تتدخل بالعون لارتباط الامتحان بمادة اللغة العربية ، الأمر الذي جعل السيدة عرفان الطيبة ، في أثناء غضبةِ السيدة ل الحاقدة ، تلتفت إلينا بوجهٍ ، استطعتُ أن أقرأ فيه سطور القهر ، لكنني لا أدري ما إذا كانت قد دمعت عيناها .

– ٨ –

في التاسع من تشرين الأول عام ١٩٧١ ، أي حين كنت في الحادية عشرة من عمري ، أو في الخامس الابتدائي ، قدِمتْ إلى عالمنا أختي رفيف ، التي شكّلت بالنسبة إليّ زهرة حلم لم يكن قد زايَلَني خلال أعوام مضت ، لا أدري لماذا ؟ لكن ما أتذكره هو مطالبتي الدائمة بأن تكون لي أخت ثانية تصغرني بهذا القدر . وهكذا تحوّلت رفيف ، الطفلة الجميلة الرقيقة إلى مصدر فرحنا أنا

وإخوتي ، وإلى لعبة نلهو بها كلما استيقظنا ، أو عدنا من المدرسة ، أو سنحت لنا أوقات الفراغ ، فتسلي عنا همومنا الدراسية ، وتُبعِد عنا بتجديدها حياتنا ساعات الرتابة .

ظللنا على هذه الحال شهرين تقريباً ، وبعد انقضائهما أفاجأ بقدوم طبيب الأسرة إلينا الدكتور كمال راعي . لم يأتِ في ذلك اليوم من أجلنا ، إنما من أجل رفيف ، ولا من أجل الاطمئنان على صحتها العامة ، أو بسبب نزلة برد عارضة ، إنما من أجل موضوع آخر خاص جداً ، موضوع عينيها . فمنذ فترة وأبي يسرّ إلى أمي بملاحظته حول حركتهما غير الطبيعية ، وأمي تطمئنه ببرود ، وتؤكد له أن عيون الأطفال لا تستقر حركتهما إلا بانقضاء ستة أشهر ، وهي لم تطالب الطبيب بالحضور إلا من أجل أن يؤازر رأيها ، ويهدّئا معاً من قلق والدي .

حملت أمي رفيفاً ، ووضعتها أمام الطبيب ، وما إن انتهت من نقلها المقتضب إليه لما يدور بينها وبين والدي ، وانتهى هو من تفحصه العميق القصير ، حتى أنبأها بهمس وألم بأن عينَي الطفلة تنذران بأمر . لم أكن أدري حتى ذلك الحين كيف كان موقف أمي لدى إنبائها بوضعي ، إلا أنه من خلال رفيف وصل إليّ بتفاصيله تماماً ، ذلك بدهشتها أولاً ، ثم بعدم تمكّن ساقيها من حملها ، ثم بارتمائها المستسلم المنهار على الأريكة ، وإطلاق العنان لنحيبها أمام الطبيب ، ثم باعتكافها بعد ذهابه في إحدى الغرف ، واستمرارها في الانكفاء على دموعها وآلامها إلى أن جاء والدي ، إذ أخذ يسألها عما حدث بلهفة وخوف نظراً لعدم علمه أن الطبيب سيأتي في ذلك

اليوم ، لكن غرقها في البكاء وتوجسها من الموضوع الثاني الذي سيدخُلانه منعاها من الإجابة ، أو من استعادة صوتها الذي ذهب بعيداً إلى حيث يقيم الليل . وهكذا ظل يسألها ، وظلت تدل على عجزها عن إخماد فضوله ، إلى أن عبّر عن اهتدائه إلى الحقيقة بعينين دامعتين ، فبسؤال مقتضب عن عينَي رفيف ، فبعناقه الحار لأمي وهو يردِّد : لا تبكي يا بابا .

كان ينبغي على والديّ أن يذهبا برفيف إلى دمشق لعرضها على طبيب عيون موثوق ، ويتثبتا من صحة الرأي الذي أدلى به طبيب الأطفال ، كما كان ينبغي أن يستفيدا من هذه الفرصة ، ويصطحباني أيضاً من أجل المراجعة . وفي الصباح التالي من وصولنا ، ذهبنا إلى بيت العمّة دلال التي أَلِفَتْ وأسرتها أن تشاركنا أحزاننا ، وبينما راحت أمي تتحاور مع ابنة العمّة السيدة نجوى وكنَّة العمَّة السيدة منى ، لاحظتُ أن ما كان يصلني من صورة الخالة نجوى التي كانت تهزُّ سرير ابنها ، بدأت تحتجب عن عيني اليمنى شيئاً فشيئاً ، وما كدت أسائل نفسي عن الأمر حتى بدا لي أن الصورة اختفت تماماً من أمامي ، وصاحَبَ ذلك شعور بوخزة مزعجة في عيني ذاتها ، وتحوّلها – من ثم – إلى صنبور يتدفق بدمع غزير .

نبهتُ أمي إلى الجديد الآخر الذي طرأ ، فراحت تتساءل ومَن معها بهلع حول غشاوة بيضاء غطت البؤبؤ تماماً ، ثم ما لبث أن انضمَّ إلى مجلس القلق والدي الذي لحق بنا إلى البيت الذي نزوره ، لكن ما من أحد استطاع أن يجد إجابة عن السؤال الكبير ويكشف

عن السر الغامض . وهكذا عدنا إلى بيت عمي بانكسار لم نعهده من قبل ، فقد حضرنا إلى دمشق عسانا نخفف شيئاً من مشكلتنا ، فإذا هي تتفاقم ، وتتحوّل إلى مشكلتين . أما العمة الطيبة ، فلم تجد من علاج لنا سوى أن تهتف إلى والديّ ، وتغرق في البكاء محتجة على الحياة المليئة بالمصاعب والعثرات ، الحياة التي لسعتها – هي الأخرى – بسلب زوجها وابنها وهما في زهو الشباب .

أُرشِدنا إلى طبيب عيون أردني يعمل في مشفى المواساة يدعى نشأت حمارنه ، وقد ارتأى أن يعرّضني ورفيف للتخدير العام كما في طفولتي الأولى ، ذلك بغية التمكّن بيسر من إجراء الفحوصات الدقيقة . وقد شَغَلَنا بصدد هذا الأمر إلى جانب النتيجتين المنتظَرَتين، الصيام الذي ستتعرض له رفيف ، فهي اعتادت أن تبدأ بالرضاعة منذ الثالثة فجراً ، وكان موعدنا في الثامنة صباحاً . ولا شك في أن هذا الصيام بدا أقصر من صيامي السابق الذي امتد إلى السادسة مساء ، أو أنه لا بد أن يكون كذلك لما حمل الطبيب هذا من روح إنسانية ، لكنه في الوقت ذاته بدا أكبر بالنسبة إلى طفلة لم تمتلك بعد أي طاقة على الصبر ، لذا فكم صار يجرحني بكاؤها الذي راح يتردد خلال تلك الساعات ، ولا يجد من يمتلك الوسيلة الفعالة لتهدئته .

خُدِّرَتْ رفيف بطريقة مختلفة عن التي اتُّبِعتْ معي في أثناء تخديري السابق ، اقتربَتْ من العالم الأول الذي كانت تستريح فيه ، لكن أمي التي خشيت على نبضها الأزغب ، أخذتْ تطالب الممرضة مراراً بأن تتفحصه ، وكانت في كل مرة تستجيب لها

باندفاع ، ثم تطمئنها ، فهي تعاطفت معنا منذ وصولنا المشفى ، وتحسرت كثيراً على رفيف لما لحظت من جمالها . وما كادت أمي ترفع رأسها إلى الله ، وتنذر له أن تصوم الدهر فيما إذا استعاد منها همّ رفيف ، حتى أتت عبارة الطبيب بثقة زائدة : العينان سليمتان . أما فيما يتعلق بعيني ، فبعد أن استمع الطبيب إلى تفاصيل سفرنا، خمّنَ أن يكون ما طرأ عليها قد نجم عن نقلة مفاجئة ما بين جو الباص الدافئ والجو الخارجي الشتوي .

حملت أمي رفيفاً وطارت بها إلى المصعد ، وحملني والدي ، إذ لم أكن قد صحوت بعد ، لكن على الرغم من ذلك تناهى إلى وعيي الجزئي كيف أشفقت الممرضة على أبي بسبب ثقلي ، وتمنت له العون من الله ، وكيف ردَّ عليها أبي بعبارة استبطنتْ اللامبالاة بكل أثقال الأرض ، ما دام قد حمل وأمي الفرح بعينَي رفيف ، الفرح الذي ما لبث أن تفاقم واتسع ليشمل كل مَن حولنا في دمشق ، ومن كانوا بعيدين عنا في اللاذقية ، ذلك إلى حد جعل شاباً مثل ابن خالة أمي السيد صدّيق ريِّس علي ، لا يجد من وسيلة للتعبير عنه إلا بالبكاء ، فنال تقدير الجميع .

طلب الطبيب من والدي إحضاري يومياً إلى المستشفى ، للمثابرة على علاج عيني وتغيير ضمادها ، فصار والدي الذي خشي من نزلة برد أخرى ، يغطي بيديه وجهي كلما خرجنا ، ريثما نعثر على سيارة أجرة ، وكلما نزلنا من السيارة لدى العودة ، ريثما نَلِجُ البيت . ظللتُ على هذه الحال عشرين يوماً ، أذهب إلى المستشفى وأعود ، ولكن دون أن ألحظ أي تقدم يطرأ لدى إزاحة الضماد ، فالغشاوة لا

تزال قائمة بكليتها ، لم يتراجع منها أي قدر يسير ، وبذلك لم أجد ما يخفف من قلقي الذي صار يكبر يوماً بعد يوم ، سوى احتفال الطبيب " نشأت " بي ، والتقائي طبيبة عيون شابَّة تعمل هناك ، تداوي شلل ساقيها وتثاقل خطواتها التي لم تحركها سوى الأطراف الصناعية ، بالضحك والفرح الدائمين ، الأمر الذي جعلني لفترة ليست بقصيرة ، أحلم بأن تنشل ساقاي أنا الأخرى ، إلى جانب ما كنت فيه بغية تقمص شخصيتها ، وهي ربما شكلت – فيما بعد – رافداً غزيراً أسهم في تكوين طبيعتي التي أراها قد اقتربت منها ، وأصابت بعدواها رفيفاً . وخارج العلاج كنت أقضي الساعات الطويلة الثقيلة في التفكير بكيفية تسلية نفسي بعيداً عن القراءة والكتابة اللتين لم أعد أتمكن من القيام بهما ، وبكيفية التآلف مع الوضع الجديد فيما إذا ظل مستمراً . وكان أبي الذي يثني على صبري ، ويرغب في استمراره لا ينفك يتحدث إليّ عن عظماء العالم من ذوي العاهات ، ولا سيما طه حسين الذي فقد بصره بصورة كلية ، و هيلين كيلر التي فقدت إلى جانب بصرها سمعها وقدرتها على النطق .

تفاقم شعوري بالاشتياق إلى عالمي في اللاذقية الذي تمنيت لو لم أخرج منه ، وأصل إلى ما وصلت إليه . اشتقت إلى أخويّ رندة وعمر ، إلى البيت ، إلى أقاربي ، إلى جيراني ، إلى المدرسة ، إلى زينة وسحر وندى ، إلى معلماتي ، صرت أحلم بلقائهم الذي أراه بعيداً ، وبإنبائهم المفصّل بكل ما حدث . وبين التفكير وأحاديث أبي والشوق ، لم أجدْ ما يمتعني ، ويبدد شيئاً من رمادية الغيوم التي

كانت تكتنفني ، سوى مرح زوجة عمي السيدة سميرة عجان ، التي كنا نقيم في بيتها ، وتبادلها المزاح مع والدي ، وسماعي غناءها الذي كان يهزني في سنواتي الأولى ، ومثابرتها على تحفيظي أغنيات أخرى لفيروز مثل سني عن سني و ع اسمك غنيت .

وبعد ... سأل والدي الطبيب فيما بينهما : إلام سنبقى هكذا ؟ فأجاب متأسفاً بما يدل على صعوبة تحسّن عيني أكثر من ذلك . علمتُ بالأمر حين سمعتُ أمي وهي تشكوه إلى امرأة عمي ، فساءلتُها باكية ، باكية للمرةِ الأولى منذ أن طرأتْ عليَّ هذه الحالة : وهل حدث من تحسّن بسيط في الأصل لكي نطالب بالمزيد ؟ كيف سأبقى هكذا من دون اللتين غدتا وسيلتَي تسليتي الوحيدتين في أوقات فراغي : الكتابة والقراءة ؟

نصحَنا الطبيب بالعودة إلى اللاذقية واصفاً لعيني أن تدهن كل يوم بمرهم يحوي على مادة الكورتيزون ، فلعلها تحقق هي بعد اليأس من العلاجات الأخرى ما نرجوه من فائدة . وكان للطبيب ما اقترح ، إذ ثابر والدي في كل مساء على دهن عيني بالمادة المطلوبة . أما أنا فكان عليَّ أن أحيط بالدروس التي لم أسمع شروحها من المعلمة، ذلك لكي أتقدم إلى الامتحان النصفي الذي فاتني . ولما تعذر شطر من هذه المهمة على أمي ، لما تخلله من الأمور العلمية المعقدة بعض الشيء ، وعلى أبي الذي كان ينبغي أن يداوم في مكان عمله من الصباح حتى المساء ، تبرع خالي السيد أحمد صفية بمساعدتنا، وشرحه لي دروس المواد العلمية ، إذ كان يدرس الهندسة الميكانيكية في دمشق ، ولحسن الحظ وُجِد وقتذاك في اللاذقية .

وهكذا أخذ يتردد علينا كل يوم ، يقضي معي الساعات الطويلة ، مندفعاً بحسّه الإنساني المرهف الذي ألفناه ، ومحبته الجمة لي ، وفرحه بذكائي ويسر فهمي . لذا فإنني لم ألحظ لديه في لحظة من تلك الأثناء أي تعب أو ملل ، على الرغم من كمية الجهد التي كان ينبغي أن يبذلها . كما أنني بالمقابل لم أشعر بشيء من ذلك لديّ نظراً لما كان يُدفِق عليَّ من لطفه وتحببه ، فلم أجد ما أردّ به جميله وجميل والديّ إلا بتفوقي في امتحاناتي التي أجرتها لي المعلمة شفهياً .

لم أملّ منذ وصولي اللاذقية من أن آتي كل يوم بدفتر وقلم إلى قرب النافذة ، لكي أجرب قدرتي على الكتابة ، لكن في كل تجربة كان يتبيّن لي أنني لا أرى سوى الغشاوة ، وأنا في الأصل لم يكن يهمني ذهابها أو بقاؤها ، رؤيتي أو عدم رؤيتي ، بل إن أقصى ما كنت أهدف إليه هو الغاية التي توضحت لي منذ بدايات تعلمي ، فالكتابة والقراءة – كما أشرت – تحولتا إلى وسيلتَي تسليتي الوحيدتين ، بل إلى عالمي وضيائي ، وسبب رغبتي في الحياة . لذا لم أجد ما أداري به غيابهما إلا بالانكفاء على نفسي ، أو النوم ، أو البكاء ، ولكن لمرة واحدة فقط منذ وصولنا اللاذقية ، ذلك لأنني على الرغم من الاحتراقات الكبيرة التي مررت بها ، لم أستسلم له إلا نادراً .

وذات يوم أتيتُ بدفتري وقلمي كعادتي ، مُحَمَّلة بالألم ذاته ، باليأس ذاته ، لكنني ما إن بدأتُ التجربة ، حتى تبيَّن لي أن النتيجة لم تكن ذاتها ، فقد لاحظتُ أنني أصبحتُ أرى ما أكتب ، وإن لم

يكن وفق الوضوح السابق . لم يتسع الهدوء حينذاك لفرحي ، فقذفتُ ما كان بين يديّ بعيداً ، وذهبتُ إلى أمي التي كانت منصرفة إلى عملها وأحزانها ، أقفز أصرخ أجن : ماما ماما لقد تعافيت .

وهكذا أخذت الغشاوة تنحسر عن عيني شيئاً فشيئاً ، ويوماً بعد يوم ، حتى لم يتبقَّ منها بعد شهر أي أثر يُذكَر . لكن هذا التعافي لم يعنِ في الوقت ذاته عدم تسبيب العلاج في إلحاق شيء من الأذى ، إذ يبدو أن كمية الكورتيزون التي أخذتُها فاقت الحدود الطبيعية ، فرققت القرنية إلى درجة أنذرت بثقبها ، ولما راجعنا الطبيب صرّح بضعف حيلته حيال ما رأى . لجأنا حينئذ إلى الطبيب نزار بُراق بإشارة من الطبيب الإسباني براكير الذي أرسل إليه والدي تقريراً حول وضعي بوساطة زميله منير الخيّر الذي كان يعمل ملحقاً ثقافياً في مدريد . وهنا وصف لي الطبيب نزار على الفور إبَراً تحوي على فيتامين B 12 ، وقد آلمتني هذه الإبر كثيراً ، وكانت تشعرني في كل مرة وكأن جمراً ملتهباً يدخل جسدي ، إلا أنني ما لبثتُ بعد أشهر أن قطفتُ ثمار احتمالي ، إذ أنبأَنا الطبيب بزوال الخطر نهائياً .

أصرَّ طبيب الأطفال كمال راعي على رأيه حول عينَي رفيف ، فأسرع والدي إلى الاستفادة من تعرفنا إلى طبيب العيون الجديد ، فكان أن استغربَ هذا الطبيب من عدم اهتداء طبيب العيون " نشأت " إلى ما هو واضح تماماً ، إلى ضعف شبكيتها هي الأخرى، ووجوب البدء معها على طريقي ذاته . وهنا لا أخفي أنني بغضتُ الطبيب نزاراً بغضاً شديداً ، وكأنه هو الذي سبَّبَ لرفيف

ذلك ، لكنني لم أصل إلى حد التمني بأن يُقتَل هو وأسرته في حرب ١٩٧٣، بفعل قذيفة سقطت على منزله .

- ٩ -

استمرت أمي في تدريبي على الغناء أغنية تلو أغنية ، للمطربتين فيروز و عفاف راضي تحديداً ، ربما لإيجادها تشابهاً ملحوظاً بين صوتي وصوتيهما . ولحُسن الحظ كنت أحظى بأربعة أخوال ، يتقن كلٌّ منهم العزف على آلة موسيقية : أحمد وخالد على الآكورديون ، فهد على العود ، عهد على الغيتار ، ذلك بطريقة سمعية ، أو بالأحرى مدهشة لعدم حاجتهم في أثناء سيرهم نحو ذلك الإتقان إلى أي أحد يدربهم أو يلقنهم شيئاً من مبادئ العزف . ونتيجة اجتماع تلك المواهب الخمس ، كان يوم الجمعة الذي كنا نقضيه في بيت جدي لأمي الكبير الحميم يتحوّل إلى مكان لاحتفال مصغر ، يوزع البهجة بين نفوس الأهل والأقارب ، ذلك حين كان صوتي يأخذ في الانطلاق بالأغنيات الجميلة ، والتجاوب مع آلات أخوالي ، هؤلاء الذين وجدوا ضرورة في تدريبي بغية الانضمام إلى الحفلات التي كانوا يشتركون في إقامتها أحياناً في المركز الثقافي باللاذقية . وهنا أصبح فرحي مزدوجاً ، فرحي بتمكُّن صوتي من مرافقته العزف ، بعدما وجدتُ في البداية شيئاً من الصعوبة ، وفرحي بذلك الحلم الذي تسلل إلى نفسي شيئاً فشيئاً حتى غمرني تماماً ، وأخذ يرتقي بي خيالياً إلى ذلك المسرح بثوبي الجميل الذي تمنيته أن يكون بلون

أبيض ، وبصوتي الذي سيصبح أكثر اتساعاً وجمالاً أمام مكبّر الصوت بحسب ما كانت تقول لي أمي .

وحقاً لم تمضِ سوى فترة قصيرة بعد شعوري بالاستعداد لهذا الأمر ، حتى أخبرني أخوالي بعزم اتحاد الشبيبة على إقامته في المركز الثقافي احتفالاً لمدة ثلاثة أيام ، بمناسبة تدشين سد الفرات ، ذلك ما بين الخامس والعشرين والسابع والعشرين من تموز ١٩٧٣. ربما كان غريباً ألا أشعر بشيء من الارتباك في ذلك الاشتراك الذي شكل بالنسبة إليَّ تجربة أولى ، لكن يبدو أن هذه الأولية ذاتها هي التي سببت في ابتعادي عن ذلك الشعور ، نظراً لما كانت تفترض سنُّ الثلاثة عشر عاماً التي كنت فيها من التوسط ما بين الاندفاع الطفولي والاندفاع الشبابي ، نحو ذلك العالم المضيء الذي سيسهم في انتشار صوتي وذيوع اسمي بين الناس .

وخلال الأيام التي كانت تفصلني عن ذلك الاحتفال ، انضاف إلى جهود أمي السابقة في تحفيظي الأغنيات وإلى جهود أخوالي المستمرة في تدريبي على مرافقة عزفهم ، جهود المطرب سمير سمرا ، الذي كان صديقاً مقرباً لأخوالي ، في تدريبي على ما يسمى في الغناء بالعُرْبة ، تلك التي يُقصد بها الخروج عن الأسلوب الحرفي للمطرب الأصل في تأديته أغنيته ، وإضافة ما يمكن إضافته بصورة ذاتية من الأنغام التي قد تسهم في إضفاء المزيد من الفن والجمال عليها . كما كان لسمير الدور في تدريبي على ما ينبغي القيام به من الحركات التعبيرية الملائمة حين أغني ، بدلاً من وقوفي جامدة كالصنم بحسب تعبيره ، وإلا اضطر إلى تنفيذ تهديداته

التي لم تُخفني بفعل أسلوبه الذي كان يبدو في غاية التودد ، هذا وإن كان عليَّ أن أستجيب لتعليماته كلها نظراً لتقدُّمه عليَّ في السنّ بسبع سنوات ، وما استتبع هذا من تقدُّم تجربته الغنائية التي تجاوزت مع أخوالي مرحلتي الأولى تلك ، ومع ذلك لم أكن أتردد في محاججته أحياناً ، بأن عفاف راضي تغني كذلك ، و فيروز تقف أمام جمهورها كذلك ، ذلك لأجعله يصطنع الغضب ، وأحمله على التصريح بأنه ينبغي أن تكون لي شخصيتي المستقلة التي لن تغدو مستقبلاً أقل منهما .

صوتها رهيب ... هكذا صرح أحد القائمين على الاحتفال بعدما أنصت إليّ في تدريبي الأول . كما أنني خلال تواجدي في المركز الثقافي بغية قيامي بالتدريبات التالية ، لم أسترح من تردُّد الكثيرين عليَّ ، من المشاركين وأهليهم والقائمين الآخرين ، ذلك لكي يتحدثوا إليَّ ، ويكثروا من تساؤلاتهم حول عناصر سيرتي الذاتية : اسمي وعمري ودراستي ، فأصبحتُ وكأنني واحدة من النجمات المشهورات، بل إن إحدى المشاركات في التمثيل ، وتدعى وديعة جبّور تحولَتْ إلى مُجالِسة دائمة لي خلال تلك الفترة . لكن هذا كله لا يقاس بتلك اللحظات التي سبقتْ الفقرة التي كنت سأؤدّيها خلال الاحتفال ، إذ قدَّمَني السيد خالد طويل على أنني مفاجأة الحفلة ، وعلى أنني حتماً سأكون كذلك ، هذا وإن كنتُ قد شعرتُ بشيء من التذمر للاكتفاء في بطاقات الدعوة بعنونة فقرتي بهذه العبارة دون ذكر اسمي ، وكأن سذاجتي الطفولية جعلتني أعتقد وجوب تحديد هذه المفاجأة ، أو تقدُّم اسمي في الأهمية عليها .

بل إن كل ما لاقيتُ لا يقاس بتلك اللحظات التي أدّيتُ فيها الأغنيات الثلاث في الاحتفال ، وهي على التوالي : هوى يا هوى لعفاف راضي ، حبيتك بالصيف و حنا السكران لفيروز ، إذ راح صوتي يصدح وفق ذينك الاتساع والجمال اللذين تصوَّرَتْهما أمي أمام مكبّر الصوت ، فملأ الصالة وخرج إلى الشارع والمارة ، ذلك أمام أخوالي والكورس ، وبين المصابيح المضاءة ، ومواجهةً مع كاميرا التلفزيون ، والجمهور المحتشد الذي أغرقني خلال غنائي وبعده بتصفيقه الحار الطويل وصفيره وزغاريده ، الأمر الذي جعلني حينذاك أمرُّ بحالة لم يُتَح لي مساءلة أخوالي أو أهلي عن اسمها ، ما دمت لم أتمكن من وصفها ، إذ لم أكن قد وصلت بعد إلى تلك الدرجة العلمية التي عرّفَتني بحالة الخروج عن الذات . لقد شعرتُ حينذاك بأن جزءاً من وعيي قد فُقِد ، وبأن صوتي لم يصدر عني ، وبأنني أحلق بين نفوس المتلقين التي تحولت في اتساعها وثرائها إلى بحر تلونت فيه دائرة الكون . لقد كان كل ما سبق ذكره أكثر وقعاً في نفسي من ذلك النبأ الذي أوصله إليَّ أخوالي في اليوم التالي، ذلك باستعداد اتحاد الشبيبة لإرسالي إلى أي بلد غربي بغية العلاج ، بل إن هذا النبأ بدا كثير البساطة أمام نفسي التي تجاوزت عاهتي إلى درجة الهزء منها ، أو أمام استعصاء هذه العاهة على الأطباء الغربيين الذين وعَدَنا بعضهم بإبلاغنا فيما إذا توصّلوا إلى أي أمر جديد .

لم يكن اليوم الثاني والثالث من الاحتفال أقلَّ من اليوم الأول ، ذلك من حيث إتقان أدائي الأغنيات ، واستقبال الجمهور الحار لي،

وما سبق هذين الأمرين من تقديم الأستاذ خالد طويل لفقرتي ، وإن ما عدتُ أستوعب شيئاً منه بسبب أسلوبه الشعري . لكن حدث في ذينك اليومين ، وبينما كنت أدخل بباب المركز الثقافي ، أن تدفّقَ عليَّ سيلٌ من الجمهور ، فأخذ خالي عهد الذي كان يرافقني يكرر مطالبته وفق ابتسامه وهدوئه ، بأن يفسحوا لنا طريقاً ، وأخذ أحد القائمين على الاحتفال يدفعهم غاضباً بيديه فرداً تلو فرد . وعلى الرغم مما يعني هذا بالنسبة إليّ الآن من كثرة إعجاب ذلك الجمهور بصوتي ، فإنه لم يسرَّني مطلقاً حينذاك ، لبعثه في نفسي كثيراً من الرعب ، ثم لظني حين ردّ خالي على استفساري بعبارة : " يريدون أن يروكِ " ، أنهم يريدون أن يروا عينَيّ ، لا شخصي الذي تصدر عنه تلك الموهبة ، الأمر الذي قادني إلى الاندهاش سرّاً من تصريح خالي الذي فهمتُه بصورة خاطئة .

- ١٠ -

كان عليَّ بعد انتهائي من المرحلة الابتدائية ، أن أنتقل بحسب رأي والدي إلى مدرسة أخرى إعدادية وثانوية ، هي ثانوية البنات ، بسبب قربها من بيتنا ، وارتقاء مستواها الإداري والتعليمي تحت إشراف السيدة صبيحة شيخ إبراهيم ، فكان هذا حَريّاً بأن يعيد إليَّ خلال تلك العطلة الصيفية حالة القلق الشديد التي كانت تنتابني قبل دخولي المدرسة للمرة الأولى ، إذ لم أكلّ عن مساءلة نفسي حول كيفية بنائي بعض الأمور المهمة التي تيسَّرَتْ عليَّ بعد عناء في

مدرستي السابقة . لقد أخذتُ أتساءل حول الصديقات الجدد اللائي سيكُنَّ لي ، متأسّفةً على زينة وسحر وندى ، حول المعلمات اللائي تشكلت لديهن أُلفة لوضعي ، حول التي سيتسع صدرها لمرافقتي ذهاباً وإياباً ، من البيت إلى المدرسة ، ومن المدرسة إلى البيت ، ما دام قد كان على أختي رندة أن تبقى سنة أخرى في المدرسة الابتدائية ، وحول التي ستصبر ممن يمكن أن تجاورني في مقعدي على الإملاء عليَّ عن السبورة كلمة كلمة ، وحول تفاصيل أخرى آخذة في التفرع نحو الأصغر فالأصغر . بل إن هذا القلق امتد يوماً إلى نومي ، فلم أدرِ حين رأيتُ في حلمي مدرستي الجديدة ، كيف توصّلتُ إلى شَعر أختي رندة ، لآخذ في شدِّه بكل ما امتلكتُ من قوة ، ولأستمر في ذلك إلى أن أيقظَتْني بدهشتها وألمها .

ربما نفعَتْني قليلاً مرافقة ابنة عمتي السيدة سُعاد قبّاني ، في اليوم الأول من ذلك العام الدراسي ١٩٧٣ – ١٩٧٤ ، إذ عرّفَتْني بحكم كونها مُدرِّسةً سابقة في تلك المدرسة ، إلى السيدة المديرة والسيدة أمينة السر وبعض اللائي كُنَّ سيُدَرِّسنَني . لكن هذا كله لم يمنحني شيئاً من الاطمئنان ، ما دمت لم أكن قد ظفرتُ بعدُ بمن هي الأهم بالنسبة إليّ ، بالصديقة التي ينبغي أن تكون لي ، وتعوض عن أولئك الصديقات اللائي لم أنسَ فضلهن ، لا لشيء إلا لكبره بالنسبة إلى سنِّهن الصغيرة . هذا مع العلم أن طالبتين لم تتأخرا في ذلك اليوم الأول عن التقرب إليَّ ، ووعْدهما بأن تكونا إلى جانبي ، لكنهما ما إن كادتا تمنحاني شيئاً من الراحة ، حتى أفقدتاني بعد ساعات تماسكي ، وأظهرتا شيئاً من الدموع الخجولة في عينيّ ،

ذلك لدى انسحاب إحداهما ، وحملها صديقتها على اتخاذ سلوكها ذاته ، بصورة مفاجئة نامّة على إحساس بثقل هذه المهمة عليهما .

لكن حزني وقلقي لم يستمرا سوى يومين ، إذ ما لبثتُ أن التقيتُ وديعة جبّور التي لازمتني خلال فترة الاحتفال الغنائي ، وما سبقها من أيام التدريب ، وما لبثتُ أن علمتُ أنها ستكون في صفي ذاته ، وفي شعبتي ذاتها ، وأوحت إليَّ بإنسانيّتها التي سرعان ما تبيَّن لي عدم قلَّتها عمّا لدى زينة وسحر وندى ، وبما وعدتني به كذباً طالبتا أول أمس . بل انضافت إلى وديعة ، وفاء مشحَّر ، التي كانت أختاً لحلاقة نسائية مجاورة لبيتنا ، وكذلك فتاة ثالثة ، وإن لم تسترح لها أمي ، نظراً لما وصلها حول سوء سمعتها وسوء سمعة أمها ، لكنني لم آبه بصدد هذه الصديقة بنصائح أحد ، لعدم إدراكي ماذا يعني سوء السمعة ، ولإيجادي لديها من الطيبة ورهافة الإحساس ، ما لم أجد لدى طالبتَي أول أمس ، صاحبتَي السمعة الحسنة .

أما مُدرِّساتي ، فقد كان لهنَّ بفعل شمائلهنَّ الخلقية الرفيعة وقدرهنَّ العلمي ، أن يذللنَ الشطر الآخر والأصغر من همّي الصيفي ، همّي الذي تحوَّلَ إلى كابوس رافق يقظتي ونومي . فقد كُنَّ يُكثِرنَ من التودُّد إليَّ ، ويُظهِرنَ ما أمكن من الثناءات عليَّ وعلى تجربتي ، ولم يترددن أحياناً في المقارنة الصريحة بيني وبين قريناتي اللائي ينقصهن الاجتهاد ، بغية الاقتداء بي . وربما كان من حق أولئك المُدرِّسات جميعاً أن أشملهن بالذكر ، لما صدر عنهن من دون استثناء من ذلك التعامل الإنساني الراقي ، ولِما تجلى لديهن من المبالغة في الاهتمام بي . فهناك السيدة بسيمة

الخيّر مُدرّسة اللغة العربية ، والسيدة ماري مطر مُدرّسة اللغة الفرنسية ، والسيدة ثريا إبراهيم مُدرّسة الفنون ، والسيدة وداد أسمر مُدرّسة الرياضيات ، والسيدة لمياء يونس مُدرّسة الموسيقا ، والسيدة يمن أسعد مُدرّسة الاجتماعيّات ، والسيدة لمياء حلبي مُدرّسة التربية القوميّة ، والسيدة رفيقة كبّاس التي كانت مُوجِّهة لنا في ذلك العام . الأمر الذي حملَني في تلك السنِّ المبكرة على الاعتقاد بثراء الحياة ، وعدم اقتصار الأخيار فيها على زمن معين أو مكان معين ، والتناقض أحياناً ما بين التوهّم والحقيقة ، توهّم حدوث المشكلة قبل وقوعها ، واكتشاف حقيقة انتفائها حين يأتي وقتها . لكن مقابل ذلك، ربما كان لي الدور شخصياً في مساعدة مُدرِّساتي على اتخاذ تلك المواقف الإيجابية حيالي ، لِما وضّحتُ لهن من تفوقي ، ولِما حظيتُ في مادة كل منهن من الدرجات العليا . لذا استثنتني السيدة ماري مطر ذات يوم من عقوبة شملت بها زميلاتي جميعاً ، وهي حذف خمس درجات من القدر المخصص لأعمال الطالب ، إذ ربما لم تشأ أن تخدش الدرجات التامة التي كنت أحصل عليها دائماً في مادتها بسبب ضوضاء لم أشارك في صنعها . كما لم تتراجع السيدة بسيمة الخيّر عن إهدائي يوماً خمس عشرة درجة ، أو بالأحرى الدرجات التامة المخصّصة لمادة النصوص ، لتمكّني دون سواي من إعراب اسم اتصلَتْ به ياء الإضافة ، فلم تتحرّج نتيجة ذلك إحدى الطالبات من الإجهاش بالبكاء ، على الرغم من أنه كان من الممكن لهذه الجائزة أن تصيبها هي ، أو تصيب سواها فيما لو عرفن الإجابة بناء على ما وعدتهن به المُدرّسة قبلاً .

ونتيجة اجتماع المُدرّسات الطيبات مع الصديقات الطيبات الرائعات ، كان لا ينبغي أن أفرح بحدوث حرب تشرين التي غيبتنا عن المدرسة كما فرحتُ بحرب حزيران ، الأمر الذي جعل هاتين الحربين تتناقضان في نتائجهما ، مع مراحل تجربتي الحياتية ومصالحي الشخصية . لكن أمراً واحداً كان يزعجني من صديقاتي ، وهو عدم اجتهادهن ، وما كان يعني هذا من تهدّدهن بالرسوب ، وتهدّد مصيري بانفراط حلقتنا التي سيتعذر عليَّ تكوين ما يماثلها في العام القادم ، أو العثور على من تماثل وديعة التي لم أجدها تقلُّ عن أمي حناناً . وحقاً ، رسبت وفاء ، ورسبت وديعة التي لم تخبرني عن ذلك إلا من خلال عَدْوها نحوي ، وانكبابها عليَّ منتحبةً، متحوّلةً عن دورها الأمومي إلى طفلة ضعيفة الحيلة ، معبِّرةً عن ذعرها الشديد من رسوبها الأول في حياتها الدراسية ، وعن تأسفها على صداقتنا التي لن يتاح لها الاجتماع ثانيةً على ذلك المقعد الواحد ، ذلك إذا ما أتيح لها الاستمرار من خلال تبادل الزيارات والقيام بالنزهات ، وتشجيعي على الاشتراك في الحفلات الغنائية ، وحفظي المزيد من الأغنيات . أما الفتاة الثالثة التي أصبحتُ حينذاك متوجّسة منها ، لكثرة ما وردني حول أنبائها السلوكية ، فإنها على الرغم من نجاحها ، صرحَتْ لي بعزمها على ترك الدراسة ، لكنني لم أكن أدري أن ذلك سيتم من أجل هربها مع فتاها ، وظفرها بالزواج منه قبل أن يفلت من يديها .

- ١١ -

عاد إليَّ ثانيةً هَمُّ العطلة الصيفية السابقة ، هَمُّ بناء صداقات جديدة ، بعدما فقدتُ أولئك المقرّبات ، ولم تبقَ في شعبتي واحدة صالحة لكي أركن إليها ، ذلك إما بفعل ما أشرتُ إليه من ثقل هذه المهمة عليهن ، وإما بفعل ما يمكن أن تكون قد تركَتْ معاملة المُدرّسات الإيجابية لي من مشاعر سلبية في نفوسهن تجاهي . وعلى الرغم من ذلك لا شك في أن مشكلة هذا العام بدت أقلَّ حجماً من مشكلة العام السابق ، الذي كنتُ سأدخل فيه جواً جديداً عليّ كل الجدة ، إذ أصبحتُ أعرف بعض المُدرّسات اللائي يمكن أن يدرِّسنَني ثانيةً ، وأعرف المَدرسة بكليتها ، بباحتها وحجراتها وأروقتها، وصار على أختي رندة التي ترفعَتْ إلى الأول الإعدادي ، أن تلتحق في هذا العام بهذه المدرسة لتَحلَّ لي مشكلةَ مرافقتي في الذهاب والإياب . لكن هذا كله لا يساوي سوى ما هو ضئيل أمام القضية التي لا تنفك تشغلني ، قضية الصداقة التي تمتلك دائماً دورها في تبديد وحدتي ، وتذليل الكثير من الصعوبات التي يمكن أن تعترضني .

لقد عدتُ أتساءل من جديد ، عن التي يمكنها برحابة صدر أن تملي عليَّ من السبورة كلمة كلمة ، أو أن تقرأ لي ما يُكتَب عليها ، أو أن تشرح ما يُرسَم . وإذا ما أسرعَتْ هذه التساؤلات في العام الماضي في تكشُّفِها عن وهميتها ، وعدم حاجتها إلى ذلك القلق ،

بفعل ما قُدِّمَ لها من حلول ، فإنها ما لبثَتْ في عام الثاني الإعدادي المذكور ، أن تكشَّفَتْ عن واقعيتها وصدقها وحاجتها إلى الطرح منذ يومي الدراسي الأول ، ذلك حين بدا لي على الفور جفاء الطالبة ل التي جاورتني على مقعدي ، وانقطاعها شبه النهائي عن محادثتي ، على الرغم من وجود تعارف فيما بيننا منذ أن كنا في ثانوية الكرمل. وأنا التي ما اعتدتُ الشكوى إلا إلى هذه الأوراق ، لم أستطع التعبير عن حزني على اللائي فقدتُ ، إلا من خلال رفضي النزول إلى باحة المدرسة في أثناء الاستراحة ، والإصرار على ملازمة الصف وحيدةً ، على الرغم من إلحاح رندة ووديعة ووفاء ، ذلك خشيةً على نفسي من تذكُّر العام السابق ، وتحوُّل سعادتي فيه إلى مثار للألم ، بفعل المقارنات التي سأدخلها بصورة تلقائية . أما داخل البيت الذي لم أسمح فيه لنفسي بأن أحمِّل أحد أفراده المزيد من همومي ، فقد عبّرتُ ذات يوم عن مشاعري التي حملتُها من المدرسة ، بلجوئي إلى الحمّام ، والسماح لبعض دموعي التي أدهشَتني سخونتها ، بأن تسيل بارتياح من عينيّ ، فكان لها أن واكبت ما وصلني من نشيج أمي ، الذي أعقبَ علمَها بسفر خالي فهد بحراً من أجل العمل على إحدى السفن .

بإمكانكِ أن تنتقلي إلى مقعد آخر إذا ما كان وجودك بجانبي يضايقكِ . هكذا توجّهتُ إلى ل بلهجة لا تخلو من الرقة ، فصدر عن شفتيها ذلك الصوت الذي يشير إلى النفي ، ثم عقَّبَتْ بعبارة ضمَّنَتْها استنكار ما ألاحظ لديها : ولماذا أضيق بكِ ؟ إلا أن الجفاء ذاته الذي صاحَبَ إجابتها ، كان جديراً بأن يدلني على

النقيض، على ثبات ما ألاحظه لديها ، وتشابهه مع ما كان لدى الطالبتين اللتين التقيتهما في يومي الدراسي الأول في هذه المدرسة ، وإن تَوضَّحَ التباين بين أسلوبها المبطن في التعبير عما في داخلها وأسلوبهما الواضح المباشر .

وإذا ما انتقلَتْ ل هذه من شعبتي كلها بعد أيام ، بناءً على توجيه إداري يقضي بإعادة توزيع الطالبات بين الشُّعَب ، فإن بصيص الأمل الذي توقَّد في نفسي نتيجة التبدُّل الذي حدث ، سرعان ما انطفأ ، ذلك لأن" أ " و " س " اللتين حلّتا محلّها لم تكونا أفضل منها ، ولا سيما أ التي حثَّتْ س على اتباع سلوكها العنيف ذاته معي، بعدما كانت تُظهر لي غير قليل من التودّد . وبذلك لم يتبقَّ لي في هذا العام ، إلا أن أرضخ لواقعي الذي قُدِّر عليّ . لكن تجربتي الحياتية التي أكسبَتني شيئاً من الصلابة ، علمَتني ألا يكون هذا الرضوخ إلا بصورة إيجابية ، لذا بدأتُ أتحدث إلى نفسي مُقنِعَةً إياها بأنني لم آتِ إلى هنا إلا لغاية العلم ، وأخذتُ أكرر عليها إحصائي لما تبقّى من السنوات القليلة التي سأقضيها في المدرسة ، وأحثّها على الانطلاق للوصول إلى ما أتت من أجله .

لكن إثبات تفوقي في كل مناسبة ، وحصولي على الدرجة الثانية في الفصل الأول ، وما عنى هذا من تهدّد مصير أ التي كانت تحظى دائماً بالدرجة الأولى ، زاد من قسوتها عليَّ ، ومناكفتها لي ، وعدم كفِّها يوماً عن إزعاجي ومضايقتي ، وحَمْل صديقتها س على مشاركتها فيما تفعل ، وإن تراجعتْ هذه الأخيرة فيما بعد قليلاً ، بناءً

على ما تأصَّلَ لديها من طِيبة ، أو على ما نقلَتْ إليّ هي نفسها من توصيات السيدة ماري مطر بي .

وهكذا أكون قد دخلتُ عام حزن آخر ، عام سجن إفرادي آخر ، يمكن أن ينضاف إلى عام الدراسة التمهيدية وعام الأول الابتدائي في ثانوية الكرمل . هذا وإن اختلف الجديد من حيث ما أصبح لديَّ من قدرة على التحصيل العلمي ، وعلى التميُّز عن الكثيرات من زميلاتي ، وكذلك من حيث ما كان يُؤنِسُني فيه من طرافة مفرطة لزميلة في شعبتنا تدعى آمال سليمان ، قد شغلت المدرسة بأكملها ، طالبات ومُدرّسات ومُوجّهات ومديرة ، إذ لم يكن همّها سوى صنع الشغب في ساعات الدراسة وخارجها ، وإضحاك مَن حولها ، دون أن تأبه في ذلك بالفارق ما بين مُدرّسة مفرطة في جديّتها وأخرى متسعة الصدر .

لقد وجدَتْ أن من واجبها كلما تناهى إلى حجرة الصف صوت المؤذِّن ، أن تطلق شهادتها بوحدانية الله ورسالة محمد ، ذلك بهمسها المسموع جداً ، والمشفوع – من ثم – بما توالى من حروف الشين التي ستُطيل ما تقوم به ، وتزيد من ضعف حيلة المُدرّسة أمام من تحاول التقرُّب إلى الله . كما وجدت أن من واجبها أن تلوّن شرح المُدرّسة بين الفينة والفينة ، بتعليق أو تصرّف ساخر قد يكسر من هيبة الحصة الدراسية ، أو يزيد وفق تصوّرها في التوضيح ، أو يذكّر بوجودها الذي لا ينبغي الانصراف عنه إلى العلم . وكلما انتهت مُدرّسة الاجتماعيات من إعطائنا واحدة من المعلومات ، سرعان ما أيّدتها بعبارة منتزعة من أغنية مصرية " إيوا آه " ، وإذا

ما ذكرت مُدرّسة العلوم على سبيل المثال كلمة حرقص ، سرعان ما انتفضَتْ لتعقّب حرقص مرقص ، وإذا ما لاحظَتْ وجود خلل في حذائها ، سرعان ما رفعَتْه إلى منضدتها لتقتحم وقار الدرس وهدوءه بطَرَقات إصلاحها ، وإذا لم تجد المُدرّسة أحياناً بداً من طردها إلى الخارج ، وجدت أن اللياقة تقتضي منها أن تودِّعها بلهجة مغناجة من صوتها الأجشّ بكلمة تشاو .

أما في ساعات الفراغ ، فقد كانت ترى أن عليها أن ترفّه عن نفسها ونفوسنا بوقوفها أمامنا على المنبر ، وحَمْل أ على أن تضبط لها الإيقاع من أجل أن تؤدي رقصها بصورة أفضل . لكن مقابل ذلك كان على زميلاتها جميعهن أن يصفّقنَ لها ويثنين على فنِّها ، وإلا أطلقت عليهن وابلاً من التأنيبات والتهديدات ، والتفتت بعد ذلك إلى ضابطة الإيقاع سائلةً إياها ، بتلك اللهجة المغناجة أن تستأنف إيقاعها ، بتلك العبارة المشهورة التي تستخدمها الراقصات المصريات " دقي يا مزيكا " .

وفي ذات لحظة من ساعات الفراغ ، عبرت طائرة فوق مدرستنا ، فأما الطالبات، فسرعان ما هرعن إلى رؤيتها من خلال النوافذ ، وأما آمال ، فسرعان ما صعدت المنبر ، وأخذت تنادي زميلاتها بعبارة أيها المواطنون وفق لهجة ما لبثت أن اصطنعت رصانة زعيم سياسي . وحين ظللن منشغلات عنها ، ولم تجدِ نداءاتها التي تكررَتْ ، ما لبثَتْ أن نبهَتْهن إليها باصطناعها الغضب الجامح ، وشتمهنَّ جميعاً باستثنائي أنا التي ظللتُ متسمّرةً على مقعدي ، مترقّبةً بتلهفٍ ، الخطبة التي ستُلحِقها بعبارتها الأولى . أما حين

تصبح خارج الصف ، فقد كانت لا تكفّ عن إطلاق بسملاتها على من تصادف من المُدرّسات ، سائلةً الله أن يجعل أعمارهن أطول من عمرها . بل إنها لم تتورع ذات يوم خُصِّص لتكريم المتفوقات ، عن أن تقوم بحمل مديرة المدرسة من أجل مساعدتها على صعود منبر الباحة ، الذي ستوزِّع من عليه الجوائز ، كما لم تتورع عن تكرار مساءلتها المديرة بعد ذكر اسم كل طالبة ، عن الحين الذي سيُذكر فيه اسمها ، وتحصل فيه على جائزتها ؟ فترد عليها المديرة ذات الهيبة العالية ورحابة الصدر الكبيرة بعبارة مزجت ما بين الابتسام والتودد من جهة والاحتجاج على سلوكها الخاص واجتهادها المعدوم من جهة أخرى . علماً أنها استطاعت فيما بعد أن تقود إحدى المسؤولات الإداريات إلى الثناء عليها من على المنبر ذاته ، وأن تقود جميع من في المدرسة إلى التصفيق الحار لها ، ذلك حين اختلسَتْ من طالبة محفظة نقود ، وأسرعت إلى إدارة المدرسة لتدَّعي العثور عليها في الباحة ، ولتهدد مُقسِمةً برأس محمد وكل واحد من الأنبياء بعدم تسليم هذه المحفظة لصاحبتها التي سيتم العثور عليها حتماً ، إذا ما تم الاستنكاف عن إذاعة مأثرتها ، وتعظيم أمانتها أمام الملأ .

أما بالنسبة إلى موقفها مني ، فقد كنتُ مشمولة أيضاً بما كانت تخص به المُدرّسات من بسملاتها ودعاءاتها . ولم تكفّ ذات حصة دراسية جلسَتْ فيها بجانبي ، بناءً على طلب من إحدى المُدرّسات ، من التوجّه إليَّ بين لحظة وأخرى ، بعبارات الحب الفصيحة ، وبثناءاتها التي تشبه ما يصدر عن العجائز ، الأمر الذي جعلني

أتوثق من عدم صلاحها لِما صلحت له وديعة ووفاء ، ومما سيكون لها من دور إذا ما جاورتني طوال العام في انشغالي عن هدفي الذي كنتُ قد حددتُه منذ بدايته . لذا اكتفيتُ بالتمتع بخفة ظلها من بعيد ، أو من قريب في أوقات الفراغ ، أو من خلال تكرار زياراتها المنزلية لي ، وإطلاقها عبارات الإعجاب بوجه أبي الجميل .

وتستمر" أ " في مناكفتي ، وافتعال المشكلات اليومية التي كانت تزيد من تضخيم العداء فيما بيننا ، وتوسيع الهوَّة في علاقتنا ، حتى وصلَتْ في الشهر الأخير من العام إلى ما أرادت ، إلى الانتقال من جواري مصطحبةً معها " س " ، ومرسلةً عوضاً عنها زميلتها " د " التي كانت تفوقها شراً وقسوةً ، إذ امتنعت هذه نهائياً عن تقديم أي مساعدة لي ، ذلك بصراحة خالصة تخلو من أي حياء وتحرّج ، إضافةً إلى ادعاءاتها المتكررة حول ذكائها الخارق وفذلكاتها غير المحتملة . فما كان من زميلة تعرفتُ إليها مؤخراً هي أسمهان أحمد، إلا أن اقتحمت صلابة د ورعونتها ، لتشاركنا مقعدنا ، وتعوضني عما افتقدتُ خلال العام من معاملة إنسانية ، دون أن تأبه في ذلك بتذمر تلك القاسية من وجودها ، إذ كانت كلما تلقَّت منها ذلك الأمر المتكرر بأن تقوم وتعود إلى مكانها الأول ، ردّت عليها أسمهان بتلك العبارة التي كانت لا تلبث أن تعيد إليَّ اطمئناني ، وتشعرني باستحالة استجابتها لها ، وهي " لتقم قيامتكِ إن شاء الله " . لكن تأثر هذه الزميلة الطيبة لي ، لم يضعِف من همتي في تحقيق المزيد من التفوق ، فلعلي أقتنص في نهاية هذا الفصل الثاني الدرجة الأولى

من أ غير البعيدة عن درجتي في الفصل الأول ، وأحظى بثأر لي من الله .

قبل أيام قليلة من توزيع الصحف المدرسية ، التي ستعلن النتائج النهائية للعام الدراسي ، التقيتُ وزميلة لي في نزهةٍ السيدة ماري صابور ، أمينة سر المدرسة . لم أكن أتوقع حين هرعنا لإلقاء التحية عليها ، أنها ستلقي لي بذلك النبأ ، نبأ ارتقائي إلى الدرجة الأولى ، أو بالأحرى إلى تلك التي كادت تُفقِدني صوابي ، وتوصِلني في الابتهاج إلى حدّ عدم التصديق ، والتشبث بالسيدة ماري التي كانت على درجة كبيرة من الطيبة ، لكي تؤكد لي ما تقول ، فوعدَتْني بأن تتصل هاتفياً بي ، لدى عودتها إلى البيت الذي كانت تقيم فيه صُحُف نتائجنا .

لم أحاول بعد عودتي من النزهة أن أبوح بسريَّة ما أفرَحَني لأحد أفراد أسرتي ، إذ فضَّلتُ التريّث بشأنه ، ريثما أتثبّت من حقيقته ، لذا مكثتُ في مكاني أنتظر وأترقّب مع غير قليل من التوتُّر ، وأتهيّأ شيئاً فشيئاً للآثار التي سيرتِّبها عليَّ النبأ الآخذ في الدنوّ ، سواء أكان صحيحاً أم خاطئاً . وهكذا إلى أن صَدَقَتْني السيدة ماري في اتصالها ، ووثَّقَتْ لي ما أدلَت به في النزهة ، من خلال قراءته عليَّ مباشرةً من صحيفتي ، فما كان مني إلا أن أخذتُ أنقلب على الأرض من رأسي إلى قدمَيّ بين أهلي والأقارب والجيران ، مُصحِبةً ذلك بصخب أيقظَ جدّي لأبي الذي كان يقيم في بيتنا ، متخيّلةً ما سيحلّ ب أ التي ستشلُّها العطلة الصيفية عن الانتقام ، شاكرةً الله

والحياة التي مهما طالت غيومها ، لا بد أن تسكب يوماً أزهارها التي جاءت مواكبة لذلك المساء الربيعي الجميل .

هرعت س في يوم إعلان النتائج إلى التسليم الحارّ عليّ ، فاضطرت أ بعد مقاطعة ليست بقصيرة إلى مجاراة صديقتها ، ولا سيما بعدما تلقَّت منها إشارة بضرورة فعل ذلك . لكن لا شك في أن ندماً كبيراً قد اعتراها حين كافأتُ صلحها بما أنبأتني به السيدة ماري، وإن لم يكن ذلك قد شكّل مني سوى إجابة عن تساؤلها حول ما إذا كنتُ قد علمتُ من أمر بصدد نتائجنا . لم يعد المجال مفتوحاً إذن إلا لتباعدنا من جديد ، وانكفائها وحيدةً ضمن زاوية منعزلة ، ذلك لكي تأخذ في الانتحاب ولطم نفسها ، وتمزيق صحيفتها ، وإطلاق عباراتها المدَّعية دور الوساطات فيما حصلتُ عليه ، وطردها بصورة هستيرية من أمامها زميلتنا آمال سليمان ، التي على الرغم من رسوبها لم تتأخر عن الذهاب إليها لتحيطني بصلوات النبي ، وتمنّي الأذى لحاسدِيَّ : " حندق بندق عين إلّي شافتا لريم وما صَلّت على النبي تطقّ وتنبُق " . أما أنا ، فلم أمزق في ذلك اليوم سوى تلك الأيام التي صبغَتْها لي أ بالبرد والعتم بمساعدةِ مَن ساعدَها من س و د وقبلهن جميعاً ل ، فلعلي ألقيها في مجامر الزمان ، ولا سيما أنها لن تعود إليَّ في العام القادم ، الذي ستكون لي فيه أسمهان ، وزميلتنا ديانا درويش ، التي كنت قد تعرّفتُ مؤخراً إلى عقلها وقلبها الرحيبين .

وبحصولي على تلك الدرجة ، لا شك في أنني حققتُ أيضاً ذلك الحلم الطفولي الذي بدأ يراودني منذ الثالث الابتدائي ، ذلك بأن أكون الأولى على شعبتي ولو مرة واحدة فحسب .

مُعافاةً في ذلك اليوم ، خرجتُ من أَسْرِكنَّ زبانيةَ الأرض .. مُعافاةً فككتُ قيودي .. لأهبكن إلى الأبد قيود ذاكرتي وأوراقي .. ومثل شجرة خضراء لم يكسرها شتاؤها انفلتُّ من زنزانة مقعدي ، فعُدنَ على الفور إلى بيوتكن ، ولأعُد على الفور إلى بيتي ، فقد آن لي أن أستريح ، آن أن تصغرنَ بما آتيتنَّ ، وأن أكبر بألمي .

- ١٢ -

لم أنقطع خلال العامين الماضيين الأول والثاني الإعداديين عن الاشتراك في بعض الاحتفالات الغنائية ، التي اتخذت أيضاً صورة الاحتفال الأول ، حتى وصلتُ إلى مرحلة جعلتني أشعر بأنه قد آن الأوان لكي أتقدم إلى مسابقة إذاعية أو تلفزيونية لأصحاب المواهب، بغية تحقيق حلمي بتصنيفي مطربة ، ذلك إلى جانب متابعة دراستي، وحصولي على شهادةٍ جامعية . كان هذا الشعور قد انتابني قبل أسبوع واحد من إعلان الإذاعة عن واحدة من هذه المسابقات ، سُمِّيَتْ بمسرح المواهب ، وستدور على ما اختلف من المحافظات السورية .

حلَّقتُ بفرحي لدى تناهي ذلك النبأ إليّ ، ولا سيما أنه لن يضطرني للسفر إلى دمشق ، ثم لدى قبول اللجنة الفاحصة

باشتراكي مع قلَّةٍ منتقاةٍ من بين المتقدمين الكثيرين . أما بالنسبة إلى الدقائق التي قدَّمتُ فيها فقرتي ، ضمن السهرة الغنائية التي أقامها مسرح المواهب ، وهي أغنية " ردوا السلام " لعفاف راضي ، فقد تحوَّلت لديَّ ولدى من سمعوني إلى عيد حقيقي ، قد أسهمَ في تكوينه ، صوتي الذي ملأ ساحة الكازينو وما حولها ، وكذلك أدائي الذي توهَّجَ مع صوتي خلال تلك اللحظات بعد طول تدرُّبي ، ثم ذلك الجمهور الغفير الذي راح يطلق مع تصفيقه وصفيره بعد انتهائي تلك الآه الطويلة الحارّة ، والذي منحَني في النهاية الدرجة الأولى على محافظتَي اللاذقية وطرطوس ، إذ كان من حقه الاستفتاء على أوراق وُزِّعت عليه إلى جانب اللجنة الفاحصة . علماً أنه قبل قيام الجمهور بهذا الاستفتاء ، علّقَ السيد زياد مولوي الذي كان مقدّماً للسهرة مع السيد سهيل كنعان والسيدة ملك سكر قائلاً: على الرغم من أن النتيجة قد ظهرت سلفاً ، لكن نريد من كل منكم أن يوضح رأيه على ورقته الخاصة ، فيكتب نعم أو لا . بل إنه حدث في أثناء أدائي ، أن انضمَّ إلى الجمهور رجال الشرطة الذين كان عليهم أن يظلوا متسمرين حرساً على باب الكازينو ، أو الذين كانوا سيمنعونني من الدخول قبل بدء السهرة ، لولا تدخُّل السيد سعيد العبد الله أحد القائمين على الاحتفال ، ذلك لعدم حملي أنا المشتركة بطاقة دعوة . بل إن قائد الذين كانوا سيمنعونني ، لم يتأخر إلى ما بعد مساء الاحتفال الذي كان بتاريخ ١٧ تموز ١٩٧٥ ، عن أن يعرض على أخوالي ما سبق أن عرضَه اتحاد الشبيبة ، وهو إرسالي إلى أي بلد غربي بغية العلاج ، فتوثقتُ بناءً على ذلك كله ، وعلى

ما سبقه من تفوّقي على أ ، من عدم اتخاذ الحياة دائماً تلك الصورة القاتمة التي مررتُ بها خلال ذلك العام الدراسي ، إنما قيامها على التوازن الذي يمكن أن يجسّده توالي الليل والنهار ، الغروب والشروق، الصقيع والربيع.

" لا أدري ما إذا كنتُ أستطيع القول : إن صوت ريم أجمل من صوت مطربة مشهورة قد سمّاها ، لكن هذا لا يعني شيئاً على الإطلاق ، مقابل ما ينبغي أن تخطوه ريم على درب الفن الطويل ، وما ستقوم به من تدريبات مستمرة ، وحفظ أغنيات جديدة لمطربات ومطربين آخرين ، وإحاطة بعلم الغناء ، بغية صقل الموهبة الخام التي تمتلكها " . هذا ما قاله السيد جبرائيل سعادة ، أحد أعضاء لجنة الحكم في مسرح المواهب لوالدي بعد أيام قليلة من امتحاني الغنائي . ومنذ ذلك اليوم إلى حين ليس بقصير ، بدأ نفوري من هذا الإنسان ، نظراً لتجاوزي الشطر الأول من قوله ، وما انطوى عليه من ذلك التصنيف الرائع لصوتي ، والتفاتي إلى الشطر الثاني، لأتذمر من نقده الذي لم آلف ما يماثل موضوعيته في تلك السنّ المبكرة ، مقابل ما كنت ألقى من حفاوة الجمهور الحارَّة ، أو مقابل ما وصلني عن ذلك الشاب الذي لم يستطع التعبير عن إعجابه بصوتي من بين الجمهور ، إلا من خلال لطم نفسه . أما الآن فلا أدري ما إذا كنت أستطيع القول : إنني من أشد الآسفين على رحيل هذا العَلَم الذي وظف مكانة عائلته ومكانته ، ليحوِّل بيته إلى مركز فني وثقافي في اللاذقية ، والذي تلقنتُ منه درس النقد الأول ، النقد

الذي لا يصدر عن أمثاله إلا لغاية تقويم المنقود ، ولفته إلى سلبياته التي لم يَعِها .

أما في المرحلة الثانية من تلك المسابقة الغنائية التي كانت في أيلول من العام ذاته ، فقد استُدعِيتُ إلى دمشق مع بعض الفائزين ، بغية إدخالنا فيما سُمي بالتصفية النهائية ، والوصول إلى تحقيق حلمي في تصنيفي مطربة محترفة . وهكذا سجل كل منا أغنيته نفسها في أحد ستديوهات الإذاعة ، لتُعرَض على لجنة فحص جديدة، وليُعلَن _ فيما بعد _ من خلال الإذاعة عن اسمي من بين الفائزين الاثني عشر ، الذين كان منهم فاتن حناوي و فهد يكن و سمير سمرا ، فما كان بعد معرفتي بذلك هاتفياً عن طريق صديقتي إيمان جديد ، إلا أن رميتُ بكتاب الرياضيات بعيداً ، كتاب المادة التي أمقتها إلى أبعد الحدود ، وأعلمتُ أسرتي بما أُنبِئتُ به من خلال فرحي الذي لم يكن من حدود له ، فرحي بتحقُّقِ الحلم .

هذا ما كان بعد أيام من عودتي من دمشق ، أما حين كنت فيها، وبعد عودتي من الإذاعة برفقة جدتي لأمي وخالي عهد ، فقد تردَّدنا بعض الشيء في الذهاب إلى قريبنا السيد علي الظاظا الذي كان وزيراً للداخلية حينذاك ، بسبب ما أصابني من إرهاق في أثناء التسجيل ، لكنني لم أكن أعلم أن الذي تردَّدتُ في الذهاب إليه ، سيعرض صوتي الذي سجلتُه في بيته حينذاك على الملحن فيليمون وهبي ، الفارّ في ذلك الحين من أحداث لبنان الداخلية إلى دمشق ، كما لم أكن أعلم أنه سيدعوني إلى الإقامة في بيته خلال العطلة

الانتصافية ، بغية تعريفي إلى فيليمون الذي أعجب بصوتي ، وتسجيلي في الإذاعة الأغنيات التي سيقدمها لي .

لم يتسع بيت السيد علي الظاظا لي فحسب ، إنما لمن اختلف من الزائرين ، المقيمين مثلي والعابرين ، الشاكين واللاهين ، الأغنياء والفقراء ، الكبار والصغار ، المقربين وعامة الناس ، ذلك بحفاوة موزعة على الجميع ، وموجهة إليَّ بصورة متميزة . إنني لم أشعر بالغربة داخل ذلك البيت الذي وجدتُ فيه صورة لبيتنا ، من حيث إيحاء أصحابه بتشكيله مُلكاً لكل من يريد أن يطرقه . لم أشعر بالحرج في كنف السيد علي ، ولا في كنف زوجته السيدة سهام طيارة ، التي كثيراً ما كانت تحمل الناس على التساؤل ما إذا كانت من البشر أم أنها ملاك زائر للأرض ؟ نظراً لما اتسمت به من سمات خلقية رفيعة ، ذلك من لطف وهدوء لامتناهيين ، وقدرة على الجمع بين الوقار والتواضع ، وصبر لا يعرف الغضب ، وابتسام لا يفارق شفتيها ، وروح لا تمل إنسانيتها ، واهتمام بما يصغر ويدق من شؤون الناس ، وما كان هذا كله يستتبع من ارتباطها بزوجها الذي كنا نعرف فيه السمات ذاتها ، في علاقة قد أدهشني تميزها ، لما انطوت عليه من محبة واحترام وسعادة روحانية وبُعدٍ عن اللغو . هذا بالإضافة إلى ما أُحطتُ به من اهتمام الآخرين من حولي ، كوالدة السيد علي ، التي كانت لا تملُّ من التعبير لي عن حبها لجدّي لأمي ، أي خالها الذي تولى تربيتها بعد وفاة أمها وهي طفلة، وكذلك من اهتمام أولاد السيدين ، محمد وديانا ولينة ، الذين ربما

أفرحَتهم طفولتهم بمطربة تعيش بينهم ، وكذلك من اهتمام إخوة السيدين وأسرهم ، ومن كان لهما من خدم وسائقين ومرافقين .

لم أكن قد علمتُ بعدُ في يومي الأول من تلك الإقامة ، أن جرس ذلك البيت يُصدِر مقطوعة موسيقية حين يُقرع ، لذا تحول جزء من الوقت الذي كنت أنتظر فيه بقلق قدوم السيد فيليمون ، إلى دقائق تكررت فيها تلك المقطوعة ، إلى أن فُتِحَ باب المطبخ الذي كانت تنشغل داخله الأسرة ، وفُتح باب البيت الخارجي ليدخل السيد فيليمون وهو يردد أغنيته التي بدأ بتلحينها في أثناء انتظاره : " رن الجرس ما فتحوا الباب الظاهر يا عيني ما عرفوا لفيوا الغيّاب " . علماً أنه كان قادماً ليعرض عليّ هذه الأغنية : " كوّيني بالنار واحبسني بالدار وسكّر باب البيت عليّ ولا تخليني حاكي خيّي برضى بس تضل تغار " .

ومنذ ذلك اليوم انضمَّ السيد فيليمون إلى السهرات اليومية التي كانت تقام في ذلك البيت ، ليدربني بمرافقة عوده على الأغنيتين اللتين قدمهما لي ، وليطلق بين الحين والآخر نكاته التي كانت تُضحِكُ الجميع باستثنائي أنا ، التي لم أكن أتمكن من فهم لغته غير الواضحة ، لغته التي جعلت أمي حين التقته بعد أشهر تتبادل معه الحديث حول موضوع ، دون أن تفطن إلى أنه يطرق موضوعاً آخر، فهو كان يُحدِّثها عن أحداث لبنان والفِرَق المتقاتلة ، وكانت تجيبه بما يتوافق وظنَّها أنه يتحدَّث عن الإذاعة . هذا بالإضافة إلى ما كان يقوم به في تلك السهرات ، من أدائه راقصاً بعض أغنياته الفكاهية ، مثل أغنية " شو ما قال لك سانفيريان " ، وأغنية " إلي

بتحبو لطيفة " التي كثيراً ما كان يكررها بناءً على إلحاح الطفلة لينة ابنة السيد علي : " إلي بتحبو لطيفة مهيوب وخلقة نضيفة ومن كتر ما بتحبو راحت معه خطيفة جوز لطيفة أد الغول في يوم تروّأ كيس فول أكل البيضة والمألة ولولا شوي أكل الولاد والغسالة والبراد والصابونة والليفة " .

يضاف إلى ذلك ما كان يصدر عنه من كلمات وتصرفات قد شكلت استمراراً لروحه المرحة المتميزة . فقد أصرَّ على تلقيبي منذ لقائه الأول بي بكلمة " نعنع " . وفي ذات أمسية عَلِمَتْ سيدة غيورة كيف تستطيع أن تمنعني من البدء بالغناء ، فأخذت تتوجَّه إلى مجاورات لها بثرثرة وضحك جدّ صاخبَين ، ولما يئس السيد فيليمون من إقناعي بأن أقتحم بغنائي الجو الذي خلقَتْه الغيورة ، سرعان ما أخذ عوده ، وأطلق صوته مطوّلاً منغَّماً بكلمة واحدة فقط من موال كان قد لحنه بإيحاء من أحداث لبنان ، وكانت الكلمة " ورصاص "، فأخجل السيدة ، وأفرح زوجها الذي كان شديد الإعجاب بصوتي .

ثم ما لبث أن انضم إلى السيد فيليمون ، مرافقه السيد محمد سرّاج ، الذي كان عليه – هو الآخر – أن يقوم بتدريبي ، وأن يكتب نوتات الأغنيتين لفرقة الإذاعة ، والذي ما لبثَ أن قدَّمَ لي أغنية ثالثة ليست أقل جمالاً من السابقتين . علماً أن قلقاً كبيراً كان قد انتابني قبل أن يُسمعني إياها ، حَذَرَاً من ألا تنال إعجابي ، وتحرُّجاً من رفضها إذا ما حدث ذلك ، ومطلعها :

" حبي يا قمر الدار وينك بالليالي تساعدني ع هالمشوار تيعودوا الغوالي ويضلوا الغوالي غوالي يغنوا بالليالي ليالي يا قمر يا عالي يا رفيق المشوار " .

أما حين توجهتُ إلى الإذاعة بعد إتقاني الأغنيات الثلاث ، فسرعان ما تيقنتُ من تعذر هذه المهنة ، ووجود الفارق الكبير بين العالم الذي خلقه لي الملحنان الطيبان والجمهور في اللاذقية ، والعالم الذي خُلق هناك . فقد احتشد بسبب أحداث لبنان الداخلية عام ١٩٧٦ العشرات من المطربين اللبنانيين الفارّين إلى دمشق ، والتائقين إلى تسجيل أغنياتهم بغية تأمين لقمة العيش ، وما كان يعني هذا من صعوبة حظوتي بفرصة التسجيل ، وعدم انفساحها أمامي إلا بفعل ما كان يحدث من تدخُّلات ، أو بفضل المطرب فهد بلان الذي تخلّى لي بشهامته لمرات متعددة عن فرصته . ثم كان عليَّ من أجل أن أسجِّل أغنية مدتها خمس دقائق ، أن أقف في أحد ستديوهات الإذاعة ست ساعات متواصلة ، لأكرر كل عبارة مغناة عشرات المرات ما دمتُ لا أزال مبتدئة ، لكن لا ينبغي بهذا الصدد أن أتجاوز فضل مهندس الصوت السيد راشد الشيخ في إتعابي هذا، نظراً لما كان له من دور أكبر في تدريبي على الغناء ، وفي اتخاذي– فيما بعد – السلوك الدقيق ذاته ، ضمن ما اختلف من ممارساتي الحياتية . وبعد انتهائي من التسجيلات الثلاثة التي كنت أعود عقب كل منها منهكةً ، كان ينبغي عرضها على لجنة الفحص والمراقبة ، لكنها ما لبثَتْ أن فاجأتني برفضها لها جميعها ، متذرعةً بأن عليَّ أن أؤدّي ألحاناً لملحنين سوريين ، لا لفيليمون ومحمد

اللبنانييَن اللذين تخشى من أن يدَّعيا اكتشافي تارة ، أو من أن يحطماني تارة أخرى . علماً أن هذه اللجنة ذاتها أخذت تلح على الملحنَين المرفوضَين بالمقابل ، بأن يقدما ألحانهما ذاتها لمطربة أخرى قد حدَّدَتها لهما ، لكن طلبها لم يحظَ منهما إلا بردٍّ متضمن أن الألحان لريم وإلا رُميَتْ في سلة المهملات . وقد كانت اللجنة تتذرّع لهما لدى إلحاحها هذا ، بأنني أغنّي بصورة جافّة خالية من المشاعر والأحاسيس ، وتذرّع ملحّن مؤيّد لأعضاء اللجنة ، بنشاز صوتي ، مما اضطرَّ السيد فيليمون الذي فقدَ صبره ، إلى أن ينهض ويهمّ بضرب هذا الملحّن ، لولا تدخُّل بعض من كان في الإذاعة .

وبذلك توجهت جهود خالي سعد إلى الدخول في المداولات الكثيرة مع هذه اللجنة ، بعدما كانت متركزة على دعوة السيدين فيليمون و محمد لالتقائهما بي ، وعلى إسهامه إلى جانبهما في تدريبي على الأغنيات ، وعلى الانهماك بتدبير مواعيد التسجيل ، وما كان يتخلَّل هذا من دخوله بغضبه الطيب في خلافات صغيرة مع بعض القائمين على الإذاعة ، تلك التي إن كانت تقلقني في البداية حَذَرَاً من أن تنعكس سلباً عليّ ، فإنها كانت لا تلبث أن تظهر نتائجها الإيجابية المتمثلة في تيسير ما تم تعسيره . وقد استمر في تداوله مع اللجنة الرافضة ، إلى أن تم الاتفاق مبدئياً على إعادة التسجيلات الثلاثة وفق توزيع جديد ، مقابل قبولي بأغنية من ملحن سوري ، لم يحظَ بإعجابي منها سوى المقطع الثاني .

وبذلك تم تطويل إقامتي في دمشق إلى شهر كامل ، ولا سيما حين لم يقبل السيدان سهام و علي بقطعها والاستسلام للظرف

القاسي ، هذا على الرغم من ضيق والديَّ الذي أخذ يتفاقم يوماً بعد يوم ، بسبب انقطاعي خلال تلك المدة عن الدراسة ، وعن تهيُّئي لامتحانات الشهادة الإعدادية .

أما أنا ، فإن ما كان يزيد من ضيقي وألمي وحزني خلال تلك الإقامة ، هو ما كنت أسبِّبُه لجدَّتي لأمي التي رافقتني وخالي سعد إلى دمشق ، من تغيُّبٍ قسريٍّ عن بيتها في اللاذقيّة ، هذا وإن كان ذهابها معي ومع خالي إلى الإذاعة يسلّيها ، برفقة المطربة ألفت الشيخ زوجة مهندس الصوت ، وثلة من المطربات والمطربين الآخرين الذين تعرفنا إليهم ، مثل فهد بلان وفريال كريم وإنعام صالح ونذير المغربي ومعين الحامد .

لم أعد إلى اللاذقية إلا بعد قبول اللجنة بأغنيتَي فيليمون ، والقبول الآلي بالأغنية السورية ، مقابل فقدان الأمل بقبول أغنية محمد سرّاج ، وكذلك بعد إطلالتي التلفزيونية من خلال سهرة أسبوعية كان يعدّها ويقدّمها المذيع إلياس حبيب ، ذلك بتاريخ ١٧ شباط ١٩٧٦ ، إذ أديت فيها أغنية " رن الجرس " بعد حوار مقدِّم البرنامج مع فيليمون حول صوتي ، فكان لذلك الدور في انفكاك ضيق والديّ اللذين راحا يرمقان من خلال دموعهما صورتي التي افتقداها طويلاً ، وينصتان إلى كلمات الأغنية المؤثرة النامّة على تباعدنا :

" رن الجرس ما فتحوا الباب الظاهر يا عيني ما عرفوا لفيوا الغياب.
نحنا جايين لعندكم نحنا ساكنين بحيكم يا الله لاقونا واستقبلونا ضلوا

حبونا هالقلب داب . ما دقت النوم ع فراقكم ونا فكر دوم بغيابكم عدنا تهنينا يوم ما التقينا ولما تحاكينا فرحوا الأحباب " .

عدتُ إلى اللاذقية مُحمَّلةً بشوقي الكبير إلى كل من فيها وكل ما فيها ، شوقي الذي قادني إلى الابتهاج بأطفال الحي الذين سرعان ما تحلَّقوا حولي ، وبأخويّ رندة وعمر اللذين راحا يهبطان الدرج إلي صائحين : جاءت المطربة – جاءت المطربة ، وبأمي التي أغرقتني بفرحها ودموعها ، وبأبي الذي كان مُصرّاً على تزيين الحيّ لي لولا تدخُّل أمي التي لم ترَ فيَّ قادمة من الحجّ ، وبأختي الطفلة رفيف التي لم أصدق حين ضممتُها أنها بين ذراعيّ ، وببيتنا الذي بدا خلال ذلك اليوم نتيجة ابتعادي الطويل عنه غريباً عليّ .

وما إن مضى يومان على عودتي ، حتى بدأت الإذاعة السورية ببث أغنياتي ، ليمتلئ الحي بصوتي من مذاييع الجيران ، ولنُنَادى من تحت نوافذنا من أطفالهم لإنبائنا بما يحدث . ولعل المفاجأة الكبيرة بالنسبة إليّ ، كانت حين حظيتُ مصادفةً وأنا أقلّب المحطات الإذاعية بأغنية محمد سرّاج المرفوضة " حبي يا قمر الدار " ، تبثها الإذاعة السورية ذاتها ، وما دل عليه هذا من القبول بها ، وانتهاء ذلك الإشكال المعقد المطول حولها ، ذلك بفعل ما علمتُ فيما بعد ، من استمرار خالي سعد في التداول مع اللجنة ، وتدخُّل السيد علي .

لكن ما إن عدتُ إلى دمشق في العطلة الصيفية لأشترك في مهرجان الأغنية المحلية الذي أُجِّلَ أسبوعاً ، ثم أسبوعاً آخر ، وشهدتُ من الظروف ما هو أكثر قسوة وسوءاً ، حتى قطعتُ على

نفسي بأن أخرج من عالم الغناء والإذاعة ، على الأقلّ ريثما أحصل على الشهادة الجامعية . لقد خرجتُ من عالم الغناء آسفةً على صوتي وتدريباتي ، وعلى الظروف التي أتيحت لي في بيت السيد علي ، وعلى الأغنيات الجديدة التي تدفَّقَتْ عليَّ من ملحنين آخرين ولم يُتَح لي تسجيلها ، وعلى احتفالات المركز الثقافي ، والجمهور الذي بتُّ أتلهف إلى لقائه كما تلهفتُ إلى أسرتي وأنا في دمشق للمرة الأولى . وإذا ما كنت الآن لا أزال متمكنة من الاحتفاظ بتسجيلات أغنياتي ، فإن الزمن لم يمكِّني من الاحتفاظ بفيليمون الذي لم يخيّب توجّسي من شهود رحيله لكبر سنّه ، كما لم يمكِّنّي من الاحتفاظ بمحمد سرّاج الذي ضاع وصداقته لنا في الزحام ، بعدما قال لي : سنعدُّ أغنية أجمل من " حبي يا قمر الدار " ، فلا أدري الآن ما إذا كان لا يزال حياً أم غير حي ، مقيماً في بلده لبنان أم مهاجراً إلى نقطة ما على الأرض .

- ١٣ -

وفيما يتعلق بنتيجة شهادتي الإعدادية ، فربما أسهَمَ في كونها غير جيدة جداً ، إلى جانب انشغالي طوال العام بالغناء ، إصابتي بمرض التيفوئيد في المرحلة الأخيرة منه ، وما أدى إليه من ملازمتي الفراش وتكرار تقيّئي ، وفقدان طاقاتي ، وهبوط وزني إلى الأربعين كيلو غراماً ، وعدم تمكُّني من مراجعة دروسي ، إلا من خلال ما أخذتْ تقرأ عليّ أختي رندة وابنة الجيران هالة إلى جانب

سريري ، وسط وهني وكآبتي . كما يمكن أن يكون قد أسهم في تشكيل نتيجتي ، نفوري الذي أخذ يتفاقم من المواد العلمية ، على الرغم من جهود خالي سعد ، إذ أخذت تزداد تعقُّداً عليّ ، أو غلظةً أمام مشاعري التي ربما رقَّقها المجال الفني . لذلك ما إن وُزِّعَتْ علينا في أثناء امتحان مادة الرياضيات في الأول الثانوي ، الأوراق التي ينبغي أن نحدد عليها اختيارنا لأحد الفرعين العلمي أو الأدبي ، قبل دخول الثاني الثانوي ، حتى قطعتُ إجاباتي لأسجل بلهفة اختياري الفرع الأدبي ، دون إرجاء ذلك إلى حين العودة إلى البيت ، والتحاور مع والديّ بشأنه ، ولا سيما بعدما كان لسير الامتحان ذاته من دور في تضخيم ذلك النفور ، إلى جانب ما سبقه خلال العام من حصولي على خمس درجات فقط من أصل عشرين في اختبار لمادة الجبر ، وأربع درجات من أصل عشر في اختبار لمادة الفيزياء، وما أدى إليه هذا من اندهاش مُدرستَي المادتين اللتين علمتا غير القليل عن تفوّقي .

وبذلك تحوّلت أيام العطلة الصيفية التي فصلتني عن الثاني الثانوي ، إلى أحلام يقظة جميلة ، قد تضمّنتْ دخولي قسم اللغة العربية ، وحصولي على درجة الدكتوراه ، غير آبهة بالسفر الخارجي الذي كانت تفترضه متابعة الدراسات العليا حينذاك ، ومتغافلة عن الغناء الذي كان يبدو أنه خرج تماماً من عالمي ، عالمي الذي أصبح يملي عليّ ، أن أعتمد على ذاتي في تكوين ذاتي ، وعلى إبداعاتي الشخصية دون إبداعات الآخرين ، التي هي جديرة بأن تحيينا دائماً ضمن ذلك القلق الناجم عن التفكير في

إمكان ظهورها أو عدم ظهورها ، جودتها أو رداءتها ، بقائها أو زوالها . ثم إن تجربة كتجربتي التي يمكن تلخيصها في معركة مع الحياة ، لم يعد يليق بها في منظوري ، أن تنتهي إلى ذلك المجال ، مجال الغناء العربي الذي يقتصر غالباً على التعبير عن صدود الحبيب والتألم من هجرانه . ولا ينبغي أن أتغافل أيضاً ، عما كان لعبارة سمعتها من أحد المقربين ، من دور في إبعادي عن المجال المذكور ، وهي أن الغناء مهنة غير شريفة ، إذ نزلتْ عليَّ كالصاعقة ، على الرغم من عدم إدراكي تماماً في تلك السنّ ، ما تنطوي عليه من أبعاد . ويبدو أن حلم اليقظة بالحصول على درجة الدكتوراه لكثرة ما أراحني حين زارني للمرة الأولى في ذات أمسية رقيقة ، ما لبث أن أرسل إليّ حين خلدتُ إلى النوم النبي محمداً ص، ليقدِّم الإجلال إلى أمي ، ويثني على جهودها .

وهكذا سرتُ خلال الفصلين الأول والثاني من الثاني الثانوي ، والفصل الأول من الثالث الثانوي ، على درب تفوّقٍ لم أشهده من قبل ، إذ صرتُ أحصل بعد كل امتحان نصفي أو نهائي على الدرجة الأولى ، ليس على شعبتي فحسب ، إنما على شُعَب الفرع الأدبي جميعها . الأمر الذي جعلني أؤمن بتحدد قدرات كل إنسان مهما بدا ضعيفاً في نقطة معينة منه ، عليه أن يتقصّاها ، ويوظفها بغية تحقيقه النجاح التائق إليه في حياته ، ثم حمَلَني على تحسُّس الفارق الشاسع بين الإنسان الذي يبقى ذا قدرات محدودة ، والله ذي القدرات الشاملة . ولدى العودة إلى نقطة القدرات لدى الإنسان ، أذهب إلى أنني إذا لم أعد أتمكّن من الحصول على الدرجات

المعقولة في مادتَي الرياضيات والفيزياء ، فبإمكاني تحقيق ما هو فوق التفوق في مجال العلوم الإنسانية . وإذا لم يتمكن إنسان آخر من التعلم ، فبإمكانه أن يصبح أفضل نجار أو أفضل حداد أو أفضل صاحب مهنة أخرى لا ينبغي أن تحمله على الخجل ، ما دامت تنطوي على ظل من القدرة الإلهية قد خصه به الله .

وبتفوقي هذا ، صار من حقي أن أحظى بعد كل نتيجة مع المتفوقات الأخريات على شُعَب السنوات الأخرى ، بجائزة تقديرية من مديرة المدرسة السيدة صبيحة شيخ إبراهيم ، التي كان قد آن الأوان أن أردَّ بتفوّقي جميلها ، لكثرة اهتمامها بي خلال تلك السنوات، ومتابعتها الدقيقة أموري بصورة واضحة أحياناً وخفيّة أحياناً أخرى . كما كان قد آن الأوان أن أردَّ جميل السيدة أمل شمّا، التي على الرغم من انشغالها في الفترات الامتحانية ، لكونها نائبة للمديرة ، فإنها لم تنصرف عن الاهتمام بامتحاناتي ، وتولّيها هي بنفسها الحضور في أثنائها إلى جانبي ، ذلك ردّاً على مراقِبَة امتنعَتْ عن القيام بما كانت تقوم به المراقِبات السابقات ، من قراءتهن عليَّ سؤالاً من بين الأسئلة المتعددة التي لم أتمكن من تهجئتها لكون خطها يدوياً ، ثم انصرافهن إلى المراقَبة ريثما أنتهي من كتابة إجابتي بنفسي ، وريثما ينبغي أن يعدنَ إليَّ لقراءة السؤال التالي . أو بالأحرى إنه كان قد آن الأوان أن أردَّ جميل أمي التي أنفقت الكثير من الجهود والدموع في سبيلي ، من قبل دخولي المدرسة إلى حين تمكّني من الاعتماد على نفسي ، ثم التي أصرَّت على الرغم من ذلك ، على أن تقرأ لي ، متجاوزةً بعض قدرتي على

قراءة خطوط الكتب ، وتائقة إلى إعفائي من بعض الصعوبات التي كانت تعترضني في أثناء هذه القراءة ، مثل صغر الخط ، وعدم وضوحه لي أحياناً ، وحاجتي الدائمة إلى تقريب الكتاب حتى عينيّ، وكذلك إلى الضوء الساطع . علماً أنها كانت تقوم بذلك بمساعدة والدي وأخويّ ومساعدة ابنة الجيران هالة ، التي لم تتأخر من أجل أن تقوم بما كنتُ أحتاج إليه من قراءتها الرشيقة ، عن تأجيل دروسها مع إظهار الكثير من رحابة الصدر والفرح وعدم الملل ، مما جعل أبي يكرر عليها ممازحاً : سيذكركِ التاريخ يا هالة .

كما أنه كان قد آن الأوان ، أن أردَّ جميل والدي ، أو أن أتوقف عنده في هذا الموقع المتأخر من قصتي ، ما دام لم يظهر وفق تلك الصورة السريعة المباشرة التي ظهر وفقها جميل أمي . إن دور والدي بدأ كذلك بالظهور منذ طفولتي ، لكنه أخذ في التراكم والاتساع شيئاً فشيئاً عبر سنوات حياتي ، وسيظل كذلك إلى ما شاء الله ، أو ربما إلى ما بعد حصولي على درجة الدكتوراه واتخاذي مثله صفة المعلم ، ذلك نتيجة إحساس دائم منه بضرورة صياغته ذاتي وفق أفضل صورة ، وصبّه كل ما يمتلك من ثقافته الموسوعية في عقلي ، ومحاولته تقويمي من جوانبي المختلفة ، مستعيناً بما تميّزَ به من شخصية فذة ورجاحة عقلية وخلق رفيع وسمعة طيبة انبعثت أصداؤها العطرة عبر مدينة اللاذقية . لقد كنتُ لا أزال طفلة حين توجه إليَّ ذات يوم يسألني ، ما إذا كنت أفهم ما تبثُّ الإذاعة من أنباء ؟ كما كنتُ لا أزال في البضعةَ عشرَ عاماً ، حين أخذ يحثّني على القراءة ، والعبّ ما أمكن من ينابيع الكتب ، ولا سيما ما يرتبط

منها بعظماء العالم وأصحاب العاهات ، مردِّداً عليَّ وعلى إخوتي عبارة : العلم العلم . هذا بالإضافة إلى ما تعلمتُ من والدي من كيفية التفكير ، كيفية التحدُّث ، كيفية التبصُّر الشامل العميق بالحياة وصورها وألوانها ، كيفية استيعاب البشر على اختلاف نماذجهم ، كيفية اتخاذ المسلك الإنساني الذي يخوّلني أن أصبح مثله صديقة لمن لا صديق له من الفقراء والبسطاء . ولا شك في أن والدي حين اتخذ حيالي هذه الوجهة البنائية التقويمية ، هذه التي كانت تُشعِرني نظراً لما انطوت عليه من حرصه واهتمامه وكأنني ابنته الوحيدة ، لا شك في أنه حين كان يفعل ذلك ، كان ينطلق من شعوره باستعدادي الدائم لتقبُّله ، ومن استجابتي التي هي من العمق إلى درجة كانت تدفعه في كثير من الأحيان إلى تصريحه بما يتنبأ لي ، ذلك بأنني سأصبح شاعرة ، هذا على الرغم مما كانت تحملني عليه هذه النبوءة، من شعور بالتذمر والضيق ، ما دام حلمي قد كان متجهاً بكليته إلى عالم الغناء ، العالم الذي أدخلَني إليه هو نفسه . إن والدي بكلمة موجزة ، كان ولا يزال وسيظل ينظر إليَّ وكأنني مشروع لصرح كبير ينبغي له إنجازه ، فلا يتردّد كلما سنحت له الفرصة ، في أن يتحفه بحَجرة جديدة أو حصوة أو حبة رمل . ولذلك فإنني لا أتفق أبداً معه حين يعيد أساس تجربتي إلى جهود أمي بمفردها ، بل إن لكل منهما وفق منظوري دوره المتميز عن دور الآخر ، هذين اللذين تكاملا بصورة لا يمكن معها الاستغناء عن أحدهما . إنه إذا ما كان لأمي الفضل في تعريفي بالحروف والكلمات ، فإن لوالدي

الفضل في تعريفي بكيفية صياغتي من الحروف والكلمات هذه عوالميَ الآخذة في الاتساع .

وإذا ما كنت أحظى لدى استلام تلك الجوائز التقديرية بالتشجيع الكبير من الطالبات إلى جانب تشجيع المديرة والمُدرّسات ، فإنني كنتُ أحظى لدى اشتراكي غنائياً في الاحتفالات التي كانت تقيمها المدرسة ، بقدر من تصفيق أولئك الطالبات وصياحهن كافٍ لصمّ أذنيّ ، ذلك لا من أجل التعبير عن ابتهاجهن بصوتي فحسب ، إنما عن شماتتهن بما يريهن صوتي من دموع مدرّباتهن في مادة التربية العسكرية ، بعدما تكون أولئك المدربات قد أشبعنهن خلال العام قسوةً وعقوبات . وبهذا الصدد كم عرقلت أختي رندة ذات يوم غنائي، حين زرت وإياها بيت إحدى المدربات ، بفعل صداقة تربطنا بأختها ، إذ إنني ما كدت أبدأ بالغناء في تلك الزيارة ، حتى بدأتْ رندة تهزُّ بضحكها الأريكة التي كنا نتخذها معاً ، حاملةً الصديقات اللائي كن يشاركنَنا الجلسة على فعل ما تفعل ، ذلك لأنها وإياهن لم يَعُدنَ ينتبهنَ إلى صوتي وغنائي ، بقدر ما ينتبهن إلى تلك المدرِّبة التي رأينَها وقد تسلَّلتْ من أجل أن تَسمعني إلى الصالة التي كنا فيها ، وانكفأتْ على نفسها في زاوية بعيدة ، لتغرق في نحيبها المتأثر بصوتي ، هي والوردة البيضاء التي كانت تضعها على رأسها .

ثم إنني بغنائي في المدرسة ، ربما أكون قد أكدتُ لإحدى الطالبات أنني أنا ريم هلال ذاتها ، التي أطلَّتْ عليها من شاشة التلفاز بأغنية " رن الجرس " ، والتي تبثُّ الإذاعة أغنياتها الأربع ،

إذ توجهتْ إليَّ بعد عودتي من دمشق متسائلة : ريم هلال ... ما صلة القربى بينكِ وبين ريم هلال المطربة ؟ وحين لم يُجدِ توكيدي لها أن الريمين الهلاليين اللتين تفصل بينهما تسكنان في شخصي الواحد ، انتهيتُ معها ممازحةً ، إلى أن ريم هلال المطربة هي ابنة عمي .

وتفوّقي ذاك ، كان قد تواكبَ مع ابتهاجي بصديقتي الجديدة ليلى، التي ما لبثتْ أن ملأتْ لي الفراغ الذي كنتُ أخشى حدوثه ، بعد توجه صديقتي ديانا درويش إلى الفرع العلمي ، ورحيل صديقتي أسمهان أحمد إلى حياتها الزوجية في إحدى قرى حلب ، متأسفةً معي على الأيام التي قضيناها في المرح وترديدنا ما تنوع من الأغنيات الدارجة التي أحببناها .

لقد عوضتني ليلى عن صديقتَيّ السابقتين ، من خلال ما تميزتْ به إلى جانب روحها الإنسانية العالية ، من خفة ظل ونزعة فكاهية قد نجمتا عن دقتها الكبيرة في الملاحظة ، تلك التي لم تسلم منها واحدة من المدرسات أو الطالبات أو أي شخص يمر من أمامها . إنه لم يسلم من تعليقاتها السرية أحد أساتذتنا كلما أتانا مرتدياً أو منتعلاً جديداً . كما لم تسلم منها مُدرّسة تميزت بضخامة كبيرة في الوركين ، إذ باتت بحسب رأي ليلى كالدلفين ، كما لم يسلم منها غرور هذه المُدرّسة وحرصها المفرط على أناقتها وتجميل وجهها ، إذ لم تتردد ليلى ذات يوم ، في أن تسكب ما تواجدَ على السبورة من فتات الطباشير ، فوق الكرسي الذي ستتخذه أمامها . ولم تسلم منها زميلة كانت قد أعلمتنا أنها لفرط نظافتها لا تستطيع إلا أن تغسل

شعرها كل يوم بالماء ومعجون ندى الخاص بتنظيف الصحون . كما لم تسلم منها أبداً زميلة مجاورة لنا ، حين جعلتها بساطتها تكثِر من الحديث عن النصيب في الزواج ، وتلفظ كلمة بكلوريا التي كانت ستحصل عليها في ذلك العام مقلوبة بكروليا ، إذ صارت ليلى نتيجة ذلك تطلب منها أن تلفظ من الكلمات الأجنبية ما هو أكثر تعقيداً ، كمعهد الكونسيرفيتوار ، لتحصل منها على ما تعدد من الإجابات المحرِّفة لهذه الكلمة ، والمُظهِرةِ المزيدَ من عجز الزميلة أمام حذق ليلى .

أما نتيجة الفصل الثاني من الثالث الثانوي ، نتيجة الشهادة الثانوية التي لم أترك في امتحاناتها سؤالاً إلا أجبتُ عنه وفق الصورة المُرضية مضموناً وأسلوباً ، فربما أسهمَ في ظهورها دون درجة التفوق ، عدم توافق إجاباتي مع سلّم الدرجات الذي كان يقتضي من طلاب الشهادتين – كما علمتُ – صيغاً شبه حرفية عما هو وارد في الكتب . لكن نتيجتي الأخيرة لم تزعجني كثيراً ، بل كان حَريّاً بها أن تسرني ، لتخليصي من المَدْرسة التي كثيراً ما كنت أحصي السنوات المتبقية من زمانها ، ولا سيما في الثاني الإعدادي كما ذكرتُ ، ثم لكونها كفيلة بأن تُدخِلني أي فرع من الفروع الأدبية الجامعية ، كفرع اللغة الفرنسية الذي أقنعني والدي بالتحول إليه عن العربية ، آملاً أن أعمل مستقبلاً في الترجمة الفورية . لكن الأقدار والمصادفات التي ينبغي أن نؤمن بدورها إلى جانب إيماننا بالإرادة الفردية ، كان لها أن حوَّلتني عما استقررتُ ووالدي عليه ، وخلّصتني من دراسة اللغة الفرنسية التي أدخلتْ في نفسي الكثير من

التوجُّس ، نظراً لعدم تمكُّني من الاعتماد في القراءة إلا على من يتقن هذه اللغة . فبعد حصولي على الشهادة الثانوية ، زارنا للمرة الأولى في كَسَب التي كنا نصطاف فيها ، صديق والدي السيد باسيل بيطار ، برفقة زوجته وابنته هيفاء التي كانت تدرُس الطب حينذاك، ولأنني سمعتُ الذين حولنا يكثرون من التوجُّه إلى الطبيبة بلقب دكتورة ممازحين أحياناً وجادّين أحياناً أخرى ، ولأنني وجدتُ في هذا اللقب ما يتفق مع شخصيتي التي مرت بتلك التجربة الحياتية العميقة ، وكذلك مع طموحي الوثّاب في تلك السنّ المبكرة ، عاد إليّ حلمي ذاك ، حلمي بأن أحصل على شهادة الدكتوراه التي بدت في تلك اللحظات أكثر بعداً عني ، مما بدت حين حلمتُ بها للمرة الأولى . إلا أن هذا الحلم ما لبث أن تحوَّلَ في الساعة ذاتها إلى قرار اتخذتُه بصورة حاسمة ، قراري بأن أعود إلى التفكير في دخول قسم اللغة العربية ، راميةً قسم اللغة الفرنسية بعيداً ، ذلك بعدما أجاب والدي عن تساؤل الطبيبة هيفاء حول الوجهة التي سأختارها ؟ إذ قال : إن ريماً قررت دراسة اللغة الفرنسية ، ثم عقّب: لكنني أقترح عليها الآن دراسة اللغة العربية ، لِعلمي مؤخراً بافتتاح الجامعة في اللاذقية دراسات عليا في هذا القسم .

- ١٤ -

كان برفقتي في يوم افتتاح الجامعة من عامي الدراسي الأول ١٩٧٩ – ١٩٨٠ ، والدي والسيد منير الخيّر ، الذي سرعان ما انحنى عليَّ هامساً بصوت متهدج : كم يسعدني أن أرافقكِ في هذا اليوم ! كان من المؤكد لي صدق ما قال ، نظراً لكونه صديقاً قديماً ومقرّباً لوالدي ، وما عنى هذا من معايشته تجربتي بكل أبعادها وتفاصيلها ، لكنني سرعان ما أجبته بصمتي : ومن ستسعده مرافقتي على هذا الدرب الطويل الممتد منذ الغد إلى يوم تخرُّجي ؟ ومن بيتنا إلى مبنى الكلية الواقع في أقصى شارع بغداد ؟ إذ كم حاولتُ أنا وأختي رندة وجارتنا هالة أن نعبُره لكي أصل إلى ذلك الباب ، وأكسر حَجرة من جبال إحساسي بالغربة تجاه الجديد الآتي . لكن ما إن كنا نصل في كل مرة إلى نقطة معينة ، حتى نعود مقتنعين من جديد بكثرة ابتعاد كليتي ، متوجسين من تلك المئات المتبقية من الأمتار ، وما يكتنفها من خلاء ، وسط المساء الذي كان يأخذ في التقدُّم . إنه قد لا يكون من اليسير عليَّ أن أذلّل تلك الكيلو مترات ، التي كثيراً ما كانت تبدو لي مجسِّدةً طريق حياتي الممتد منذ اليوم الأول من دخولي المدرسة إلى يومي ذاك ، كما قد لا يكون من البديهي أن تسرع بي خطاي لألتصق بذلك العالم ، الذي إن أرضى طموحي في اتساعه وثرائه ، مقابل ركود المدرسة ، فإنه بدا أمامي كالمحيط بالنسبة إلى من اعتاد السباحة في جدول صغير ، أو

كعاصمة غربية مترامية الأطراف بالنسبة إلى قادم من قرية متواضعة .

وكأن السيد منير الخيّر الذي كان يقود بنا السيارة كان يسمع ما يدور في داخلي ، إذ توجَّهَ إلى والدي قائلاً : لا أدري كيف ستحلُّ ريم مشكلة ذهابها وإيابها ؟ لكن والدي أجابه كعادته ، بما يتفق وتأجيله الاهتمام بالمشكلات إلى حينها ، أو بما يلائم كبرياءه الذي كان يحظِّر عليه إظهار الانهزام والعجز أمام قسوة الحياة . أما أنا ، فقد عدتُ لأجيبه بصمتي : ما دمتُ سأكون بمفردي ، فلا بد من أن أحقق ما رحتُ أفكر به جدياً خلال هذا الصيف ، وهو أن أعتمد على نفسي ، أو بالأحرى أن أعتاد السير بمفردي ، فهذا هو الحل الوحيد الذي لا ينبغي التردد في الوصول إليه ، على الرغم مما يعني ذلك من المرور بغير قليل من المخاوف والصعوبات . إلا أنه سرعان ما انقطع عليَّ ذلك التفكير ، وانقطعت على والدي والسيد منير تلك الحيرة التي أثمرت بذرتها في تلك اللحظات ، حين فوجئتُ عند الباب الداخلي للكلية ، بتحية زميلة طيبة لي هي ف م ، كنت قد تعرَّفتُ إليها في الثالث الثانوي ، وعلمتُ منها على الفور بدخولها قسم اللغة العربية ذاته . وعلى الرغم من عدم اتساع الوقت للمزيد من محادثتها ، نظراً لقرب موعدنا مع الدكتور محمود الخيّر ، عميد الكلية حينذاك ، فإن والدي الذي وجد في الزميلة ف م حلاً للمشكلة الكبيرة التي كانت تقلقنا ، ظلَّ يشير عليَّ بين الحين والآخر من ذلك اليوم بأنه كان من الضروري أن أفسح لها المجال للمزيد من التحاور معي . لكن اليوم التالي سرعان ما أعاد إلى والدي ما توجس من

انفلاته مني ، إذ ما كدتُ أتخذ مع خالي عهد الذي اصطحبني مقعداً في قاعة المحاضرات ، حتى هرعتْ إلينا ف م ذاتها ، لتُحِلَّ الطمأنينة مكان قلقي ، وتعيد خالي من الكلية بعدما أنبأَتْه بإمكان مرافقتها الدائمة لي ، نظراً لقرب بيتها من بيتنا . وهكذا عاد خالي ليَحْمِل أمي على البكاء فرحاً بهذه الزميلة ، وحزناً على الطالبة ندى كنج التي رآها خالي في أثناء عودته ، وقد أُدخِلَتْ الكلية على كرسي المقعدين ، إذ كانت قد أصيبت بالشلل قبل ثلاث سنوات من ذلك العام ، بفعل سقوطها على ظهرها وتضرُّر عمودها الفقري .

فاجأني والدي حين قطع قَصَّهُ تجربتي على الدكتور محمود الخيّر ، لكن لم أكن أدري أن ذلك شكّلَ منه مقدمة لإجهاشه في البكاء ، بل فاجأني أكثر بما يقبع سرّاً في داخله خلال تلك السنين ، دون أن يسمح له باختراق صموده ، ثم كانت المفاجأة أكثر فأكثر ، حين تحوَّل بكاؤه ذاك لديه إلى لهجة متوترة تَوَجَّهَ بها إلى الدكتور محمود ، معتقداً أن من واجب الجامعة أن تقدِّم لي المساعدات كما قدَّمتها المدرسة . لكن رحابة صدر الدكتور محمود جعلته يستوعب ما صدر تلقائياً عن والدي ، وأبدى الكثير من التعاطف نحونا ، وأكَّدَ حق والدي الذي التقاه للمرة الأولى في أن يحظى منه بما يفوق الاحترام الذي يكنُّه له الآخرون ، ثم نهض إليه الدكتور مصافحاً ، واعداً بأن يكلم الأساتذة بشأني ، أساتذة الكلية الذين كنتُ أشعر بالرهبة تجاههم وتجاه علمهم . ثم أتبعَ ذلك الدكتور محمود ، بتعريفنا إلى من دخل مكتبه ، مثل الدكتور نجيب الغزاوي المدرّس في قسم اللغة الفرنسية ، والأستاذة سفّانة الخيّر زوجة الدكتور

محمود ، والمُدرِّسة في قسم اللغة الإنكليزية ، والأستاذ محمد حاتم الذي كان حينذاك رئيساً لدائرة كلية الآداب ، والذي أبدى منذ تلك اللحظات الأولى ما يكنُّه لوالدي من تقدير ، وما تحرَّكَ داخله تجاهي من نزعته الإنسانية التي توضَّحَتْ في شخصيته ، والذي هرع بعد ذلك إلى خارج المكتب ليأتينا ببرنامج المحاضرات ، ويشرح لنا بعض ما يتعلق بنظامها ، وكذلك بالنظام الفصلي الذي حلَّ في ذلك العام محلَّ نظام الدورات . هذا بالإضافة إلى ما استمر به الأستاذ محمد من تتبُّعه أموري خلال السنوات الجامعية الأربع وما تلاها ، وتولّيه بصورة تامة امتحاناتي التي كانت تتطلب تأمين مكتب خالٍ أجلس فيه ، وفتاة تكتب ما أملي عليها ، وما بعث هذا كله في نفسي من إحساس بأن لي أخاً كبيراً أحتمي بظله في تلك الكلية .

أما لدى توجُّهي ووالدي إلى قاعة المحاضرات بعد خروجنا من مكتب الدكتور محمود بغية تعرُّفي إليها ، والاستماع إلى المحاضرة الأولى التي علمنا بموعدها من البرنامج ، فقد التقينا الدكتور تامر سلّوم الذي أتى ليلقي محاضرته في البلاغة ، والذي حين لم يلقَ من طلابه سواي وسوى والدي ، تحوَّلَ من مُحاضِر إلى مُنصِت لمحاضرة والدي حول تجربتي ، لكن التي لم يخللها والدي هذه المرة بما يماثل ذلك البكاء ، إنما بتماسك قد استمدّه من ألفتنا الجوَّ الجديد، ومما أظهر لنا الدكتور تامر من دماثة واهتمام واستعداد لتقديم أي معونة ممكنة .

وما إن مضت فترة وجيزة ، حتى كان قد حدث تماسّ بيني وبين أساتذتي جميعاً ، ذلك لكي يُزيلوا من نفسي رهبتهم ، ولا يُبقوا فيها سوى الاحترام . لقد أخذ واحد تلو الآخر منهم يُظهِر لي ما أظهر الدكتور محمود والدكتور تامر والأستاذ محمد . ومنهم الدكتور سمير كجّو الذي دعاني إلى مكتبه ، لكي يبدي استعداده ليعيد لي ما أشاء من المحاضرات والفِكَر في حال عدم استيعابها ، ولكي يقول لي تلك العبارة التي لا تزال حاضرة في نفسي إن زال حضوره من دنيانا ، وهي : " الكلية كلها في خدمتكِ " ، ذلك لِما تحسستُ فيها من تقديره خطاي التي أوصلتني إلى العالم الجامعي . والدكتور سامي عوض الذي كان من وسائل توجُّهه الطيب إليّ ، مطالبته في نهاية كل محاضرة بأن أعيد عليه ما شرحه ، فأفعل ذلك بصورة قد علمتُ – فيما بعد – أي دهشة كانت تبعث في نفسه . ثم تبعَ هؤلاء الأساتذة في السنة الثانية من لم يقلّوا عنهم مكانة في نفسي ، فكان منهم الدكتورة سلوى الخيّر ، التي لا ينبغي أن أنسى إلى جانب حُسن تعاملها معي ، ذلك الموقف الرائع الذي سيتم ذكره لاحقاً في موضعه . والدكتور عبد الكريم حسن ، الذي درّسني في السنة الرابعة ، والذي كان يحرجني لدى تعامله معي وكأنني الطالبة الوحيدة في القاعة .

لكن سلوك أساتذتي السامي المُطَمْئِن ، لم يكن متواكباً مع سلوك زميلتي ف م ، الذي سرعان ما تَكَشَّفَ عن اضطراب واضح امتد خلال تلك السنة الجامعية الأولى ، ذلك ما بين الطيبة والقسوة ، الإنسانية وعدم الإنسانية ، القيام بما وعدتْ به خالي عهد والتقصير

فيه ، مما كان يضطرني في كثير من الأحيان إلى الاستعانة بصديقتي المخلصة ليلى ، التي لم تؤهلها درجاتها في الشهادة الثانوية ووفاة أمها ، إلا لدخول مجال العمل ، والتي لم تتأخر بفعل استمرار تصادقنا العميق وتهاتفنا اليومي وتزاورنا وتنزهنا ، عن أن تطلب من مدير عملها إذناً بالخروج ، كلما شعرَتْ بأنني بحاجة إلى من ترافقني إلى المحاضرات .

علماً أنه لم يكن غريباً عليَّ سلوك ف م الجديد ، ما دامت قد كانت إلى جانبها الزميلة ف ا ، التي وصلتْ في مجافاتها لي إلى حد الامتناع عن رد تحيتي ، والتي كثيراً ما كنت أهمس إلى ليلى حين كنا في الثالث الثانوي حول عدم ارتياحي لها . وقد صدق ظني بدورها حين علمتُ – فيما بعد – بتصريحها إلى ف م بضرورة ابتعادها عني ، ذلك بمشاركة أمها ، إذ كانتا تتذرعان لها بأن صداقتها لي لن تنفعها ، لكن تلك الأم لم تدرِ أن سيأتي عليها يوم تفقد فيه بصرها بصورة كلية ، بفعل إصابتها بداء السكَّر . كما تبيَّن لي دور ف ا ذات يوم بصورة أكثر وضوحاً ومباشرة ، حين انفصلتْ عنّا ونحن عائدات من الكلية ، ذلك بعدما صارت تهمس إلى ف م بعبارة متكرّرة مؤنّبة هي : " ألم تستوعبي ما قلتُه لكِ سابقاً ؟ " فكان مني أنا وبمساعدة ف م التي وضَّحَتْ لي عبارتها ، أن استوعبتُ تماماً ما تقوله في تلك اللحظات ، وتوثقتُ مما قالته بالأمس . بل إن ف م لم تتأخر كذلك عن تصريحها لي بتحريض زميلة أخرى إلى جانب تحريض ف ا ، إذ افترت عليَّ بأنني أتعامل مع ف م

هذه وكأنها أجيرة لديّ ، علماً أن تعاملاً كهذا لم يكن من طبعي ولا من مصلحتي .

وإذا ما بدت ف م وقد استجابت للنصائح ، حين امتنعت عن اصطحابي إلى الكلية في أيام الامتحانات النهائية ، متذرعةً بقضائها تلك الفترة خارج المدينة ، فإن ذلك لم يشكل سوى مقدمة لسلوكها الأقسى الذي لجأت إليه في بداية السنة الجامعية الثانية ، وهو القطيعة النهائية ، القطيعة التي أحرجتني كثيراً أمام الذين أخذوا يسألونني عن سببها ، والتي لم تجعلها تبالي أمام من يسألونها ، أو أمام بيتنا الذي أخذت تمر من أمامه لتذهب إلى الكلية بمفردها ، علماً أنها كان بإمكانها أن تتخذ طريقاً آخر سواه .

وهكذا اضطرت أختي رندة إلى وجودها بجانبي خلال ساعات محاضراتي الطويلة ، ريثما يتم بدء محاضراتها في كلية الزراعة التي انتسبت إليها في ذلك العام ، ثم اضطرت بعد بدء محاضراتها إلى الاقتصار على مرافقتي في الذهاب والإياب ، ذلك بالتناوب مع خالي خالد الذي كان منتسباً حينذاك إلى كلية العلوم ، والذي كاد ذات يوم يفقد أصابعه بسببي ، لولا تنبهه بسرعة إلى من كاد يغلق باب سيارة الأجرة عليها .

وهكذا كنت أضطر إلى قضاء ساعات المحاضرات الطويلة وحيدةً على مقعدي ، وإن كانت تنضم إليَّ أحياناً زميلتي نديمة فاروسي التي لم تتمكن من الحضور الدائم بسبب طفلها الأول الرضيع ، وزميلتي وقريبتي إيمان إسماعيل ، التي لم تتمكن من الحضور إلا بعد انتهاء دوامها الوظيفي ، لذلك كنت أنتظر قدوم

الساعة الثالثة التي تعني قدومها بفارغ الصبر ، بعد أن أكون قد شعرتُ بغير قليل من الملل والضيق بسبب وحدتي منذ الثامنة صباحاً في بعض أيام الأسبوع . علماً أن " إيمان " لم تتحرج ذات يوم من التوجّه بالتأنيب الكبير إلى ف م نتيجة سلوكها غير المُرضي ، مُذكِّرةً إياها بتديُّنها وما يلحق به من عبادات لم تتأخر عن تأديتها . أما أنا ، فلم أجد من عزاء داخل الكلية إلا في الصمت والصبر ، وداخل البيت إلا في المثابرة على الدرس ، وكذلك في الخلود إلى سماع القرآن الكريم ، هذا السلوك الذي تحوَّلَ لديّ مع الأيام إلى عادة تريحني كثيراً كلما أصابني مكروه . كما كانت تنضم إليّ أحياناً خطيبة خالي عهد ، هيام قضيماتي ، التي تنوَّعَ تعاملها الإنساني معي ، ما بين إسهامها في اصطحابي ذهاباً وإياباً، ومشاركتها لي في حضور المحاضرات في أوقات فراغها ، أو في أوقات محاضراتها في قسم اللغة الإنكليزية ، وفي كتابتها التفصيلية من أجلي ما تسمع عن المحاضِر ، مقابل تسجيلي بعض الأفكار الرئيسة ، وفي اصطحابها لي إلى مكتبة زوجة أخيها الحاصلة على إجازة في اللغة العربية بغية انتقائي ما أحتاج إليه من الكتب ، وفي تذمرها من سلوك ف م الغريب بصورة صريحة أحياناً ، وبصورة مبطنة أحياناً ، قد تمثّلَت لي في إعلامي بقدومها إلى قاعتي من خلال إمساكها بيدي بحنان دافق مديد .

- ١٥ -

لم تدرِ أختي رندة في الأيام الأولى من تلك السنة الثانية ، لدى إصراري على ذهابنا وإيابنا سيراً على الأقدام ، أنني كنتُ أعدُّ للخطة التي بدأتُ في التفكير بها منذ عام ، والتي أسعى إلى تنفيذها جدياً في تلك الآونة وضمن ذلك الظرف القاسي ، وهي حفظ تفرعات الطريق بين بيتنا والكلية ، من أجل الذهاب بمفردي والإياب بمفردي ، من أجل الانتصار على اللائي اعتقدن بتمكنهن من نقطة ضعفي ، من أجل إظهار أن تفوّقي وقوة إرادتي لا يتوقفان على المجال الدراسي فحسب ، إنما يمتدان إلى اقتحام الموت إذا ما افتقدتُ في الحياة كرامتي ، وأخيراً من أجل أن أنفِّذ وصية والدي التي لا يملُّ تكرارها علينا ، والتي سبقت الإشارة إلى تضمنها ضرورة رفضنا الذل من أي أحد . لذلك فقد تكون هذه الليلة أيها الوالد هي الأخيرة التي أقضيها معكم ، لأنني سأفعل في الغد ما أجَّلتُ إنباءكم به إلى الغد ، في الغد ستعلمون كل شيء من خلال قدومي إليكم ، إما معافاة كما قدِمتُ سابقاً من تجاربي المختلفة ، وإما من خلال ما أتمنى ألا يحزنكم كثيراً ، ما دمتُ قد اخترته بملء رغبتي ، أو بملء حريتي حين تجاوزتُ بعض الحلول الجزئية التي تُقَدَّم لي من خالي ورندة وهيام وسيارة عملك والدي ، تلك التي بدأتَ منذ أيام تستخدمها لصالحي ، بعد إذنٍ من رئيسك في دمشق الأستاذ فوزي عيون السود، إذ أجابك ضاحكاً على الرغم من عدم كونه أقلَّ استقامةً منك

بتلك العبارة التي قالها عمر بن الخطاب لمن يبحث عن صاحب تمرة عثر عليها ، والعبارة هي : كلها يا بارد . اعذرني والدي ، إذا كنتُ سأضطر غداً إلى الكذب عليك حول موعد انصرافي من الكلية، فهو في الساعة الثانية عشرة وليس في الثانية كما سأخبرك ، إلا أنني في الثانية عشرة سأنطلق بمفردي ، وبعد ساعة أو أكثر قد أستطيع إعلامك بعدم حاجتي إلى من سترسل إليَّ . علماً أنني جرَّبتُ في هذا اليوم وقبل الغد الذي ينتظر تصميمي ، خروجي من الكلية دون أحد ، لكن ما إن سرتُ بضعة عشر متراً ، حتى التقطَتْني بعطف واستغراب الزميلة التي حرضت عليَّ الزميلة ف م في العام الماضي إلى جانب ف ا ، واتهمتني بأنني أتعامل معها كأجيرة . لقد وجدَتْني وقد ثقلتْ خطاي داخل بقعة مملوءة بالماء ، لكن ما إن شعرتُ بالانهزام والعجز تجاه تجربتي التي أخفقَتْ ، حتى حمدتُ الله على ما حدث ، نظراً لعثور أمي عليَّ برفقة الزميلة وهي عائدة من تفحُّص بيت مجاور للكلية ، كان من الممكن أن يتم شراؤه بعد أن تم بيع بيتنا الحالي .

لقد كان من البديهي وأنا مشحونة بإصراري وتمردي في ذلك الغد الواقع في ٢٤ أيلول ١٩٨٠ ، أن أنتصر على إلحاح زميلتي نديمة الهادئ ، الذي تضمَّنَ مطالبتها بأن أحجم عن تنفيذ خطتي ، وأسمح لها بإيصالي إلى بيتي ، إذ لم تحظَ مني إلا بالإجابة القاطعة النهائية : " ما عليكِ أنتِ الآن إلا الوصول إلى بيتكِ ، وانتظاركِ اتصالي الهاتفي الذي ينبغي أن يحدث خلال ساعتين ، وإلا فعليكِ أن تخبري أهلي بما فعلتُ ، لكي يتخذوا الإجراء اللازم " .

قد لا أكون صادقة على الإطلاق إذا ادَّعيتُ عدم إصابتي بشيء من الهلع ، حين تركتُ زميلتي نديمة عند محطة الباص ، وانطلقتُ، ولا سيما أنني وجدتُ ضرورة في عدم اتخاذ الرصيف ، إنما السير بجانبه ، خشيةَ تعثري بأحد مواقع الهبوط أو الصعود التي لن أدركها.

كطفلٍ يتيمٍ اضطرَّ إلى أن يجوب أحد المحيطات كان شعوري ، أو كملاح فضائي أخذ يتهيب مع شيء من لذة الكشف ، تلك العوالم الخفية التي سيَلِجها للمرة الأولى بعد مغادرته الأرض . إنه فيما يتعلق بكَ والدي ، ليس هناك من مشكلة كبيرة لديّ ، لأنني إذا ما سقطتُ ، لا بد أن تنحني بحكمتك يوماً أمام ما فعلتُ ، برغم فيض الحنان والدموع الذي يختبئ في داخلك ، بل لا بد أيضاً أن تفاخر بكونك والدي . أما أنتِ أمي ، أمي التي لا تمتلكين إلا أسرتك وذلك القلب ، فماذا سيحلُّ بكِ فيما لو حدث ذلك ؟ أي شيء سيحول دون انتهائك ؟ هل سأكتب عليكِ الموت حيَّةً ؟ أمي ... لقد قررتُ ما قررتُ ، والآن أنفّذ ما أنفّذ ، فتوجَّهي وإن كنتِ غافلة عن خُطاي بالدعاء لأجلي ، أو أرسلي إلى روحي السلام والسماح إذا لم أصل إليكِ .. غفرانكِ أمي ... فما كان ينبغي لي أن أكافئكِ بمثل ذلك وأنتِ تسعين منذ عقدين إلى منحي الحياة ، لكن على أي حال إذا ما حدث ذلك ، فأنا أيضاً كم سأشتاقكم من هناك .

عليَّ أولاً أن أعبُرَ الطريق الطويل الممتد من محطة الباص القريبة من كلية الآداب ، إلى النقطة التي يتقاطع فيها شارع بغداد الذي أنا فيه الآن مع شارع بور سعيد ، لكن حين أصل إلى تلك

النقطة ، ينبغي أن أسرع قليلاً أو أعدو ، كيلا يلمحني خالي فهد من إحدى واجهتَي مخزنه الواقع على الشارعين المذكورين . ها أنا أعبُر، ها أنا أتقدَّم شيئاً فشيئاً بيسر زائد ودون عقبات .. من أخبَرَ العربات بشأني حتى أراها تسير بهذا الهدوء الملحوظ ؟ وصلتُ ، انتهت المرحلة الأولى الأكثر تعذراً ، انتهى الطريق الأكثر امتداداً ، وانكسر شيء من الرهبة التي انتابتني في البداية ، وإن كانت صعوبة أخرى تنتظرني قبل وصولي إلى البيت بقليل ، إذ ينبغي الانتقال من رصيف إلى رصيف ضمن ذلك الشارع العريض المزدحم دائماً بما اختلف من وسائل النقل ، لكن لأؤجل الآن التفكير فيه إلى حينه كما يفعل والدي حيال المشكلات . عدوتُ أمام مخزن خالي ، لا شك في أنه لم يلمحني ، إذ لم أسمعه يناديني . إذن الآن عليّ أن أنحرف نحو اليمين ، نحو شارع بور سعيد ، ثم ينبغي أن أنتقل إلى رصيفه المقابل ، لكن بعد أن أبتعد ما يكفي عن مخزن خالي. الآن أستعد للانتقال ، إن ذلك ليس مخيفاً جداً ، لكون هذا الشارع أقلَّ عرضاً وازدحاماً من الذي ينتظرني قرب بيتنا ، لكن عليّ أولاً أن أتأكد من عدم سماعي صوت عربة . اجتزتُ الشارع ، إذاً عليَّ الآن أن أسير على ذلك الرصيف حتى يتفرع من الجهة اليسرى ذلك الشارع الذي يوجد فيه بيت خالي أحمد ، لكن ليس ضرورياً أن أسرع أمامه أو أعدو لكون خالي في عمله ، ولضعف الاحتمال بأن تلمحني زوجته من شرفة طابقهما الرابع . وصلتُ إلى ذلك الشارع الفرعي ، إذاً عليَّ الآن أن أنتقل إلى رصيفه الآخر ، الأمر سهل أيضاً ، بل أكثر سهولة ، لكونه أقل عرضاً من شارع بور سعيد

السابق . انتقلتُ إلى الرصيف الآخر ، إذاً لأَسِرْ الآن حتى يتفرع من الجهة اليمنى ذلك الشارع الذي سيسلمني بعد قليل إلى الشارع الذي توجد فيه كلية العلوم . لم يحدث ذلك إلا بعد أن غاصت قدماي في تلة ترابية ، وحملتُ أطفالاً على النطق ببعض عبارات الدهشة .. على أي حال تلة واحدة لا تهمُّ ، مقابل ما كان ينبغي أن أصادفه بفعل قيام بلدية اللاذقية حينذاك بمشروع حفريات .. أين الحُفَر التي كانت تعترضني حين كنت أسير بمرافقة سواي ؟ وصلتُ إلى شارع كلية العلوم ، إذاً عليَّ الآن الانتقال إلى رصيفه الآخر ، ثم الاتجاه في سيري نحو اليسار حتى يقابلني ذلك الشارع المزدحم العريض الذي كان يقلقني طيفه منذ بدء سيري ، والذي يشكل في منطقة الأشرفية امتداداً للشارع الذي يوجد فيه سوق الخضار . وصلتُ إلى الشارع العريض ، من أنبأه أنني آتية حتى أراه خالياً كذلك ؟ إذ لا عربة ، لا باص ، لا دراجة نارية ، لا دراجة غير نارية ، لا شاحنة ، من أنبأه أنني آتية ؟ إنه خالٍ تماماً ، إلا من هذين الطفلين اللذين ألمحهما يقفان أمامي ، ويستعدان مثلي للعبور إلى الرصيف الآخر ، إذاً إن بإمكاني اللحاق بهما ، لحقتُ بهما ، أصبحتُ على الرصيف الثاني ، على الرصيف الذي ما عليَّ إلا أن أجتاز بضعة عشر متراً منه كي أصل إلى زقاق بيتنا . وصلتُ إلى الزقاق ، هل يعقل أنني وصلتُ إلى الزقاق ؟! أي محيط من الفرح يغمرني الآن ! لكن لا بأس ، لِيغرقْني هذا المحيط ، لِيقتلْني ، ما دام قد حلّ محل ذلك الآخر المرعب الذي تبدَّى لي في خطواتي الأولى . إذاً لأَسِر الآن بثقةٍ أكبر ، لأَعبُرْ بكل راحة وطمأنينة هذه

الأمتار القليلة المتبقية ، ريثما أنعطف نحو اليمين ، وأصل إلى الزقاق الثاني الذي ينتظرني فيه باب بيتنا ، إذ لا شيء سيحدث هنا إن شاء الله ، ما دام لم يحدث شيء هناك .

بهدوءٍ قرعتُ جرس الباب ، وبهدوءٍ دخلتُ ، لكن لا أدري كيف عرفَتْ أختي رندة أنني أتيتُ بمفردي ، لم يخبرها أحد ، كيف عرفَتْ؟؟؟ أمي ... هَدّئي من روعكِ قليلاً .. هَدّئي من روعكِ .. ما حدث قد حدث وانتهى ، ونصري قد حققتُ ، وإليهن الهزيمة وجَّهتُ، اهدئي – اهدئي ، ابتهجي كفاكِ صياحاً ونحيباً وصفعاً لجسدك الطاهر ، فها أنا أمامكِ ، أتيتُك سالمة كما عهدْتِني ، قد تكون هذه بالنسبة إليكِ المعركة الأكثر صعوبةً لكونها قد تعني الموت في حال الإخفاق ، لكن ألستُ الآن سالمة أمامكِ ؟ لا فائدة مع أمي ، لا فائدة ، لا في تلك اللحظات ، ولا عبر السنين التالية التي كان ينبغي أن تُنسيها ذلك الأمر شيئاً فشيئاً ، أو أن تخفف من سخطها على من دفعنَني إلى المرور به ، لا فائدة ، لذا لا أجد في هذه اللحظات سوى الانصراف عنكِ وعن ثرثراتكِ الغاضبة ، لكي أنتشي بعبارات التشجيع من هيام خطيبة خالي عهد ، التي كانت في بيتنا وقتذاك ، ثم لكي أُجري اتصالاتي الهاتفية الضرورية واللاهية ، ثم لأتخذ مع جدّتي هديّة ورندة أرجوحتنا الكبيرة ، مردِّدَةً مع المطربة صباح أغنيتها التي كانت حينذاك تنبثُّ من المذياع " زقفة يا شباب"، فأنتِ أمي لن تستطيعي مطلقاً الوصول إلى حكمة والدي الذي قال لي حين لقيني في مساء ذلك اليوم ، بلهجة امتزج فيها الحنان والفخر ، البهجة والحزن : ابنتي ... لقد أحسنتُ تربيتَكِ .

- ١٦ -

لم تثنِني ثورة أمي في ذلك اليوم عن تكرار قيامي بالأمر ذاته فيما بعد ، أمر سيري بمفردي ، وإن لم يتسَنَّ لي مرةً أخرى إتمام طريقي إلى بيتنا ، إذ ما لبثنا بعد فترة وجيزة أن سلّمناه إلى أصحابه الجُدُد ، لننتقل إلى بيتٍ لنا في منطقة المشروع الثاني التي باتت بعيدة جداً عن الكلية ، ذلك بعدما أخفقَتْ محاولاتنا الكثيرة في شراء بيت مجاور لها . لذا كنت أكتفي في مغامراتي بالوصول إلى مخزن خالي فهد، أو بيت خالي أحمد ، ذلك حين أضطرُّ إلى الاتصال بوالدي ، وإنبائه بانصرافنا المبكر ليرسل لي سيارة العمل ، وتُتِم طريقي إلى بيتنا الجديد ، على الأغلب بصحبة السائق وجيه سمرا الذي كان يبهجني في الذهاب والإياب بروحه التي امتزجت فيها الطيبة والفكاهة . فحين كان يأتي من أجل اصطحابي إلى الكلية ، لا يلبث أن يَلِج المطبخ ، ليتخذ رغيفاً كاملاً من الخبز ، ويبدأ بعد بسملاته بملئه بما يمكن ملؤه من طعام الفطور والخضار ، ويحصل في النهاية على تلك الشطيرة التي يمكن تصوُّر مدى بدانتها ، ويبدأ في السيارة بالتهامها قاذفاً بين الفينة والأخرى من النافذة ، ما يصطدم بأضراسه من نوى الزيتون الأخضر والأسود . وحين كان يأتي لاصطحابي من الكلية إلى البيت ، يجد أن عليه أن يبدأ بإطلاق صفارة السيارة من أول شارع بغداد إلى نهايته ، حيث أكون بانتظاره، فلعله يطمئنني بقدومه ، ويمزق أكبر قدر من شعوري

بالوحدة التي تكتنفني . ثم يرتئي بعد صعودي السيارة ، أن يرفِّه عن نفسي بما يُسمعني من آلة التسجيل من الأغنيات الجميلة ، مصاحباً أصحابها في أدائها والتصفيق على إيقاعها ، مقابل ما كان يُسمعني في أثناء الذهاب صباحاً من القرآن الكريم بأعلى صوت . وكلما كانت تعترض طريقه في أثناء سيره امرأة أو فتاة ، وجد أنه ينبغي أن يبهجني بمطالبتهن بالابتعاد من خلال ما يطلق عليهن من أسماء متنوعة : مطيعة – حنيفة ، مما جعل والدي الذي كان يصطحبنا ذات يوم ، يظن أنه يعرف إحداهن . أما في أيام الامتحانات ، فقد كان يسبقني لدى العودة منها إلى تبشير والدتي بجودتها من خلال تلويحاته الحماسية قبل نزولي من السيارة .

لكن خلال عشرات المرات التي سرتُ فيها بمفردي ، كان لا بد أن يصطادني بعض الأحيان من كان يصادفني من الأقارب والأصحاب . فحين أصررتُ في اليوم التالي من سيري الأول على فعل ما فعلتُ بالأمس ، أصرَّ رامي أزهري أحد زملائي في جمعية المعوقين التي كنت قد انتسبتُ إليها مؤخَّراً ، على أن يرافقني على ذلك الدرب الطويل من الكلية إلى بيتنا القديم ، مسكوناً بدهشته السرية التي انتابته حين التقاني بمفردي ، مدَّعياً لدى تحفيزه على أن يتركني وشأني ، أنه يرغب في السير . لكن حان الوقت الآن لكي أقول من هنا لزميلة لنا من الجمعية ذاتها ، حين التقتنا أنا ورامي في طريقنا ، واستقبلتنا وفق ذينك العبوس والفتور : إننا لم نكن حينذاك نتنزه .

وهرعَ في يوم آخر صديق والدي السيد عابد منيِّر ، إلى إصعادي سيارته ، بعد أن نبهته زوجته التي وجدتني من خلال شرفة بيتهما الواقعة على ذلك الطريق .

وما كدتُ في يوم آخر أبتعد بضعة عشر متراً عن الكلية ، حتى فوجئتُ بشخص يقترب مني بدرّاجته النارية ، وما كدتُ أرتعد من طيفه ، حتى أدركتُ أنه أحد زملائي في الكلية ، يعرض عليَّ مساعدته وفق تلك اللهجة التي لا أنسى ما كانت تنطوي عليه من عطف وحزن . مَن هذا ؟ قلتُ لنفسي ، أليس هو من فئة أخرى سوى التي تشاركني في الانتماء إليها ف م و ف ا والمحرضة ف ؟ كيف وثب نحوي من ذلك الحاجز الذي يتبجح الكثيرون بقيامه بين البشر ، وبتفوقه في حدته على الحواجز الأخرى المتنوعة ؟ من أي نقطة عَبَرَ إليّ ؟ من أبينا الواحد على هذه الأرض ؟ من طينتنا الواحدة ؟ من دمعتنا الواحدة ؟ إذاً أيتها الأرض : لِيشتعلْ ما يشتعل عليكِ من حروب ، لِيضجّ ما يضجّ من فتن ، فإن نفسي تعلن إليكِ الآن اكتمال دخولها في السلام ، السلام في موقع التقوى ، حيث يتقارب البشر ، وتتآلف الجماعات ، وتتقشر من كل ما أتحفَتْها به العصور من شقاقات ، لكي يلتقي الضوء والضوء ، الجوهر والجوهر ، المحبة والمحبة . أما أنتِ أيتها الحواجز ، فلم تعودي في منظوري هنا ، إنك أصبحتِ هناك ، حيث لا يشرق الإنسان مع الإنسان بروحٍ واحدة ، بلغة واحدة . وأنتَ أيها الزميل ، أيها الذي لم أعد أتذكر اسمك : من هنا أناديكَ : أنتَ أخي – أنتَ أخي ، فامحُ من عائلتي الجامعية أسماء تلك الزميلات الثلاث .

أما زميلي الآخر محمد فضليّة ، فلم أتمكن من رفضي الشاكر عرضه بمرافقتي ، ما دام قد توجَّه إليّ وفق تلك الصيغة التي لا أنسى مدى اكتنازها بتلك البراءة الطفولية ، مسائلاً ما إذا كنتُ أسمح له بإيصالي إلى المكان الذي أريد ؟

وحين عدتُ ذات يوم من مخزن خالي فهد إلى الكلية ، بعد أن قضيت عنده ما يقارب الساعة ، ريثما يحين موعد المحاضرة التالية، رحتُ أسائل نفسي : إذا ما كنتُ أنا قد امتلكتُ بفعل ظرفي الإصرار والشجاعة هذين ، للقيام بما أقوم به الآن ، فمن أين أتت الشجاعة لخالي لكي يسمح لي باقتحامي مجدداً هذا الخطر وفق هذا اليسر ؟ لكن لم أكن أدري إلا لدى بدئي بكتابة هذه الأوراق ، أنه حينذاك أغلق مخزنه ، وأخذ يتبعني سراً ، وخطوة خطوة ، حتى وصلتُ إلى مبتغاي . لكنه حين اكتفى باتباعي ، لم يصدر عما صدرت عنه زميلة أختي منى حكيم ، التي خشيَتْ ذات يوم من الانتقال من ورائي إلى جانبي ، والتحدث إليّ ، لاعتقادها أنني سأصرخ بها في هذه الحال كما أشاع عني أحدهم أو إحداهن .

أما أنتِ أيتها الزميلة ف ا ، فهل تتذكرين في يوم من تلك الأيام، كيف جعلتُكِ تصلين إليَّ راكضةً لاهثةً ؟ وحملتُكِ على أن تكسري قطيعتك معي ، بما عبّرتِ عنه من الهلع عليّ ؟ ذلك حين رأيتِني من بعيد أنتِ و ف م أسير أمام الباص المستعدّ للانطلاق . هل الآن فقط استيقظ حسُّكِ الإنساني ؟ أين كان نائماً بالأمس ؟ أين كان نائماً في ذلك العام الجامعي الأول ؟ حين كنتِ منذ أيامه الأولى تسعين بحماسك ذاته الذي أراه هذه اللحظات ، إلى سحب

الذراع التي كانت تساندني ، وإلى تجريدي من طمأنينتي التي ما كانت ستكلفك أي جهد ؟ أَمَا كنتِ تفكرين حينذاك بمصيري الذي سأنتهي إليه ؟ أو الذي ستنهينني أنتِ إليه ؟ إلام كنتِ تهدفين ؟ إلى قتلي وحيدةً وسط العباب الذي سيكتنفني من كل جانب ؟ إلى اضطراري للمكوث في البيت ؟ إلى معاقبتي على عاهتي التي لم يكن لي ذنب في تكوينها ؟ أم إلامَ ؟ لا بأس أيتها الزميلة ، رافقيني الآن إلى خالي ، فأنا لن أجرحك بالطرد ، ولا بكلمة واحدة مما أقوله لنفسي الآن ، لكن حبذا لو تعلمين أنني ما كنتُ بحاجة إلى إتعابكِ، لأنني لمحتُ الباص ، أو لأن الباص وإن دهسني فهو سيكون أكثر رحمة منكِ .

كما كان ينبغي خلال عشرات المرات التي سرتُ فيها أن أتعرض لبعض الأخطار، ما دام يتعرض لها سليمو البصر ، لكن ذلك لم يكن إلا في مرتين : أما في المرة الأولى ، فبعد أن غادرتُ أختي رندة التي دخلَتْ كليتها الواقعة على شارع بغداد ذاته ، وتابعتُ طريقي نحو كليتي ، وحين كنتُ أنتقل من رصيف إلى رصيف عبر الشارع الفرعي الأخير والأعرض ، حدث أن سمعتُ صوت شاحنة كبيرة يتقدم بسرعة نحوي . لم أدرك حينذاك ما إذا كان عليَّ أن أعود إلى الرصيف الخلفي ، أم أتقدّم إلى الأمامي ، لعدم إدراكي أي مسافة هي الأقصر ، لكن حين خطر ببالي في تلك اللحظة بغتةً ، أن من عادتي التقدُّم لا التراجع ، اخترتُ الأمامي راكضةً ، فنجوتُ بعد لهاث وإحساس بالخطر لا ينبغي إخفاؤه . أما في المرة الثانية ، فحين كنتُ ذاهبة إلى بيت صديقتي ليلى ، بغفلة عن أمي التي

كانت في زيارة ، وحين كنت أقطع الشارع العريض المزدحم الذي أقلقني في أثناء سيري الأول ، لم أجد إلا قد التصقَتْ بي دراجة نارية ، ذلك بعد أن لاحظتُ ارتباكاً في حركة السير ، ربما أكون أنا التي تسببتُ في حدوثه .

- ١٧ -

لقد رأيتُ طيف فتاة تقف غير بعيدة عني ، قبل أن تصبح أمام مقعدي ، وتلقي عليَّ تحية الصباح ، وهي إن دلّتْ بوقوفها غير البعيد ذاك على شيء من التردُّد قبل اتخاذها هذه الخطوة ، والحذر من اتخاذي موقفاً سلبياً حيال مبادرتها ، فإنني – أنا الأخرى – تردَّدتُ قليلاً قبل التأكد من أنه صوتها ، صوت ف م ذاتها لا صوت سواها ، كيف أتت ؟ لماذا ؟ من دفعها ؟ أو ما دفعها ؟ ألم تتأخّر عليّ ؟ ألم تتأخّر كثيراً ؟ العام الدراسي يكاد ينتهي ، على أي حال رددتُ تحيتها بمثلها ، أو بأحسن منها . مُحْرَجَةً هنَّأتني بنتائج الفصل الأول ، هل أتت فقط لتهنِّئني ؟ أم لتمحو أمراً ؟ مُحرَجَةً جلست بجانبي ، وأشارت باقتضاب إلى ظروفها القاسية التي مرت بها ، ظروفها التي لم تَحُلْ بينها وبين أي واحدة سواي ، لماذا كنت أنا ، أنا تحديداً ضحية تلك الظروف ؟ أي ذنب اقترفتُه حيالها ؟ أي جهد كنت أكلفها به سوى أن تقرع جرس بابنا الذي كان يقع على طريقها ؟ على أي حال ، من يمتلك مثلي القدرة على تحدّي تلك الصعاب ، ينبغي أن يمتلك ما يماثلها لمنح السماح ، وخصوصاً

لمن يطلبه بصورة صريحة أو مبطنة ، أو للطيبين مثلها ، ولا سيما أنها بطيبتها تلك فعلَتْ ما فعلَتْ ، واستدارت كيفما شاءت لها زميلتها ف ا ، لأن التصميم حتى على ما هو خير ، يتطلب شيئاً من الصلابة التي لا تمتلكها ، الصلابة التي وجدتُها نابعة من ذاتي حيال ذاتي ، حين صمَّمتُ على اقتحام الطرقات والعربات والدراجات والباصات والشاحنات ، دون مبالاة باحتمال رميها لي في التهلكة ، متجاوزةً مصير أسرتي فيما إذا حدث ذلك ، وقلقها فيما إذا نجوتُ ، أو متجاوزةً أحاسيس أختي الطفلة رفيف ، التي كنتُ أضطرها إلى البكاء كلما دخل المساء بيتنا ولم أعُدْ إليها .

على أي حال ، ما كان من داعٍ لكي تصاب صديقتي في تلك الدقائق ، بذلك القدر من الحرج والخجل ، إذ لديّ من الرحمة ما يكفي لمن يشاؤها من البشر ، الرحمة التي عزَّزها في نفسي زميلي صاحب الدراجة ، وكذلك انتسابي إلى جمعية المعوقين ، التي أراها وقد خرَّجتني من نرجسيتي ، من تجربتي وآلامي وأفراحي الذاتية ، ووجَّهَتني بكلمة المحبة التي أُضيفت إلى معجمي ، وببحار الضوء التي حلّتْ في جسدي محلّ دمي ، وبما استعدتُ من روحي الطفولية، إلى تجارب الآخرين وآلامهم وأفراحهم التي تعدَّدَتْ تعدُّدَ الحَكايا ، وتَلَوَّنَتْ تلوُّنَ الأزهار والطيور ، واغتنَتْ غناء البحر ، لأنتهي بها مجتمعةً إلى ذاتي ، وتجعلني أرى في كل منها ما يخصُّني كما يخصُّ سواي ، وتحوُّل عينيّ اللتين كنتُ أحرص على إبقائهما صحراء جافة من دموع الاستسلام ، إلى ينابيع ثَرَّة مستعدة دوماً لكي تتدفق أمام أي صورة مؤثرة ، قريبة أو بعيدة ، إنسانية أو

طبيعية ، ذلك كما حدث حين خرجتُ ذات أمسية ربيعية إلى حديقة منزلنا الجديد ، إذ لم أستطع أن أعبِّر عن إحساسي بروعتها ، وعن شكري لله الذي أبدعها ، إلا بتلك الدموع السرِّيَّة التي ظللتُ أراها غريبة ، إلى أن أنبأني خالي عهد بمروره بحالة مماثلة حين كان في أحد مصايف لبنان .

لقد التقيتُ في تلك الجمعية ، إخوتي المعوقين ، الذين وجدتُ فيهم إخوتي وظلالي المتناثرة عبر ما هو أبعد من بقعة ظلّي ، والذين كنتُ أشهدهم ، وهم يعالِجون مثلي أو أفضل مني ثقل خطواتهم وصقيع حياتهم ، بالبهجة والتفكّه والغناء . كما التقيتُ في تلك الجمعية ، إخوتي غير المعوقين ، الذين لم يتحرّجوا في ذلك المكان أيضاً ، شأنهم شأن المعوقين ، من أن يشرّعوا أمامي أبواب آلامهم وأحزانهم ونواقصهم ، التي وجدتُ فيها ما جعلهم معوقين من نوع آخر . كما التقيتُ زوج رئيسة الجمعية السيد مايك عبد الله ، الذي شكَّل بالنسبة إليَّ الأديب الحقيقي ، الأديب الذي استطاع بمفرده دون سواه أن يسلِّل إلى داخلي يوماً بعد يوم ، قطرة فقطرة من تلك الروح الإنسانية النورانية العالية ، بما كنتُ أشهد من منحه الآخرين من جيبه وقلبه ولغته السامية ، لغته التي لم أسمع ما يماثلها من أثمن الكتب ، ولا من أثمن الكتّاب ، والتي كان يتوجَّه بها إليَّ بصورة خاصة ، ربما لإدراكه أنني أكثر تلامذته تلهُّفاً إليها ، واستيعاباً لها : " الناس مرآتك ، على وجوههم يُرسَم ما يُرسَم على وجهك وقلبك – ارمِ بهفوات الإنسان بعيداً ، فما يهمُّ هو جوهره " . هذا بالإضافة إلى ما كان يدفقه عليّ بين الفينة والفينة من عباراته

الأخرى الكثيرة ، التي تمثَّلَتْها روحي ، ولم تعُد تتذكر صيغها الحرفية ، كما التفاحة التي لا تبقى تفاحة بعد ولوجها الجسد . عباراته التي كانت تأتيني بتلك البساطة التي لا تريد سوى دخول الأعماق وتحريك الأحاسيس ، متجاوزةً العمودية والحداثة ، الشطر والسطر ، العروض والغموض ، الصورة والأسطورة . وإلى ذلك أضيف ما رُفِدَتْ به لغتي وروحي ، من تلك القطعة الأدبية الرفيعة ، التي شكَّلَتْها وصيَّة أحد القائمين على الجمعية في دمشق ، والتي لم يستطع أن يقرأها عليَّ أحد الأعضاء إلا باكياً ، إذ ضمَّنَها تبرعه بعد وفاته بكل أعضاء جسده لمن يحتاج إليها .

وبذلك غدوتُ وقد تعلمتُ من تلك الجمعية ، ما لم أتعلمه في بيتٍ أو مدرسة أو جامعة . إنَّ من أرض تلك الجمعية التي شكَّلَتْ بالمصادفة ، المقر الذي قضيتُ فيه السنة التمهيدية في ثانوية الكرمل ، تيقَّنتُ من ضرورة امتلاك الأديب التجربة العميقة أو ما ينبغي أن يقول ، قبل امتلاكه القلم ، والقدرة على رصف الكلمات . إنَّ من تلك الجمعية ، امتلكتُ القدرة على التأمل والغوص ، فتشكلَتْ لديّ تلك النظرة الشاملة العميقة إلى الله ، إلى الإنسان والكائنات ، إلى الطبيعة والحياة ، إلى الأشياء والسماء ، فتجمَّع ذلك كله في نقطة واحدة تتوسطني ، لتبثّ ما تبثّ من قوة الدفء والضوء عبر أرجائي ، وأرجاء الكون . إنَّ من تلك الجمعية تعلمتُ كيف ينبغي ألا أخاف الموت ، بل أن أطمئن إليه ، ما دام بإمكان الإنسان أن يكتب لنفسه الخلود ، بما يترك خلفه من ظلال مضيئة عطرة . إنَّ من تلك الجمعية ، تابعتُ ما علّمني إياه زميلي صاحب الدراجة ،

ذلك من تخليص الإنسان من طبقاته المظلمة الدخيلة : وطنه ، لونه، جنسه ، مذهبه ، طبقته ، أسرته ، حتى الوصول به إلى جوهره الذي ربما يتكشَّف عن درة ثمينة ، أو إلى طينته الأولى التي تجمعني وإياه في ظلّ أبينا الأول .

وها أنا الآن ، ها أنا الآن أُخلِّصُك صديقتي ، وألامس درتك مستبعدةً كل ما رميتِه أنتِ منذ لحظات ، من ظروفكِ ، ومما هُمِسَ إليكِ بشأني ، فمرحباً بكِ ، مرحباً باستئناف صداقتنا . لكن أصرح لنفسي لا لكِ ، بأنني لم أعُد الآن بحاجة إليكِ ، فمتى أشاء أستطيع الذهاب والإياب بمفردي ، ومتى أشاء أستطيع استخدام سيارة والدي التي أصبحت مؤخَّراً من حقه بصورة قانونية شملَتْ جميع مدراء الدوائر . وفي محاضرات المساء ، لا زلت أبتهج بصداقة إيمان إسماعيل ، ونعود منها ونحن نغني ، على الطريق نغني ، ونقطف بعد استئذان أصحاب الحدائق الأزهار . وفي محاضرات الصباح ، انتقلَتْ زميلتنا أمل سعيد من الجامعة اللبنانية إلى جامعتنا ، لتملأ فراغي الذي كنت أعيشه قبل قدومها ، وتبدِّد وحدتي بإخلاصها العميق ، وطيبتها التي لا تنصت إلا إلى صوتها ، ولتضيف واحدة جديدة إلى الصديقات الخيّرات اللائي التقيتهن على دربي الطويل . لم أعد الآن بحاجة إليكِ كما كنتُ في العام الماضي ، أو كما كنتُ في ذلك اليوم منه ، حين خرجتِ من المحاضرة قبل انتهائها بصحبة ف ا دون أن تُعلماني ، وبقيتُ بعد انتهائها أنتظر قدومكِ ، فلم أشهد تلك القاعة إلا وهي تفرغ ممن فيها شيئاً فشيئاً ، حتى كادت ترعبني بخلائها ، لولا أن أسرعَتْ إليَّ زميلتنا رويدة لطّوف ،

وأخبرَتْني بما فعلتُما ، وأبدت استعدادها لإيصالي إلى بيتنا الذي لا تعرف موقعه ، ذلك قبل أن تعثر عليكما في النهاية تستجمان في مقصف الكلية .

– ١٨ –

أما بالنسبة إلى ما اتصل بالكلية من المجال الأهم ، المجال الدراسي الذي أخّرتُ التحدث عنه لانشغالي بما كان بالنسبة إليَّ هو الأهم ، فقد نبَّهَتْني السيدة خديجة كنيفاتي ، مُدرّستي للغة العربية في الثاني الثانوي وصديقة الأسرة ، منذ أيامي الجامعية الأولى ، إلى ضرورة عدم الاكتفاء بمحاضرات الأساتذة ، إنما الانكباب على المطالعات الكثيرة ، وغرف ما أمكن من بحار الأدب الثرية ، بغية توسيع آفاقي، والإمساك بالأمر الوحيد الذي سيميِّزني عن زميلاتي وزملائي . كما أضيفُ بهذا الصدد ، ما أقنعني به قدوتي طه حسين، من خلال مقدمة كتابه " في الأدب الجاهلي " ، ذلك حين وضّح لطلابه ضرورة إغناء دراستهم للأدب العربي ، بما تنوَّعَ من المعارف الأخرى كاللغات والآداب الساميّة والتوراة والأناجيل واللغتين اليونانية واللاتينية وآدابهما والحضارتين اليونانية والرومانية واللغة والأدب الفارسيين ولغات الغرب وآدابهم ومناهجهم . علماً أنني حين أتممتُ قراءة هذا الكتاب ، صمَّمتُ على الردّ عليه في دراساتي العليا، نظراً لِما وجدتُ فيه من الإجحاف بحق هذا الأدب ، وإن لم تكن حينذاك قد تشكَّلَتْ لديَّ بعدُ الوسائل الدفاعية الموضوعية .

وهكذا كنتُ ألجأ في أثناء كل محاضرة إلى تسجيل النقاط الرئيسة المتصلة بها ، ضمن مساحة لا تتجاوز بضعة أسطر ، وألجأ إلى حفظها ، واستيعاب ما فصّلَ المحاضِر حول كل منها ، ليتكوَّن لديَّ في النهاية الاستعداد لإعادة ما سمعتُ ، كما كان يحدث في محاضرات الدكتور سامي عوض . وحين أعود من الكلية ، ألجأ إلى التوسُّع في المعلومات المتصلة بهذه المحاضرة من خلال الاستعانة بدفاتر بعض الزميلات ، التي كُتِبَتْ عليها بصورة مفصَّلة، مُتْبِعَةً ذلك بالعودة إلى الكتاب المقرَّر ، ثم إلى الكتب غير المقرَّرة ، مستمرةً بهذا الصدد في الاستعانة بقراءات أمي الطويلة ، أمي التي كانت تحملني على الرأفة بها ، لكثرة ما كنتُ أضطر إلى إجهادها إلى جانب ما تبذله في البيت ، وتحملني الآن على الشعور بغير قليل من الذنب ، وأحياناً على البكاء ، برغم ما كانت تُظهِر لي من الغبطة حيال ما تقوم به ، أو برغم أنها كانت مستمرة في تلقّي المساعدات من والدي وأخويّ ، ومن جارتنا هالة ، حين كانت تزورنا في بيتنا الجديد الذي أصبح بعيداً عن بيتها ، ومن زوجة خالي سعد عائشة مطرجي ، التي أبَتْ أن تقضي زياراتها لنا في أيام خطبتها وأيام زواجها الأولى ، إلا في الإقدام الحماسي الذي لا يمكن ردُّه ، على ما يمكنها تحصيله من قراءة الصفحات الكثيرة لي ، إضافةً إلى ما كانت تقوم به في بيتها من نسخ أبحاثي المقرَّرة ، وإن كان ذلك يكلفها أحياناً السهر الطويل والاستيقاظ الباكر . كما أنه ربما خفَّفَ على أمي من جهودها التي كان من الممكن أن تصبح مضاعَفَةً،

الاستجابة لاقتراح خالي أحمد باللجوء إلى آلة التسجيل ، التي أسهمت في احتفاظي بما تقرأ عليّ ، وعدم الحاجة إلى تكرارها إياه .

ومن خلال ما تقدَّم ذكره ضمن هذا المجال الدراسي ، انتهيتُ إلى عدم حصولي على الدرجة الأولى على دفعتي خلال السنوات الجامعية الأربع فحسب ، إنما على الدفعات جميعها التي مرت على قسم اللغة العربية في جامعة اللاذقية ، منذ نشأته حتى عام تخرُّجي ١٩٨٣ .

كما قد أستطيع أن أضيف بشأن الفترة الأخيرة من المرحلة الجامعية ، ما بدأتُ أحظى به من اعترافات صديقتي ف م الصريحة الباكية ، بالندم الكبير على معاملتها السابقة لي ، وما أتبعَتْ به هذه الاعترافات من مقاطعتها النهائية لصديقتها ف ا ، ووصولها إلى عدم التمكُّن من تذكُّر صداقتهما ، أو من النطق باسمها ، مقابل بدئها في إظهارها لي من المحبة والوفاء العميقين اللذين لا يزالان قائمين حتى هذه اللحظات .

- ١٩ -

على الرغم من اليأس الذي كان ينتابني بصدد تعييني معيدة ، استجبتُ بعد شهر من تخرُّجي ، أو بالأحرى في أيلول ١٩٨٣ ، لإعلان وزارة التعليم العالي عن حاجتها إلى معيدين . علماً أن يأسي هذا بدأ بولوجه نفسي ، حين استيقظتُ ذات ليلة من السنة الجامعية الأخيرة التي كنتُ أمتلئ فيها أحلاماً وتفاؤلاً بمستقبلي ،

على صوت والدي نصف المتهدج ، وهو يعبّر لجيران كانوا في بيتنا عن حزنه وتأثره العميقين ، لاحتمال تعذر تعييني بسبب وضعي الصحي ، وما يعني هذا من عدم استقبالي محاضِرة في الكلية ، فيما إذا أنجزتُ دراساتي العليا ، وحصلتُ على درجة الدكتوراه .

لم أعلق في اليوم التالي بكلمة واحدة تثبت ما سمعتُ عن والدي، على الرغم من عنف الصدمة التي تلقّيتُها ، والتي أشعرَتْني بأن كل ما بنيتُه وأسرتي ، لم يشكل سوى صرح من رمال ، يمكن أن يهبط في أي لحظة أمام رياح الجحود . لكن قدراً من الثقة بالنفس ما لبث أن عاد إليَّ ، حين قرأ عليَّ والدي ما كتبه من تلك النبذة عن حياتي في الاستمارة التي طُلِبَ منا ملؤها لهذا الغرض ، إذ شعرتُ باحتمال تقدير الوزارة لتجربتي التي تم عرضها وفق تلك السطور القليلة المضيئة ، وإمكان مكافأتها لي بتشريع باب الكلية على اتساعه أمامي .

ويأتي الحادي والعشرون من آذار ١٩٨٤ ، ليحمل الأستاذ محمد حاتم إلى بيتنا تلك البشرى من شقيق زوجته ، الذي كان يعمل في القيادة القطرية حينذاك ، ويقدِّمها الهدية الأثمن إلى أمي في يوم عيدها . وهنا استغلَّ أخي عُمَر انشغال أمي بفرحها الكبير ، وبالضيف الذي ازداد تقديرها له ، ليسبقها إلى الاتصال بي إلى بيت جدي، وليلقي إليَّ بذلك النبأ من خلال مساءلتي ما إذا كنت أرغب في أن أصبح معيدة أم لا ؟ أجبتُه على الفور ، أجبتُه بذلك الذي لم أستطع التعبير عنه إلا بتلك الوثبات ، تلك الدموع ، تلك الضوضاء التي ما لبثَتْ أن حلّقَتْ من حولي أسرة جدّي ، مستفسرين ما إذا

كان الذي علمتُه فرحاً أم فاجعة ؟ إنه الفرح ، إنه الفرح أيها البشر جميعاً ، بتلك الثمرة التي أجنيها الآن بعد طول تخبّطها عبر ذلك الظلام ، إنها اللحظة التي يتوثق فيها صدق ظني بأصداء الاستمارة، وتتبعثر فيها مخاوفنا التي ما لبثَتْ أن تكشّفَتْ عن أوهام سرابية ، عن أشباح كاذبة قد فرَّتْ خجولةً أمام خُطانا ، أمام ذلك الصرح الذي سرعان ما نفض عنه رماله ، وأبى إلا أن يكون من صخر ، من ضياء .

كان ينبغي بعد نجاحي في مقابلة اللغة العربية التي أُجرِيَتْ للمقبولين في دمشق ، أن تتلقّى جامعتنا من وزارة التعليم العالي قرارات تعييننا . وهكذا تم تلقّيها الواحد تلو الآخر ، والاثنين تلو الاثنين ، والثلاثة تلو الثلاثة ، باستثناء قراري أنا . اعتقدنا للوهلة الأولى إمكان تسلله إلى مكتب من الكلية أو رئاسة الجامعة ، واختبائه بين أوراقٍ ما ، لكن حين لم تُجدِ جهود الموظفين والموظفات في البحث والتنقيب عنه ، أسرع والدي إلى دمشق ، ليستفسر عن الأمر ، وليتحقق من الأوهام التي ما لبثَتْ أن عاودَتْه، برغم عثوره على نص قانوني يقضي بإمكان تعيين المكفوفين في المدارس أو المؤسسات التربوية أو الجامعات .

وهكذا إلى أن أتاني اتصال والدي الهاتفي من هناك ، في الثاني من حزيران من العام ذاته ١٩٨٤، ليلقي إليَّ من صوته كليٍّ التهدُّج بالنبأ الرهيب . إنها قضية الشهادة الصحية ، الشهادة التي التقطوها غانمين من بين أوراقي ، ووجدوا فيها ما يحُول بيني وبين المنبر الجامعي ، الذي لم يُستبَعَد منه طه حسين في بدايات القرن . إنها

قضية تجربتي ، تجربتي التي ينبغي أن تذهب هباءً برغم ما حققتُ، وأن تلوّح للآخرين الذين يتبعونني ، بضرورة العودة إلى منازلهم ، والانكفاء على الظلمات التي حبَتهم بها الحياة ، ذلك ربما لاعتقاد الوزارة أن المحاضرات والدروس تُلقى من سلامة الجسد دون سلامة العقل والقلب . إنها قضية القَدَر ، القَدَر الذي ينبغي أن يرسل إليَّ بين الحين والحين من يزلزلني بنظراته الجاحدة ، ويحاول هدمي بفؤوس قسوته ، وكفره بطاقات الإنسان .

وضعتُ سماعة الهاتف قائلةً لنفسي : ينبغي أن أتماسك كعادتي أمام الملمات ، لكن حين ما لبثتُ أن تذكَّرتُ صوت والدي ، وما نمَّ عليه من فداحة الأمر ، ما لبثتُ أن وجدتُ ضرورةً في أن أنهارَ ، وإن أدى ذلك إلى إخافة أختي الطفلة رفيف ، إذ إنني حينذاك لم أترك صرخة في حنجرتي إلا أطلقتُها ، ولا دمعة في عينيّ إلا ذرفتُها، ولا صحيفة أمامي إلا مزقتُها ، ولا شيئاً يمكن أن يُحمَل إلا رميتُه ، ولا جملة عشوائية وغير عشوائية إلا نطقتُ بها . ماذا يريدون ؟ عينين سليمتين ؟ يدين سليمتين ؟ رجلين سليمتين ؟ إذاً ماذا بالنسبة إلينا نحن ؟ ماذا بالنسبة إلى قدراتنا الأخرى ؟ وإنجازاتنا التي حققنا ؟ ماذا ؟ أبَعْدَ كل هذا لم أنل رضاهم ؟ ما ذنبي في صنع ما لم يُرضِهم مني ؟ أو ما قيمة وجودي بعد ذلك ؟ أي فراغ أصبح يكتنفني ! أي اختناق ! أليس هذا هو شعور الطفلة الجاهلية ما بين وأدها وقضائها ؟ البيت لا يسعني ، إلى أين أذهب ؟ سأخرج إلى الشارع ، سأُعلِم المارّة جميعاً بما حدث . أمسكت بي أمي ، ونحيب أختي رفيف الذي أخذ يتعالى ، وا خجلي منكِ رفيف ، من خُطاك

على طريقي ، وا خجلي منكم أيها المعوقون جميعاً ، وا لهفتي إليكم عظماء العالم منهم ، أين أنتم الآن ؟ لماذا رحلتم قبل أن تعلموا بما سيحدث لي ؟ وتركتموني بين هاتين الضعيفتين ؟ بين حنان أمي اللامتناهي ، وطفولة رفيف ، وفوق ذلك بعيداً عن صمود والدي ودموعه ؟

ما هذا ؟ أخذ يصيح بهم حينذاك والدي متنقلاً من مكتب إلى مكتب داخل الوزارة وخارجها ، أي تمييز عنصري تمارسونه أنتم الآن ؟ أليس هذا تمييزاً عنصرياً يشمل المعوقين والسليمين كما يشمل البيض والسود ؟ أبدلاً من أن تتجاوزوا القانون فيما لو وُضِع لغير صالحها ، وترحّبوا بها ، تتجاوزون ما وُضِع لصالحها من أجل نبذها ؟ أرشدوني إلى الطريقة التي ينبغي أن أنبئ بها ابنتي بما قررتم ... ثم ختم ثورته عليهم بقوله : قد أستطيع أن أقول لابنتي ما ينبغي قوله ، لكنني لا أدرك ماذا ينبغي أن أقول للمكفوفين ...

هدَّأَ من روعي قليلاً ، أو من جنوني المؤقت الذي ظننتُ وقوعي فيه ، اتصال والدي الثاني بي مساءَ ذلك اليوم ، ذلك لما أوصل إليَّ من استعادة تماسكه وصموده ، ومن تبصيري بمستقبل تجربتي التي لا بد من أن تُكتَب يوماً بحسب تعبيره ، ومِن وَعْده بما سيَبذل من جهود إزاء هذه القضية ، إلى أن يتم ما نريد . كما أسهم في تهدئتي تعاطف الناس الطيبين الذين بدؤوا يتلقّون النبأ واحداً بعد الآخر ، ويوماً بعد يوم ، ويعبّرون عما تنوع من ردود أفعالهم السلبية ، ذلك كالأستاذ حنّا مينه ، الذي أخذ يذرع مكتبه أمام والدي جيئةً وذهاباً ، مخللاً فعله بما كثر من عبارات الغضب والاستهجان . وكذلك

الدكتور عبد الكريم حسن ، الذي عبَّرَ عن امتعاضه وتأثره بما تلاءم وهدوء طبعه . هذا بالإضافة إلى ما فاجأتنا به زوجته الدكتورة سميرة بن عمّو ، حين استسلمَتْ لبكائها ، نظراً لما يوحي به طبعها من الاحتفاظ بعواطفها ، وقد صدر عنها ذلك مرتين : الأولى حين اتصلت بها أمي هاتفياً في تلك اللحظات السود ، والثانية حين قامت وزوجها بزيارتنا . وكذلك الدكتور سمير كجّو ، الذي استنكف في اليوم التالي عن إلقاء محاضرته على زملائي في الدبلوم ، بعدما أُنبِئَ عن سبب تغيُّبي ، والذي انشغل عوضاً عن ذلك بالاستسلام لغضبه والتحاور مع عميد الكلية بشأني . أما الدكتورة سلوى الخيّر ، التي آن الأوان أن أُوضِّح موقفها الإنساني الرائع الذي سبق أن أشرتُ إليه ، فما إن أنبأها الدكتور عبد الكريم حسن ، في صباح اليوم التالي بما حدث ، حتى وظَّفَتْ ما بدر عنها من ثورة وحماس شديدين ، في جمعها أساتذة القسم مساءً في بيتها ، بغية التفكير في الخطوة التي ينبغي اتخاذها من أجلي ، متجاوزةً معاناتها من مرضها الخبيث ، وانتهت وإياهم إلى إمكان توجيه رسالة مفتوحة إلى وزير التعليم العالي ، ثم تم العدول عن المفتوحة إلى المغلقة التي قد تحُول دون ردة فعل سلبية ، وتجدي النفع الأكبر لي . وهذا نص الرسالة :

(رسالة من أساتذة قسم اللغة العربية في جامعة تشرين إلى الأستاذ الدكتور وزير التعليم العالي

سيادة الوزير :

يسرُّ أساتذة قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة تشرين أن ينقلوا إليكم رأيهم في قضية يشعرون بأنها تعنيهم بمقدار ما تعني صاحبتها الآنسة " ريم هلال " ، التي تخرَّجت من القسم المذكور في عام ١٩٨٢ – ١٩٨٣ بتقدير امتياز وبمعدل ٨١.٩١ **%** .

ولما كانت القضية العلمية تشكل محور الحياة الخاصة والعامة للآنسة المذكورة ، فلقد تقدّمَتْ بطلب لتعيينها معيدة في قسم اللغة العربية في جامعة تشرين ، لمتابعة تحصيلها العلمي مستندة في ذلك إلى كونها قد حازت الدرجة الأولى على امتداد السنوات الدراسية الأربع .

وبعد أن أبلغتها وزارة التعليم العالي في كتابها رقم ٤٩٨٧ / و ٤ تاريخ ٢٨ / ٣/ ١٩٨٤ بقبول تعيينها معيدةً ، فوجئَتْ بالتراجع عن إصدار القرار ، وتبيَّن أن الأمر يتعلل بكونها كفيفة .

ولما كان أساتذتها الذين أنفقوا سنوات أربعاً في إعدادها العلمي ، قد لمسوا لديها موهبة واعدة ومقدرة على البحث ، فإنهم يجدون من واجبهم العلمي والإنساني أن يدلوا برأيهم في هذا المجال ، وهم يعرضون ما يلي :

- إن الآنسة ريم هلال حاصلة على الإجازة بتقدير ممتاز وهو تقدير نادر .
- إن الآنسة ريم تتمتع بموهبة مبشّرة ومقدرة طيبة على البحث العلمي ومتطلباته ، ومن واجبنا أن نتعهد هذه الموهبة بالرعاية والتشجيع .

- إن الآفة التي أصابت الآنسة المذكورة لا تشكل عائقاً لطموحها، بل نرى أنها حافز ومشجع ودافع للطموح وتحقيق الذات . وليست حالتها الأولى من نوعها في هذا المجال ، فهي مسألة قد تجاوزتها غالبية الجامعات العربية ، وليس عميد الأدب العربي الدكتور " طه حسين " الوحيد الذي وصل إلى أهدافه رغم آفته ، بل إن هناك الكثيرين ، ونسوق بعض الأسماء على سبيل المثال :
- الدكتور " عبد الحميد يونس " أستاذ الأدب الشعبي في جامعة القاهرة كان رئيساً لقسم اللغة العربية ، على الرغم من كونه كفيفاً .
- كما كان الدكتور " صلاح مخيمر " عميداً لكلية التربية وعلم النفس في جامعة عين شمس مع كونه كفيفاً .
- كذلك كان الدكتور " مصطفى الجويني " رئيساً لقسم اللغة العربية في كلية البنات بجامعة عين شمس .
- لم تجد جامعة دمشق ما يحول دون إيفاد واحد من المكفوفين لصالح قسم الفلسفة .

ونضيف إلى ذلك أن القانون السوري رقم ١٤٤ لسنة ١٩٥٨ في مادتيه ١٦ و ١٧ وأن قرار وزير الشؤون الاجتماعية والعمل رقم ٧٨٧ تاريخ ٢٩ / ٦ / ١٩٧٧ في مادتيه الثانية والسابعة عشرة ، يحددان الوظائف التي يمكن للمكفوفين ممارستها ، ومن ذلك "وظيفة إلقاء المحاضرات العلمية والثقافية في المؤسسات التربوية وفي المعاهد والجامعات " .

إن أعضاء هيئة التدريس في قسم اللغة العربية بجامعة تشرين يحدوهم الأمل الواثق في أن تجد هذه القضية لديكم كل عناية واهتمام .

وتفضلوا بقبول فائق شكرنا .

اللاذقية في ١٣ / ٦ / ١٩٨٤ .

الدكتور عبد الكريم حسن — الدكتور تامر سلّوم

الدكتور صلاح كزارة — الدكتور عبد الكريم يعقوب

الدكتور سامي عوض — الدكتورة سلوى الخيّر

الدكتور سمير كجّو

سُجِّلَت لدى جامعة تشرين برقم ٤٣٠ /أع تاريخ ١٣ / ٦ / ١٩٨٤) .

وهناك صديق والدي الأستاذ نهاد مفتي ، الذي وظَّفَ تعاطفه معنا ، وتردُّده على بيتنا خلال تلك المرحلة ، في إتحافنا بين الحين والحين ، بقصيدة تَصوَّرَ نطقها بصوتي ، لتعبّر عما أحاط بنا من الخيبات أو التطورات التي استجدت فيما بعد . هذا مع عدم تحرُّجه أحياناً من البكاء في أثناء كتابتها ، أو تلاوتها علينا .

ويزداد الخبر انتشاراً مع توالي الأيام ، وتزداد ردود الفعل تكاثراً من حولي ، لتبدو كلها إيجابية تجاهي وتجاه ما حققتُ ، متذمّرةً مما قوبلتُ به . وهكذا إلى أن ذاع أمري في القطر كله ، وتوافدت عليَّ أصداؤه من أنحائه المختلفة ، ذلك حين أصرَّ السيد مايك عبد الله عضو جمعية المعوقين ، على الاتصال بالإعلامي توفيق الحلاق

الذي كان يقدّم حينذاك برنامجاً تلفزيونياً مخصصاً لأصحاب الشكاوى . وقد بدأ الأستاذ توفيق المقابلة التي أجراها معي ، والتي ضمَّنتُها قَصّاً تفصيليّاً لما حدث بعباراته التالية :

" ريم هلال الشابّة الصبيّة الخارجة من العتمة إلى النور ، لا ترى بعينيها إلا قليلاً ، لكنها ترى بعقلها كل شيء . ريم هلال نجحت في الجامعة ، في السنة الأولى كانت الأولى ، وفي السنة الثانية كانت الأولى أيضاً ، وهكذا في الثالثة وفي الرابعة . حصلَتْ على درجة امتياز ، وكانت الأولى على دفعتها ، بل في كل تاريخ الجامعة كانت الأولى . حصلت على معدل عالٍ ، وهي تطلب الآن أن تكون معيدة ، أستاذة في الجامعة ، قُبِلَتْ أولاً ، ومن ثم رُفِضَتْ ، لماذا ؟ نسأل " .

لكنه قبل الخوض في الموضوع ذاته ، سألني عن كيفية حصولي على هذه الدرجة العالية ؟ فأجبتُه : إن كل إنسان يمتلك نقصاً ، وهذا النقص يمكن أن يكون ظاهرياً ، ويمكن أن يكون باطنياً . لكن من المؤسف أن يكون بعض الذين يمتلكون نقصاً باطنياً ، لا يدركون وجوده لديهم ، فيلتفتون إلى ذوي النقص الآخر الظاهري ، ونحن – أصحاب هذا النقص الأخير المذكور – علينا لدى افتقاد القوة في أحد أعضاء جسدنا ، أن نضع نفوسنا أمام خيارين : التخاذل ، أو الطريق الآخر الذي ينبغي إيثاره ، وهو أن يولّد لدينا نقصنا حافزاً على التقدم أكثر فأكثر فأكثر ، إلى أن يتمكن كل منا من أن يشكل مثلاً أعلى بالنسبة إلى الآخر المعوق أو غير المعوق.

شَكَرَني الأستاذ توفيق على هذا الكلام الذي عَدَّه مؤثّراً . وبعد أن استمع إلى قصتي بقدر كبير من الاهتمام والتعاطف ، وختمتُ كلامي بأنهم يريدون جسداً سليماً لا عقلاً سليماً ، سألني عن حجة الوزارة لدى إحجامها عن استكمال تعييني ؟ فأنبأتُه عما تذرّعَتْ به من عدم تمكُّني من التصحيح . وهنا عقّبتُ : قبل أن تتساءل الوزارة عن هذه القضية التي تُعَدُّ الأبسط بالنسبة إليّ ، لماذا لم تتساءل عن كيفية وصولي إلى ما وصلتُ إليه ؟

ثم اختتمَ الإعلامي المقابلة بمقطع من مسلسل " الأيام " ، تضمَّنَ حصول طه حسين على درجة الدكتوراه من السوربون . فكانت هذه المقابلة بكل ما انطوت عليه حَرِيَّةً بأن تحمل كل من حضرها من الأقرباء والغرباء ، على إظهار ما تنوَّعَ من الانفعالات . كما أنه ربما تحقَّق من خلال ما أوردتُ فيها من عبارات أثارت الدهشة ، ما رأت جدّتي لأمي في حلمها قبل رفض تعييني ، ذلك أنني أقرأ القرآن بين حشد كبير من الناس المندهشين بي .

ثم جاءت الحلقة التالية من البرنامج ذاته ، ليقرأ فيها الأستاذ توفيق رسالة وُجِّهَتْ إليه من وزير التعليم العالي ، قد وضَّحَ فيها أنه حين اتخذ حيالي ذلك الموقف ، أتاح لي بالمقابل متابعة دراساتي العليا التي كنتُ أتابعها في الأصل بقبول من كليتي . ثم أتبَعَ ما وضَّحَه في الرسالة ذاتها ، بوعدٍ منه بتعييني وتعيين أمثالي في مجال البحث العلمي بعد إنجازي تلك الدراسات ، أو بالأحرى بعد طول سنين آتية لا تَضمَنُ لنا بقاءه .

وإضافةً إلى ما عرضتُ في ذلك البرنامج ، كتب صديق والدي الشاعر شوقي بغدادي ، مقالة حول قضيتي في جريدة " الثورة " بعنوان " ريم البحر " . وهذا نصُّها :

(كثيرون هم الذين شاهدوا ريم هلال على الشاشة الصغيرة قبل أسابيع ، تتحدث في برنامج " ساعة حُرَّة " ، فتشرح قضيتها وتدافع عن حقها في طلاقة وبراءة ومنطق متماسك . كثيرون هم الذين تعاطفوا مع تلك الفتاة الجامعية الوديعة كبنفسجة ، والرقيقة كزهرة الياسمين . أما أنا ، فقد أتيحَ لي أن أجتمع بها شخصياً في دارها أكثر من مرة ، فأصغي إلى الذكاء والموهبة والرقة معاً ، تعزف بمهارة على البيانو ، أو تصدح بصوت جميل كفيروز ، أو تحاورني في اختصاصها اللغة العربية وآدابها ، فأجد نفسي أمام موهبة من نوع جاد عميق أصبح نادراً في هذه الأيام . كان حضورها يبعث البهجة والرغبة المستمرة في حوار لا أشهى ولا أمتع ، وهكذا صرتُ حريصاً كلما زرت اللاذقية على أن أزورها ، وأجلس مع الأسرة جمعاء ، نتبادل الأحاديث الحلوة ، ثم نفترق على موعد . ولكن ما هي قضية ريم ؟ كانت الفتاة متفوقة في فرعها بجامعة تشرين ، وظلت تحوز المرتبة الأولى بلا منازع طوال دراستها الجامعية التي انتهت هذا العام ، بالرغم من أنها ضعيفة البصر ، وكانت دائماً محط إعجاب ومحبة أساتذتها وزملائها الذين كانوا ينظرون إليها كظاهرة متميزة مدهشة . وهذا ما شجَّعها على أن تقدِّم طلباً كي تصبح معيدة جامعية ، وقد قُبِلَ طلبها من قِبَل الجهات المختصة التي كانت عارفة بالطبع بوضعها الصحي ، والذي اعتبرته وقتها

غير مانع من متابعة الدراسة ومزاولتها مهنتها أستاذةً جامعية ذات يوم . ثم يبدو أن المسألة انتهت بقرار مضاد مفاجئ ، يهبط على الأسرة والفتاة بشكل خاص كالصاعقة برفض طلبها دون مبرر قانوني .

كانت ريم حزينة إذن حين زرتهم قبل أيام ، ولم يكن في استطاعتي مواساتها إلا بالحديث عن الأدب ، وبخاصة عن موضوعها الذي حضَّرته باجتهاد ممتاز عن رواية الحرافيش لنجيب محفوظ . كان الحديث على مستوىً رفيع حقاً ، وكنتُ أثناءه أفكر أليس حراماً لهذه الموهبة أن تدفن وقد أثبتت تألقها إلى هذا الحد ؟ ومن خلالها كنتُ أفكر في جميع المواهب التي يطلعها وطننا ، والتي تهاجر أو تُهمَل . أي نهضة رائعة لهذا الوطن لو أنها جميعاً لقيت من يرعاها ويضعها في مكانها المناسب !

القضية الآن في أيدي المراجع العليا في وزارة التعليم العالي ، وقد سمعتُ مؤخراً ما يشجع على التفاؤل بحلّها لصالح الفتاة الموهوبة الحزينة ، أيكون حقاً ما سمعناه ؟ وهل لصوتي وأنا أضمه إلى الأصوات الكثيرة التي تناصر الموهبة أن يجد من يصغي إليه بقلب مفتوح ؟ أنا متفائل يا ريم ، متفائل بك وبأمثالك ، إذ تثبتون أن الدنيا بخير ، وأن الذين هاجروا عائدون ذات يوم ، لكي يصنعوا مع المقيمين وطناً جميلاً لم يستطع جيلنا أن يكمل صنعه حتى الآن) .

وحين كنا لم نصل بعدُ إلى أي حل جذري لمشكلتي ، انبرى والدي ينفّذ ما وعدني به في ذلك اليوم الأول ، فبذل ما كثر من

الجهود التي شملت ما تَعدَّدَ من اتجاهات . وكان أهمها ما أخذ يكتب من رسائل إلى مَن تعدَّدَ من المسؤولين : إلى رئيس جامعة تشرين ، إلى وزير التعليم العالي ، إلى مدير مكتب التعليم العالي في القيادة القطرية ، إلى رئيس الهيئة المركزية للرقابة والتفتيش بدمشق ، إلى رئيس مجلس الشعب ، إلى رئيس مجلس الوزراء . وهذا نص الرسالة الأخيرة نموذجاً ، وقد أرسلها عن طريق السيد محمد نهاد القاضي ، رئيس الهيئة المركزية للرقابة والتفتيش بدمشق حينذاك:

(السيد رئيس مجلس الوزراء .. باطلاع السيد رئيس الهيئة المركزية للرقابة والتفتيش :

يأسف المواطن عبد القادر هلال ، رئيس فرع الهيئة المركزية للرقابة والتفتيش ، أن يضطرّ ليتقدّم إليكم شاكياً ما لحق ابنته ريم هلال من ظلم ، نتيجة رفض جهات مسؤولة تطبيق القوانين النافذة ، على حالتها التي كانت جديرة بكل الرعاية والاهتمام والتشجيع .

لقد شاء القدر لنا أن تُولَد ريم وفي عصبها البصري ضمور حالَ دون أن تنعم إلا بالقليل القليل من نعمة البصر .

ووجدنا أنفسنا أمام خيارين : أن نستسلم للأقدار وأن تقبع ريم في إحدى زوايا البيت نبكيها وتبكي نفسها ، أو أن نتصدى للتجربة ونسير في طريق المؤمنين بقدرات الإنسان الخلاّقة .

وكان لا بد لنا أن نختار الاختيار النبيل الصعب ، وأن تشقّ ريم ونشقّ معها طريقها الوعر بين حروف الكتب المستعصية ، وكانت بدايةً تغصُّ بالدموع والسهر والضنى والحسرة ، ولكن ما تبدّى لنا

من ذكائها وصبرها ، وما لاقته من عطف وحنان وتشجيع لدى كافة من لامس تجربتها ، بدءاً من آذنة المدرسة ومعلماتها وإدارتها ، وانتهاءً بكل الناس الأخيار ، قد حملها وحملَنا على متابعة المسيرة المقدّسة ، التي انتهت إلى نتيجة كنا نتصورها مجال فخر الوطن بأسره .

لقد أنهت ريم دراستها الجامعية بدرجة امتياز ، وبمعدل ٨١.٩١، وكانت الأولى في قسم اللغة العربية في جامعة اللاذقية في كافة سنوات الدراسة ، وعلى كافة خريجيه منذ إحداثه . وكان أن أعلنت وزارة التعليم العالي عن رغبتها في تعيين معيدين في ذلك القسم ، فتقدّمت ريم بطلب مشفوع باستمارة ضمّنتها شرحاً وافياً لوضعها وتجربتها .

وكانت المسرّة الكبرى ، حين أبلغَتها وزارة التعليم العالي كتابها رقم ٤٩٨٧ / و٤ تاريخ ٢٨ / ٣ / ١٩٨٤ ، تطلب إليها تقديم الوثائق اللازمة لتعيينها .

وكان أن تقدّمتْ بكافة تلك الوثائق ، ومن بينها وثيقة طبيّة صادرة عن لجنة فحص الموظفين ، أجازت تعيينها في وظيفة معيد، مستندةً إلى قرار وزير الشؤون الاجتماعية والعمل رقم ٧٨٧ تاريخ ٢٩ / ٦ / ١٩٧٧ ، الذي استند إلى المادة ١٧ من القانون رقم ١٤٤ تاريخ ٤ / ٩ / ١٩٥٨ ، الذي أجاز تعيين المكفوفين في الوظائف العامة التي يحددها وزير الشؤون الاجتماعية والعمل بعد استطلاع رأي وزير الصحة ، وكان من بين الوظائف التي حدَّدها

القرار المذكور ، وظائف التعليم والتدريس وإلقاء المحاضرات في المدارس والمعاهد والجامعات .

وأخيراً .. فوجئنا باستنكاف وزارة التعليم العالي عن تعيين ريم ، متذرعةً بوضعها الصحي ، وبصعوبات إيفادها إلى الخارج ، ذلك بالرغم من موافاتها بكل من نص المادة ١٧ من القانون رقم ١٤٤ لعام ١٩٥٨ ، وبنص قرار وزير الشؤون الاجتماعية والعمل رقم ٧٨٧ لعام ١٩٧٧ ، وبالرغم مما أبديتُه من استعداد للاستقالة من عملي، ومرافقتها إلى البلد الذي توفد إليه ، فضلاً عن إمكانية إيفادها داخلياً .

السيد رئيس مجلس الوزراء :

إن ابنتي ريم تعيش الآن حالة من البؤس واليأس والإحباط لم تكن تستحقها ، بعدما بذلت من جهد وعانت من صعاب .

إن ابنتي ريم تتساءل أمامي ، كيف جاز لجهة مسؤولة في هذا الوطن أن تخرق قانوناً صدر لرعاية أمثالها والاستفادة من طاقاتهم؟وكيف جاز لها أن تتناسى تجربة طه حسين التي لا تُنسى؟

السيد رئيس مجلس الوزراء :

ألا يحقُّ لي ، وأنا رئيس فرع الهيئة المركزية للرقابة والتفتيش باللاذقية ، أن أتساءل مع ابنتي : هل يصح أن يُخرَق القانون في وجه ابنة من يُكلَّف بتلقّي شكاوى المواطنين من عدم تطبيق القوانين؟

ألا يحقٌّ لي ، بوصفي مواطناً ، وبوصفي عاملاً في هيئة ترتبط بكم ، أن أطلب تدخُّلكم لتطبيق أحكام القانون الذي عالج وضع ابنتي ريم هلال ؟

المواطن عبد القادر هلال

رئيس فرع الهيئة المركزية للرقابة والتفتيش باللاذقية

المرفقات :

- نسخة من المادة ١٧ من القانون ١٤٤ لعام ١٩٥٨ .
- نسخة من القرار ٧٨٧ لعام ١٩٧٧ .
- نسخة من الرسالة التي بعث بها أساتذة قسم اللغة العربية إلى السيد وزير التعليم العالي) .

وقد كان وزير التعليم العالي ، يردُّ على كل مبادرة ممن راسلهم والدي ، بمثل ما ردَّ على السيد توفيق الحلاق .

كما كتب والدي بصورة احتياطية ، رسالة إلى رئيس الجمهورية ، لعله يحظى بمن يوصلها مباشرةً إليه . ولم يكفّ يوماً واحداً أو ساعةً واحدةً أو لحظةً واحدة ، عن التفكير في مشكلتي ، أو عن التحدث بشأنها إلى من اختلف من الناس ، المسؤولين وغير المسؤولين ، القريبين والبعيدين ، المثقفين والبسطاء ، الشيوخ والشبّان . إضافةً إلى ما كان يحلم به من أن يحمل لافتة كُتِب عليها ما حدث ، ويَعْبر بها الشوارع ، فلعله بها يُعلِم بأمري من لم يَعلَم بعد ، أو لعله من خلال جميع تلك البذور التي رماها ، يتمكَّن من أن يجني ثمرة واحدة .

وبذلك أصبحتُ الشغل الشاغل لأهل بلدي الذين أتعبوني بكثرة اهتمامهم ، ودوام تساؤلاتهم واحتجاجاتهم ، وتذكيري بما أصبحتُ بحاجة إلى الاستراحة منه ولو لفترة وجيزة . بل إن بذرة الكآبة التي توطَّنَتْ في نفسي ، أخذت تزداد نمواً يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، حتى غمرتني تماماً ، بغيومها السوداء الثقيلة التي لا تندُّ عن قطرة ماء واحدة ، أو عن زهرة صغيرة ، ولا سيما بعد انتهائي من دراسة الدبلوم ، وما عنى هذا من مكوثي في البيت الذي لا يزال يقبع في ذاكرتي داخل تلك المرحلة ، كهفاً مظلماً كنت أتعطش فيه إلى قطرة من نور الشمس ، وبصورة خاصة حين كانت تنهال عليَّ الاتصالات الهاتفية من بعض زميلاتي المعيدات اللائي كنَّ يحتجن قبل وقوفهن أمام الطلاب ، إلى الاستفسارات الكثيرة مني ، فتمتد إجاباتي ما بين الدقائق ، حين كنَّ يسألنَني عن إعراب بعض الكلمات ، والساعة الكاملة حين كنَّ يسألنَني عن كيفية صياغتهن المحاضرة التي سيقمنَ بإلقائها . الأمر الذي كان يدفع أمي التي كانت حريصة على التظاهر بالصبر أمامي ، إلى الاحتجاج الصريح على اللاعدل هذا ، ولجوئها كما علمتُ فيما بعد وهي تنشغل بأعمال البيت ، إلى البكاء الصامت .

لا أستطيع أن أنكر حالتي النفسية التي مررتُ بها خلال تلك المرحلة ، ووصولها لديّ – وفق اعتقادي – إلى الحدّ المَرَضي ، لكثرة ما كان ينتابني داخلها من هواجس ، أو إلى الحدّ الخطير ، لِما بدأ يتشبث بي من التفكير في الانتحار ، أو في الطريقة التي ينبغي أن أُتِمّ بها ذلك ، هل أُضرِب عن الطعام كما كان يتمنى أن

يفعل والدي ؟ لكن هذا ربما سيعني إتعاب نفسي وسط رجاءات أسرتي والمعاناة الجديدة التي سأضيفها إلى معاناتها . إذن هل أحرق نفسي وسط الجامعة التي أتلهف إلى ولوجها ؟ فأذرّ رمادي في فضاءاتها ؟ أم هل أطعن هناك أحد شراييني ، فأُشرِب تلك الأرض الحبيبة دفقة من دمي ؟ ألا ينبغي أن أفعل هذا مؤكِّدةً ثانيةً عدم قبولي بالذل والاستسلام ؟ مقابل فعل نصفه حين اقتحمتُ وحيدةً الشوارع بما فيها ؟ إنه ربما ينبغي أن أجد في الموت الحل الأكثر سلامةً من ذلك الوأد الذي فُرِض عليَّ منذ اتصال والدي بي، أو أن أوثر على ما كنتُ فيه الحل الذي كان يلجأ إليه اليونان القدماء ، ذلك برميِ الأطفال غير السليمين من جبل الأولمب .

ومما أسهمَ في تفاقم حالتي النفسية هذه ، ووصولي بها إلى تلك الدرجة المُرعِبَة ؛ هو أنني أنا المتفوقة ، والحائزة المرتبة الأولى عبر تاريخ قسم اللغة العربية منذ نشأته حتى ذلك الحين ، فُرِضَ عليَّ مكوثي حيث أنا في البيت ، بينما زميلةٌ لي بالمقابل ، كانت في الصفوف الأخيرة من نجاحها ، وربما لم تَحُز ما هو أعلى من معدّل الخمسين ، قد كوفِئَتْ بإيفادها معيدةً إلى جامعة السوربون ، لمجرَّدِ كون حظّها في الزواج ، قد وقع على من كان رئيساً لاتحاد الطلبة السوريين في فرنسا ... هذا هو زمن اللامعقول الذي كنتُ أعيشه حينذاك .. أنا في سجن الظلمات ، وهي تتنزَّهُ مختالةً بما أُنعِمَ عليها، ما بين فرنسا واللاذقية ، اللاذقية وفرنسا .

لكن تفكيري الجنوني هذا ما لبث أن خبا ، حين بعث وزير التعليم العالي مطالباً بأن أوقّع على تعهُّد بقبولي بالإيفاد الداخلي

دون الخارجي بغية تعييني معيدة كما أريد . علماً أنني ما كدت أقبل بالشرط المذكور ، وبعثتُ بتوقيعي ، حتى علم والدي من رئيس الجامعة باستنكاف الوزير ثانيةً عن استكمال قبوله بي .

وهكذا عادت إليَّ حالتي النفسية الخطيرة من جديد ، وإن أصبحَتْ مرفقة بحلمي بأن أحظى بمقابلة مع رئيس الجمهورية ، أو بوصول رسالة والدي إليه ، ربما لإحساسي بأنه بات يشكل المنقذ الوحيد لي من اختناقي . لكن تلك الحالة عادت لتخبو ثانيةً ، حين اتصل بوالدي صديقه السيد " عثمان لبّادة " ، مُنبئاً إياه بقدوم العماد " مصطفى طلاس " إلى اللاذقية ، وبضرورة توجيه رسالة إليه كما فعل تجاه المسؤولين الآخرين ، وليتولى السيد عثمان إيصالها شخصياً إليه . وحين لم يتحمس والدي لهذا الأمر كثيراً ، لاستبعاده علاقة العماد الذي هو وزير للدفاع بقضية كهذه ، ألحَّ عليه السيد عثمان ، لِما عُرِفَ عن العماد من اهتمام بما اختلف من قضايا الناس . ثم حاصرَ السيد عثمان والدي ، إذ أعلَمَه أنه سيرسل إليه سائقه بعد حين قصير ، ريثما يكون قد انتهى من إعداد الرسالة ، فاضطر والدي إلى تعديل رسالة كان قد أعدَّها لوزير الشؤون الاجتماعية ، وأضاف إليها ما ينمُّ على علاقة وزارة الدفاع بروح النجدة العربية القديمة . فكان مني حين قرأها عليَّ والدي ، أن شعرتُ بشيء من التفاؤل ، بعدما كنتُ قد التقيتُ معه سابقاً في اليأس من هذه الخطوة .

ويأتي الخامس والعشرون من آذار عام ١٩٨٥ ، ليحمل إليَّ من العماد مصطفى طلاس ، رسالة يستدعيني فيها إلى دمشق ، بغية

النظر في تعييني مُدرِّسة في مدرسة أبناء الشهداء التابعة لوزارته ، فلعله بذلك يختصر علينا طريق كفاحنا ، ويقصّر من انتظارنا خطوة وزير التعليم العالي التي تأخَّرَت .

كان عليَّ ووالدي أن نُلبّي الدعوة ، على الرغم من عدم إيجادنا في مبادرة العماد طلاس الطيبة التي صدقت نبوءة السيد عثمان حلاً لقضيتي ، ذلك لكون المَدْرسة في دمشق ، ولعدم وجود فرع لها في اللاذقية ، ثم لبُعد ما اختار لي عن المجال الذي اخترته ، مجال تعييني معيدة بغية تمكّني بعد انتهائي من دراساتي العليا ، من أن أصبح أستاذة محاضِرة في كليتي .

ذهبتُ ووالدي إلى دمشق في السابع والعشرين من الشهر ذاته ، بغية التقائي العماد طلاس في الساعة الواحدة من اليوم التالي ، لكننا لم نتمكن من الوصول إليه حتى الساعة الثانية التي كان قد ذهب فيها إلى موعد آخر ، إذ إننا ظللنا من الساعة الثانية عشرة نبحث عن وزارة الدفاع دون جدوى ، ودون أن يرشدنا واحد إليها، إلى أن علمنا في النهاية وبعد جهد كبير وشعور بالضيق أخذ يتفاقم لديّ ولدى والدي ، أن مكتب العماد كائن في الأركان .

وعلى الرغم من يسر حصولنا على موعد ثانٍ من العماد طلاس، ذلك عن طريق عمي العميد أحمد هلال ، الذي اتصل باللواء مصطفى بغدادي ، فإن اضطرارنا إلى الانتظار يومين آخرين في دمشق ، أي من الخميس إلى السبت اللذين يفصل بينهما يوم العطلة الأسبوعية ، عنى بالنسبة إليَّ وإلى والدي ، الاستمرار في تفاقم ضيقنا وامتداده ، ولا سيما حين وصلنا خلال تلك المرحلة الأخيرة

إلى درجة وافية من فقدان الصبر وعدم القدرة على الاحتمال . علماً أنني ما إن خرجتُ ووالدي من مبنى الأركان في يوم الخميس ذاك ، حتى قلت لنفسي : إنني ينبغي أن أرحب بهذا الذي سبق أن تلقَّيتُ وسأظل أتلقّى الكثير مما يماثله .

بيسر زائد وصلنا في يوم السبت الواقع في الثلاثين من الشهر ذاته " آذار ١٩٨٥" إلى مقر الأركان الذي أصبح والدي يدرك موقعه تماماً ، ذلك بعد أن عانيتُ ما عانيتُ خلال اليومين الماضيين من ثقل الدقائق والساعات ، وسط مشكلتي وكآبتي اللتين ظهرتا لي أكثر ضخامة وأنا بعيدة عن بلدي .

حظينا من اللواء مصطفى بغدادي الذي كان ينبغي التوجُّه إليه أولاً ، بالاستقبال الحار ، وأبدى تجاهنا من التقدير والتعاطف الكثير الكثير ، فشعرنا وكأننا في كنف أقرب الأصدقاء ، أو أقرب المقربين، ذلك إلى أن أعلَمَنا برهافة مشاعره تجاه ذوي الأوضاع الخاصة ، من خلال حفيده الذي أصيب بنقص أوكسجين في الدماغ، بفعل ولادته في لندن وفق الطريقة الأحدث ، في حوض الماء .

تحدَّثَ اللواء إلينا طويلاً ، وتحدَّثنا إليه ، استرسل في حواره معنا، واسترسلنا معه، غرقنا في الجو الحميمي الذي خلقه من حولنا ، حتى غدونا بعيدَين عن الشخص الأساس الذي أتينا لالتقائه ، غائبَين تلقائياً عن انتظاره الثاني لنا . لكن اللواء بغدادي إن لم يعد في ذلك اليوم وسيطاً لإيصالنا إلى العماد ، فقد تحوَّلَ إلى وسيط لإيصال ما انتهينا إليه معه . فقد تباحثَ ووالدي حول تعييني في

مدرسة أبناء الشهداء ، وشرح له والدي صعوبة ذلك للأسباب التي وضَّحتُها ، فاقترح اللواء اختيار أي جهة تابعة لوزارة الدفاع في محافظة اللاذقية ، بغية تعييني فيها ، فانتهى والدي إلى أن أكون مراسلة لمجلة " جيش الشعب " مع ما خَلَّفَ هذا في نفسي من قلق تجاه مهنة الكتابة التي تحتاج إلى المزيد من التمرُّس والمعرفة . وما كاد اللواء بغدادي يُبدي موافقته على اختيار أبي ، حتى تَذَكَّرَ أن أي تعيين أصبح يتطلب موافقة من رئيس الجمهورية . وهنا فحين اقترح اللواء التحدث إلى العماد بهذا الشأن لكي يحاول الحصول على هذه الموافقة ، سرعان ما تحوَّلَ والدي عن الوجهة الجديدة التي اختيرت إلى وجهتنا الأولى ، إلى توجيه الجهود ذاتها من أجل تعييني معيدة. وبذلك استدعى اللواء على الفور من كان تتم الاستعانة به لصياغة ما ينبغي أن يُكتَب ، وطالبه بعد شرح وضعي له بأن ينظّم مباشرةً رسالة إلى رئيس الجمهورية . وما كادت تمضي ساعة ، حتى أنجز الشخص الأمر مع طباعته . وهكذا تودَّعنا واللواء واعداً إيانا بإيصال الرسالة إلى العماد طلاس بغية اتخاذ الإجراء التالي ، واعدةً إياه بأن ألتقيه ثانيةً من خلال مذكراتي " البصر والبصيرة " التي أفكِّر مستقبلاً في كتابتها ، والتي كان والدي قد وضع لي عنوانها المذكور في صباح ذلك اليوم .

ويأتي مساء العشرين من نيسان ١٩٨٥ ، أي بعد أقل من شهر من التقائنا اللواء بغدادي ، ليأتينا اتصال هاتفي من خال أمي السيد نعمان ترك حاملاً دعوة العماد طلاس لي إلى دمشق ، بغية إخباري بالتطورات الإيجابية التي طرأت ، آملاً أن يسلِّمني مباشرةً قرار

تعييني . سمحتُ لنفسي بقدر كبير من الفرح ، برغم حيلولة الإحباطات التي مررتُ بها خلال تلك الأشهر الأحد عشر دون امتداد تفاؤلي ، وإن كان قد حدث في ذلك الحين ، تعديل وزاري شمل وزير التعليم العالي ذاته .

كان موعدنا في الرابع والعشرين من نيسان الساعة السادسة مساء في بيت العماد طلاس ، ذلك بصحبة والدي وخال أمي . ظفرنا في ذلك البيت بالاستقبال الحار ، ليس من العماد فحسب ، إنما كذلك من زوجته التي عبّرَتْ عن رهافة مشاعرها تجاهي ، تجاه تجربتي ومعاناتي من خلال إسراعها إلى إلباسي قطعة ألماسية ثمينة ، ثم قطعة ذهبية كُتِبَتْ عليها آية قرآنية كانت تطوّق عنقها . أما العماد طلاس ، فقد أسرع إلى إنبائنا بتحدُّثه إلى رئيس الجمهورية مباشرةً بشأني ، في الجلسة التي كان يتم فيها التعديل الوزاري ، فاقترح الرئيس أن يرسل العماد إلى الوزير الجديد الذي سيتم تعيينه ، طلباً شفهياً من الرئيس ، يتضمن تعييني فيما إذا كان يمتلك الصلاحية . وهنا نهض العماد أمامنا ليتصل هاتفياً بوزير التعليم العالي الجديد ، فرحَّبَ الوزير بما تلقّى من خلال دعوته لي إلى مكتبه ، مُحدِّداً الساعة الحادية عشرة صباحاً من اليوم التالي .

خرجنا من بيت العماد طلاس محلِّقين بروعةِ ما حدث ، باحتضار شقائنا الذي طال إلى ما يقارب العام ، بدموع والدي وخال أمي ، بحرارة توديع العماد وزوجته لنا . وحين وصلنا مدخل البيت الخارجي ، فوجئنا بانتظار زائر لبناني لنا ، قد كان في بيت العماد ، ليسألنا ما إذا كنا نريد أمراً من رئيس جمهورية لبنان السيد أمين

جميّل ؟ فقلتُ لنفسي ممازحةً لها بعد طول انقباضها : " ما دام الأمر بهذا اليسر ، فليعيّنّي رئيسة لجامعة بيروت العربية " . ثم سمح لنا خلاء بيت عمي الذي كنا ننزل فيه ، بمتابعتي ووالدي تحليقنا بالدوران في شوارع دمشق التي بتنا نراها حينذاك شفّافة وردية تبتسم لنا ، وتشاركنا تفاؤلنا بالغد ، وأحلامنا بالأهل والأقارب والأصدقاء ، فرداً فرداً ، ولحظةً لحظة ، حين سيتدفقون إلى بيتنا بأفراحهم وتهانيهم من أجلي كما تألموا من أجلي .

ما كنتُ أظن ووالدي وخال أمي ونحن ذاهبون إلى الوزارة في اليوم التالي ، أن أمر قراري يتطلب الكثير من الوقت ، بل ربما نستطيع أن نستلمه مباشرةً ، ما دام قد تَدَخَّلَ بشأنه رئيس الجمهورية، أو ما دام الوزير الجديد قد أبدى للعماد طلاس أمس الكثير من التجاوب . هذا وإن كنتُ أشعر في أثناء ذهابي بشيء من التوجُّس من أن يتحقق حلم زارني في الليلة السابقة ، كما تتحقق أحلامي عادةً . فقد رأيتُ أنني في وزارة التعليم العالي ، وقد عاد إليها الوزير السابق ، ومكثَتْ أمامي هرة صغيرة بيضاء ، فعدتُ خائبةً إلى أهلي في اللاذقية .

وهكذا ما كدنا نجلس والوزير الجديد في الواقع ، حتى تَوَجَّهَ إلى والدي بتلك الكلمة التي أقلقَتني جديَّتها المفرطة ، مقابل ما تلمَّستُ لدى العماد وزوجته بالأمس من تواضع وطيبة ومرح ، أو مقابل ما حملَني عليه العماد من نسج تلك الأحلام الجميلة بشأن اليوم التالي. إنها كلمة " نَعَمْ " ، التي سرعان ما أوحت إليّ برغبته الحادة في التفحُّص ، والعودة بنا إلى حيث تم البدء .

بإيجاز شرح له والدي قضيتي ، ثم أَتْبَعَ ذلك بإطلاعه على النص القانوني الذي يجيز تعييني ، والذي تم الإحجام عن تنفيذه . وهنا على الفور تَوَجَّهَ إلى الوزير معاونه الذي كان معاوناً سابقاً للوزير السابق ، مُدَّعياً أنهم قدَّموا لي كل التسهيلات الممكنة سابقاً ، وسمحوا لي بمتابعة دراساتي العليا التي أعود لأشير إلى أن الكلية هي التي سبقتهم إلى تشريع بابها أمامي .

لا ندري ما إذا كان الوزير الجديد قد تأثر بكلام معاونه ، أم أنه وضع فكرة التعنُّت في ذهنه منذ أمس ، حتى وجدناه يحوِّل تلقائيّاً وجهتِنا من تعييني معيدة إلى تعييني في جهة أخرى تابعة للوزارة ، دون أن يقدِّم لذلك تبريراً منطقياً . ومَثَّلَ لهذه الجهة بمجمع اللغة العربية الذي يتطلب إقامتي في دمشق ، وما تستتبع هذه من تعقيدات ستحملني مؤكداً على أن أوثر المكوث في البيت . علماً أن الوزير أشار في جلستنا معه ، إلى تعاطفه مع قضيّتي حين عُرِضَت في اجتماع لمجلس الوزراء وكان هو وزيراً للتخطيط . وما كاد الخال نعمان يتدخَّل من أجل أن يوضِّح للوزير تفضيلنا التعيين الأول ، حتى كان ينبغي أن نخرج من مكتبه ، بغية استقباله سفراء قد منحهم موعدنا ذاته .

عاد والدي بعد ساعة إلى الوزير بناءً على اتفاق تم فيما بينهما ، لكنه لم يتمكن من الانتهاء معه إلا إلى وجهته الجديدة التي لم تُرحنا، وبصورة أكثر تحديداً إلى تعييني في الوزارة ذاتها ، مع ندبي إلى جامعة اللاذقية ، وما عنى هذا من إمكان استعادة الوزارة لي في أي حين ، ومن توجُّب السفر إلى دمشق كلما أردتُ الحصول على

راتبي الشهري . لكن ما إن اتَّصلَ الوزير بمعاونه ، ليوعز إليه بما ينبغي فعله ، ويصيح به حين أبدى تلكُّؤه ، حتى تبيَّن له أن مثل هذا التعيين يتطلب إجراء مسابقة . وهنا اكتمل تحقُّق حلمي بعودتي باكيةً دون انقطاع من دمشق إلى اللاذقية ، ذلك بعد أن تمت تهدئتي من نوبة نحيب هستيرية ، وتهدئة والدي الذي كان قد هَمَّ بالخروج من بيت الخال نعمان بغية مواجهته معاون الوزير بدهسِه بسيارتنا . وربما كان من المستغرَب في ذلك الحين ، مدى ما أبديتُ من استجابة لوالدي حين دعاني بغضبه وثورته إلى مرافقته ، ومدى شعوري بالتذمر ممن أثنونا عن اتخاذ خطوتنا .

نَعَمْ لقد عدتُ باكيةً من دمشق إلى اللاذقية ، بصحبة والدي والسائق ، وصوت المطرب إيمان البحر درويش الذي أشعرَني من خلال نبرته الحزينة المحتجَّة ، وكأنه يغني حزني واحتجاجي ، أو وكأنه يقدِّم لي العزاء . هذا مع ازدياد دموعي في التدفُّق ، كلما أخذَتْ السيارة تقترب بنا إلى بلدي ، نظراً لِما عنى هذا بالنسبة إليَّ ، من التقائي أهلي غير حاملة إليهم الفرح الذي كنتُ قد وعدتُهم به في الأمس ، إنما مثبتةً حلمي الذي رأيته في الليلة السابقة ، وخَيَّبني منذ يقظتي .

بعد يومين من انطفاء أملي ، أي في السابع والعشرين من نيسان ١٩٨٥ ، ولدى عودتي من الكلية التي كنت أجتاز فيها دورة اللغة الفرنسية المفروضة علينا قبل مرحلة الماجستير ، أوحى إليّ السائق بما سألقى من البهجة الكبيرة لدى وصولي إلى البيت ، لكنه بطلبٍ من والدي أحجم عن تقديم أي تفاصيل خشيةً عليَّ من تبعات

انفعالي . وما كدتُ أقرع جرس الباب ، حتى وجدتُ نفسي بين حشد من الأيدي المتلهفة إلى تلقفي ، وضمن بحر دافق من ضوضاء الفرح الذي كان قد عمَّ بين المحيطين بي . فقد اتصل العماد طلاس بنا هاتفياً ، لينبئ أمي باتخاذ وزير التعليم العالي قرار تعييني معيدةً، فما كان من أمي التي كانت وحيدةً حينذاك في البيت ، وبعد رصفها الدعاءات للعماد ، إلا أن أخذَتْ تُجري اتصالاتها الهاتفية الكثيرة الصاخبة ، وتستدعي إليها من تستطيع استدعاءه . وهكذا قضينا ذلك اليوم ، كما قضينا اليوم الذي تلقّينا فيه نبأ تعييني الأول منذ أكثر من عام .

ولم يأتِ اليوم التالي ، حتى استكملنا تعبيرنا عن عمق فرحنا بإقامتنا وليمة في بيت جدتي ، إذ راعينا عدم تمكنها من الخروج بسبب حدادها على جدي ، جدي الذي كان قد رحل قبل فترة وجيزة من ذلك اليوم ، وقبل أن أتمكن من تنفيذ رغبته ، بشرائي له علبة سجائر كبيرة من راتبي الأول .

كم فاجَأَنا والدي حين اصطحب معه إلى الوليمة ، ذلك القدر من الوجوم ، لكن توكيد العماد بالأمس اتخاذ الوزير قرار تعييني ، حالَ دون ذهابنا إلى ما هو أبعد من تذرعه بالتعب . لكن ما كاد يأتي مساء ذلك اليوم الذي اصطحبني فيه إلى المركز الثقافي ، حتى بدأت الشكوك تتسرب إلى نفسي . فقد التقينا هناك الدكتور عبد الكريم حسن الذي ما كان ينبغي بفعل صداقته واهتمامه ، أن يحجم عن تهنئتي . كما التقينا الدكتور سامي عوض ، الذي ما كان ينبغي لوالدي أن يحجم عن إنبائه بما طرأ ، إذ ما إن سأله الدكتور حول

وضعي ، حتى سارع والدي إلى إجابته بحاجتنا إلى المزيد من الجولات مع الوزير ، ثم تذرّعَ والدي لدهشتي بعدم توافر الوقت للدخول معه في التفاصيل .

وهكذا ظللنا نعايش وجوم والدي الذي لم يتراجع وتفاقُم شكوكي ، منذ ذلك اليوم الذي هو الثامن والعشرون من نيسان ، حتى الأول من أيار ، إذ قدِمَ حينذاك خالي سعد من دمشق ، ولم يتأخَّر عن إنبائنا بما أنبأتْ به والدي في يوم الوليمة مفتشة قريبة لنا ، وهو عدم تنفيذ وزير التعليم العالي وعده باتخاذ القرار ، متذرّعاً كما علمنا فيما بعد ، بحاجتي إلى استثناء رسمي من رئيس الجمهورية ...

وهكذا أنتهي إلى القول : إنني قد أستطيع معاودة مروري بتلك الفترة الطويلة التي استغرقَتْها قضية تعييني بكل ما تخلَّلَها ، لكن مقابل أن أُعفَى من مروري بيوم الوليمة وما أعقبه . أو إنني قد أستطيع تذكُّر حياتي كلها التي استغرقَتْها هذه الصفحات ، لكن مقابل أن أُعفَى من تذكُّر لحظة واحدة من ذلك اليوم ، أو من تذكير والدي الذي لا أزال أشعر بالشفقة الكبيرة عليه ، من هول موقفه ، من علمه بما لم يستطع إعلامنا به ، وقَسْرِ نفسه على مشاركتنا ما كنا فيه .

واسمح لي أيها السيد الوزير بأن أهمس إليك :

أمَا وقد أصبحتَ الآن نصف كفيف بفقدانك إحدى عينيك ..

بفعل ارتطامك بلوح زجاجي في يوم فرح ابنك ..

فماذا تقول الآن لنفسك وأنتَ تستحضر مؤكَّداً عصرك معي ؟

ماذا ستقول إذا ما قرأتَ سطور ألمي هذه التي بنفسك صغتَها ؟

سطور يوم الوليمة وما قبله وما بعده ؟
ماذا ستقول إذا ما تذكّرتَ عبارة أدليتَ بها للخال نعمان متذمراً لدى مراجعته لك بشأني ؟
سأذكِّرك أيها السيد الوزير
لقد قلتَ للخال حينذاك :
" ما بهم كلما حاروا في أمر معوق أرسلوه إلي ! " ...

إذاً لقد أصبح المجال مفتوحاً من جديد ، لكي تعاودني تلك الحالة النفسية الخطيرة ، حالتي التي كانت تلازمني قبل توجُّهنا إلى العماد طلاس ، وأن أنتهي تحديداً إلى التفكير في الإضراب عن الطعام ، إذ ربما أستطيع بهذه الطريقة أن أمنح قبل رحيلي ، فرصة للوزير لكي يتوجَّس من تشدده غير القانوني . لكن لا أدري لماذا كنت كلما انتابني التفكير في هذه الخطوة ، سرعان ما أتراجع عن اتخاذها ! ربما تعلق الأمر بانتهائها الحتمي بي إلى الموت ، مقابل سيري بمفردي الذي قد ينتهي بي إلى الموت أو الحياة ، إلى الهزيمة أو الانتصار . أو ربما تعلق الأمر بإشفاقي على شقيقتي رفيف ، إذ حلمتُ بأنها ترجوني التراجع عما أفكر به ، كي أتيح لها الاهتمام بدروسها . بل ربما كان لرفيف دورها الأكثر فعالية ، حين رأيتُها في الواقع من خلال شقيقة الشهيدة اللبنانية سناء محيدلي ، إذ ما إن عُرِضَتْ على الشاشة وهي تبكي أختها بعد بطولتها ضد إسرائيليين في لبنان ، حتى انقلبتُ أنا لأبكي على رفيف رأفةً بها مما قد أسبِّب لها بدلاً من أن تبكيني هي . وبصدد ما ذكرتُ ، لا ينبغي أن أتجاوز مشاعري بالامتنان تجاه البطلة سناء ، التي ربما تكون قد

فرّغَتْ بإقدامها ضد العدو الإسرائيلي ما شحنَتْني به مشكلتي من طاقات اندفاعية . كما لا ينبغي أن أحجم عن تصريحي بتفضيلها على نفسي ، حين بدت أكثر شجاعةً مني ، وأقلّ تهيّباً للموت .

وهكذا لم تمضِ أيام قليلة ، حتى طرأ ما أسهم إلى جانب رفيف وسناء وأختها في تدعيم تراجعي . فقد أنبأ السيد عثمان لبّادة والدي، بتحدُّثه بشأني إلى نائب رئيس الجمهورية ، وبحظوته منه بوعدٍ بمحاولة حصوله على الاستثناء الذي طلبه الوزير ، وبعدم إهماله قضيتي ، ما دامت له ابنة تحمل اسمي . إنه الاستثناء إذن ، إنه استثنائي بمفردي دون سواي ، دون أختي رفيف التي تماثلني في وضعي الصحي ، دون إخوتي المكفوفين الذين باتوا يشكلون جزءاً مني ، والذين من حقهم أن يحيوا ، وأن يتساووا مع إخوتنا المبصرين أو معي بحصولهم قانونياً على ما يمكن حصولي عليه . وبذلك ما كان لهذا النبأ أن يبهجني أبداً ، بل أن يحزنني ، ويحملني على البكاء والشعور بالذنب حيال من سأبدو وقد تنصَّلتُ من قضيتهم ، وأن يدفعني إلى الاحتجاج أمام والديّ اللذين لم يأبها بها ، ولا بإلحاحاتي على ضرورة الحيلولة دون أن تُتَّخذ إزائي تلك الخطوة الأنانية .

وهكذا إلى أن يحلَّ صباح الثلاثين من حزيران ١٩٨٥ ، لتهرع أمي وزوجة خالي سعد إلى غرفتي ، وتخبراني نيابةً عن والدي الذي اتصل بنا هاتفياً ، بمطالبة القصر الجمهوري رئيسَ الجامعة بمعلومات حولي ، وبتهيُّؤ والدي للذهاب إلى رئيس الجامعة من أجل

أن يقوم هو بتسجيل هذه المعلومات . وقد أُرسِلَتْ إلى الجهة المطالِبة بها في اليوم ذاته .

وهكذا إلى أن يحلَّ الرابع عشر من تموز من العام ذاته ، ليتصل بنا والدي مرة أخرى ، وتنصت إليه أمي بصوتها الذي أخذ يتعالى فرحاً ، ويطلب مني تهيئة نفسي لمرافقته إلى رئيس الجامعة ، فيخبرنا عن الاتصال الإيجابي الذي تَلَقّاه من القصر الجمهوري بشأني .

وندخل أنا ووالدي مكتب رئيس الجامعة ، لنتلقى منه التهاني الكثيرة ، وكذلك من أمينة الجامعة الدكتورة نجاة عثمان . فقد أوعز إليه رئيس الجمهورية عن طريق سكرتيره بما طال انتظارنا له ، نضالنا من أجله . لقد أوعز إليه باتخاذ القرار الفوري بتعييني معيدة، وإيفادي داخلياً إلى كليتي لمتابعة دراساتي العليا .

وأعود ووالدي إلى البيت ، لتخبرنا أمي باتصال العماد مصطفى طلاس في أثناء غيابنا ، ثم لنتلقّى اتصاله الثاني في أثناء حضورنا، مبتغياً تهنئته المباشرة لي ، وتكرار إعلامي بما حدث ، ذلك مقابل إعلامه وزوجته والديّ من خلال اتصال سابق باستحالة إهمالهما موضوعي .

أما وزير التعليم العالي الذي ما أصبح عليه إلا أن يوقِّع على قرار تعييني ، فقد سأل رئيس الجامعة ما إذا كان ينبغي انتظار ما هو خطي ؟ فأجابه رئيس الجامعة بأنه تَلَقَّى إيعازاً باتخاذ القرار ، وسيقوم بالتنفيذ . لكن الوزير للمزيد من التأكُّد ، اتصل بالقصر

ليتلقَّى المعلومات بصورة مباشرة ، فرُدَّ خائباً إلى رئيس الجامعة الذي تلقَّاها من اتصال القصر .

وجاء الثاني والعشرون من تموز ١٩٨٥ ، ليأتينا من المرحوم المفتش هاشم فارس النبأ بتوقيع الوزير على القرار ، إذ كان قد حمل القرار الذي صدر عن رئيس الجامعة من اللاذقية إلى دمشق نتيجة مهمة أخرى أوكِلَت إليه . وقد يكون من المناسب أن أذكر ، أنني وأنا الآن في عام ١٩٩٨ ، أكتب هذه الفقرة بتاريخ الثاني والعشرين من تموز الذي يشكل ذكرى ذلك التوقيع .

وبعد أيام من تعييني ، يعود والدي إلى الوجوم الذي تَماثلَ مع وجومه في يوم الوليمة ، ونعود إلى الاستغراب والتساؤل ، ما دام القرار قد أصبح بين أيدينا ، والتوقيع عليه أمام أعيننا ؟ وهكذا إلى أن يحلَّ العاشر من آب ، ليتصل بي والدي هاتفياً ويخبرني أن في هذا اليوم تحديداً انتهت معركتنا ، في هذا اليوم دون ما قبله تحقَّقَ نصرنا المؤكد ، لأن فيه تم التأشير على قراري من الجهاز المركزي للرقابة المالية ، ذلك بعد امتناع قد بدأ منذ وجوم والدي الأخير ، وانتهى في هذا اليوم المحدد ، بتدخُّل من السيد فوزي عيون السود ، رئيس الهيئة المركزية للرقابة والتفتيش بدمشق سابقاً ، أو بحمله على تدخُّل السيد حكمت الجزائري ، أحد أعضاء الجهاز المركزي ، مستعيناً بالنص القانوني الذي يجيز تعيين أمثالنا . وبذلك ما كان مني إلا أن أشفقتُ على والدي ثانيةً من صدمته الثانية ، وازددتُ شعوراً بالتعب والإنهاك اللذين ظهرا في هذه المرحلة الأخيرة ، وقد حلّا محلّ ما استنفدتُ من الإحساس بالفرح . كيف لا ؟ وقد شهدتُ

خلال ذلك العام من الأحداث والمباهج المزيَّفة والتعقيدات ، ما كان يُستحَق شهوده فيما لو كنتُ أحاول الوصول إلى الجنّة ، أو إلى أن أكون طبيبة جرّاحة ، أو مصوِّرة تلفزيونية . ثم انتهيتُ إلى قضاء ساعات عدة من ذلك اليوم ، يوم العاشر من آب ١٩٨٥ ، وأنا مُحَمَّلة بالذهول ، وبعدم القدرة على استيعاب ما حدث ، ولم أصدق أن تلك المأساة انتهت حقاً ، إلى أن عاد والدي من عمله ، ووجدتُه يرقص على أغنية كانت تنبث من تلفازنا .

- ٢٠ -

ولكي تزداد رقصة والدي جمالاً وتكاملاً ، أذكر أنه شاركه في ذلك ابن عمة أمي السيد بديع صوفي ، هذا الذي كنا نطلق عليه ظريف العائلة ، والذي لا ينفكُّ يبثُّ البهجة والشعور بنقاء الحياة في نفوس مَن حولَه . فهو إذا ما أتى ليزورنا ، أنبأنا عن قدومه من خلال غنائه الصائح من وراء الباب ، وترديده كلمة " افتحوا " وفق تلك الصورة المطولة المنغمة ، فنهرع لنستقبله أنا وإخوتي بالتصفيق والغناء ، وأمي بضبط الإيقاع ، ذلك ليؤدي هو رقصته المألوفة ، وليرسل إلينا الجيران أحداً بعد حين مستفسرين عما حدث في بيتنا ؟ وإذا ما جلس بيننا أو بين الأقرباء أو الأصدقاء ، كان لا ينبغي أن ينادي الأشخاص بأسمائهم ، بل أن يبتكر لهم ما هو أكثر مثاراً للتفكُّه والضحك ، ولم يحظَ أحد منهم باللقب الجميل ، سوى أنا وأختي رفيف ، فنحن ريحانتاه ، لتيقُّنه أن ما من أحد سيقرأ الفاتحة

على روحه بعد موته إلا أنا وإياها . ومع ذلك ، فأنا لم أسلَم بين الحين والحين من تعليقاته الكثيرة . فقد كان يسخر من صوتي المنخفض الذي يجعله يظن حين أحدّثه أنه أصمّ . وكان يسخر من طعامي اعتقاداً منه أنني آكل كثيراً ، وأتصور في مخيلتي دائماً ما تنوَّعَ من الأصناف اللذيذة ، ولا أرى أحلامي التي أقصُّها عليه إلا بفعل عشاءاتي الثقيلة . كما كان يسخر من شهادة الدكتوراه التي سأحصل عليها ، اعتقاداً منه أنني لا أصلح إلا لأكون بائعة لحلوى شعبية في بلدنا " الجوزيّة " . بينما لم تلقَ رفيف منه إلا مزحة واحدة فقط ، قد دفعَتْه إليها حين لم تجوِّز له التثاؤب في أثناء صلاته ، إذ ردَّ عليها حرفياً بهذه العبارة : ومتى كنتِ يا رابعة العدوية تفتين ؟ ومع ذلك لا ينبغي أن أنكر أنني أنا التي كنتُ غالباً ما أسبِّب في توجُّهه هذا إليّ ، توقاً مني إلى استثارة غضباته الفكاهية . فإذا ما اتصل بنا هاتفياً ، لم أتأخر عن التصريح له بظن صوته العريض صوت صديقة جدتي أم علي . وإذا ما كرر غفواته وهو جالس في الفترات التي كان يَدَعُ فيها التدخين ، لجأتُ إلى إيقاظه بطريقة غير لطيفة أو مرعبة لجبنه . وهو للوهلة الأولى ، كان يعقِّبُ على كل من إزعاجاتي له ، بتكراره عليّ عبارة " لله درّكِ " ، أو بتكرار تهديده لي بأن ما أقوم به سيكلفني كثيراً . وتمر الساعة بعد الساعة ، واليوم بعد اليوم ، ليتبيَّن لي أنني لم أُكلَّف في كنفه ، إلا بالمرح والسعادة الفائقين ، هذين اللذين كم كنتُ أتمنى أن يصيبا البشر جميعاً من خلال معرفتهم جميعاً بهذه الشخصية الفريدة .

وبناء على ذلك ، لم يَحْلُ لنا الاصطياف من دونه ، من دون الاحتفالات الكثيرة التي كان يقيمها لنا في أثناء ذلك ، إذ كان يلجأ خلال كل منها إلى مد رأسه من الباب أو النافذة ، دافعاً أهالي المصيف إلى حسدنا على ما نحن فيه . لكن كم اضطررتُه في أحد ذهاباتنا إلى شتم آلتي الكاتبة التي اضطررتُ إلى اصطحابها معي ، وشتم الذي اخترعها والذي أتى بها ، ذلك لكثرة ما انزلقَتْ عليه في السيارة التي تقلُّنا ، ثم للطمِها ظهره في أثناء النزول ، ثم رأسه بعد انتهائه من صف الحجارة . كما كان ينبغي أن تلقى منه ما يماثل ذلك ، الأرض التي نملكها في المصيف ذاته ، نظراً لما سبَّبَتْ له وعورتها من إرهاق لدى عونه أسرتي على قطف بعض ثمارها . بل لنتصور أي براكين من الغضب تدفقت منه تجاهها ، وتجاه من يملكها والمناظر الرائعة التي تبدو من خلالها ، حين كوفِئَ في النهاية بانزلاق كل ما جمع من تلك الثمار من عباءته ، وجَعْلِ كل واحدة بخُطاها المشاغبة المتمردة ، تسابقه إلى ما لا يمكنه الوصول إليه من المنحدرات والوديان . أما الذباب الذي يكثر في المناطق الجبلية ، ويشكل مصدر إزعاج كبير لسويعات هنائه ، فلم تسلم أي واحدة لدى ظهورها له من متابعته المتأنية الصامتة التي تُظهرهِ وراءها وكأنه نمس ، إلى أن يحقق إصابتها بالضربة القاضية ، ويستكمل بطولته باللعن على من هنّأ والديها ، والدَي الذبابة لدى قدومها إلى الحياة .

وهو لفرط ما يترك في النفوس من تأثير حيوي ، استطاع أن يُنهِض أمي ذات يوم من فراش الخطر نصف معافاة ، وأن يجعلها

تتدرَّج في هذا التعافي يوماً بعد يوم ، إلى أن تمكَّنَتْ من استعادة صحتها بصورة كاملة . وهكذا عاد وإياها ليستأنفا أحاديثهما عن أقربائنا الأموات ، وليصيح بي متحدياً ، كلما احتججتُ على عدم تحدُّثهما عن الأحياء . علماً أنه تجدر الإشارة إلى ما يثير في نفسه شبح موته هو من رعب هائل ، إذ ما إن استلقى ذات يوم على سرير متنقِّل ، وشبَّهَتْ له أمي هذا السرير بالتابوت ، حتى انتفض واقفاً بقامته القصيرة ونظراته الثاقبة من وراء نظارتيه اللامعتين ، لاعناً المشبَّه والمشبه به والتي شبَّهَتْ . وتجنُّباً لتعريض نفسي لما يماثل مصير أمي ، لم أتجرأ على أن أقصَّ عليه الحلم الذي رأيتُه حوله ، والذي تضمَّن نداء المذيع حكمت وهبي له بعد أيام قليلة من وفاته . لكنني لم أتمكن أنا ورفيف من الإمساك عن الضحك ، حين سألته ما إذا كان يعرف المذيع ؟ إذ سرعان ما انتفض صائحاً ، مستفسراً عما حملني على هذه المساءلة المقيتة ؟

بل إنه استطاع من خلال تأثيره في الآخرين أن يُضحِك يوماً سائلة وقفت ببابنا ، فمن جانب أخذت هي تلحُّ عليه لكي يقدِّم لها أي شيء ، ومن جانب أخذ هو يقسم لها بأنه لا يستحوذ على أي شيء ، وهكذا ظلت تلح ، وظل يقسم ، إلى أن سألها في النهاية ، ما إذا كانت تريد أن يخلع لها حذاءه ويقدمه لها ؟

لكنه كم كان يبعث من الرعب والاضطراب في نفوس من يتصلون بنا ، إذ كلما رَنَّ جرس الهاتف ، هرع مسرعاً إليه ، ليجيب عن سؤال المتصل بأنه مخطئ ، لكون هذا المكان أو بيتنا هو جمعية دفن الموتى . هذا مقابل ما قام به ذات يوم من اتصالات

كثيرة من هاتفنا ، بالكثيرين ممن يعرفهم ، متظاهراً أمام كل واحد بأنه رسول من آخر ، وبأن هذا الآخر يريد من المتَّصَل به أن يأتيه في الغد . وهكذا إلى أن سألته والدتي حول غرابة ما يفعل ؟ فأجابها بأنه يريد في الغد أن يرسل أهالي اللاذقية إلى بعضهم بعضاً .

لكنه إذا ما جعل من جلساته جميلة إلى هذا الحد ، فإنه جعل منها سريعة خاطفة غير كافية لتفريغ ما كان يشحننا به ، وهو كان يتذرع لدى بترها بما يخطر بباله من انشغالات ، ولا سيما في بيته الذي أخلاه من الحياة الزوجية ، معبراً بصورة باطنية عن إيثاره الحياة الحرة غير المسؤولة ، وبصورة ظاهرية عن عدم حظوته بالتي تناسب ميوله ، فهذه شَرِهَة ، وهذه مغرورة ، وهذه قبيحة ، وهذه تفوقه طولاً إلى حد يجعله يخشى على نفسه من أن تفوقه في قدراته الجسدية ، وهذه مترهلة الوجه إلى حد يجعله يخشى إذا ما قبَّلها من أن ينتزع بشرتها من مكانها . وعلى الرغم من ذلك ، فإنه لم يكن يتوقف عن مطالبة كل من يلتقيه بإرشاده إلى عروس ، وكان من بين الذين طالبهم أحد مُدرِّسيَّ في الكلية ، فانتقى له على الفور ممازحاً زميلة لي مفرطة في بدانتها . ومن قَبِيل المصادفة ، زارتني هذه الزميلة بعد أيام قليلة ، وعبّرت عن تمنيها لو كان هذا المدرس يتذكرها لأمر إداري ، وما إن انزلقتُ وأكدتُ لها أنه يتذكرها ، حتى تشبثَتْ بي تسألني بإلحاح عن كيفية علمي بذلك ؟

هكذا كانت جلساتنا مع بديع ، وهكذا كان ينهيها ، لكننا لم نكن ندري حين كان الزمان يختطفه منا في نهاية كل زيارة ممازحاً ، أنه سيختطفه يوماً دون أن يعيده .

وبالعودة إلى قصتي الأخيرة أقول : إنه إذا ما استغرق تعييني عاماً وشهرين وثمانية أيام ، فقد مضى حتى هذا اليوم ، يوم الثاني والعشرين من تموز ١٩٩٨ ثلاثة عشر عاماً دون أن تُحَل قضية المعوقين عامة ، هذه التي لا أستطيع أبداً إلا أن أسميها قضيتي . إنه حتى الآن لم يطرأ بهذا الصدد أي جديد ، على الرغم من استمرار الجامعة في الخضوع للنص القانوني القديم الذي وُضع لصالحنا ، أو على الرغم من تجويز القانون الجديد تعيين المعوقين في المؤسسات المختلفة بنسبة ٤ % . ونظراً لتحوُّل هذا الأمر لديّ إلى هاجس يسود نفسي وفكري وتساؤلاتي ، كتبتُ رسالة إلى وزيرة التعليم العالي التي حلَّت خلفاً للسابق . وقد قام بإيصالها إليها الأديب حنّا مينه . وهذا نصها :

(السيدة وزيرة التعليم العالي المحترمة :

ريم هلال المعيدة في كلية الآداب ، قسم اللغة العربية في جامعة تشرين ، والحاصلة على درجة الماجستير ، تعرض مشكلة إنسانية :

منذ ولادتي وأنا أعاني من ضعف شديد في البصر ، لكن إيماني بقدرات الإنسان اللامتناهية ، حملَني وأسرتي على تخطّي ما أصابني القدر به ، والبعد عن التخاذل والاستسلام ، إلى أن تمكنتُ في النهاية من التفوق ، والحصول على المرتبة الأولى في الجامعة، ذلك ليس على دفعتي فحسب ، إنما على جميع الدفعات التي تتالت

على قسم اللغة العربية في جامعة اللاذقية ، منذ نشأته حتى ذلك الحين .

وفي أيلول عام ١٩٨٣ ، أي عقب تخرُّجي ، تقدَّمتُ إلى وزارة التعليم العالي بطلب تعييني معيدة ، شأني شأن زميلاتي وزملائي الآخرين . تم القبول المبدئي بالطلب ، فكان الفرح كبيراً ، لِما عنى ذلك بالنسبة إليَّ وإلى المكفوفين جميعاً ، من تقدير للجهود ، وحثّ على المثابرة في اقتحام مصاعب الحياة . إلا أن وزير التعليم العالي، ما لبث أن تراجع عن قراره بالموافقة ، واستنكف عن استكمال إجراءات تعييني ، متذرِّعاً بعاهتي التي لم يكن لي ذنب في تشكيلها ، متغافلاً عما حقَّقتُ ، وعما قدَّم عظماء المصابين في هذا العالم من تجارب خالدة ، ولا سيما هيلين كيلر التي قد يتعذر على الإنسان فهم معجزتها ، والدكتور طه حسين الذي لم يُكتفَ بتعيينه أستاذاً في الجامعة في ذلك العصر بل وزيراً .

تم اللجوء إلى ما أمكنَ من الوسائل من أجل الاعتراض على ما حدث : التلفاز ، الصحافة ، المراسلات المكثفة ، ذلك من قِبَلنا ومن قِبَل الآخرين الطيبين الذين هزَّهم هذا الأمر ، وأخصُّ بالذكر أساتذتي الأكارم في الجامعة ، إلى أن تم بعد عام وشهرين تقريباً تعييني بصورة استثنائية .

عاد الفرح الأول من جديد ، ولكن ليس بالقدر ذاته ، ما دام الحل كان فردياً ، وخاصاً بي دون إخوتي المكفوفين الذين لا أنفصل عنهم، ويشغلون دائماً عالمي وأحلامي . إن المشكلة لم تنتهِ في نظري ، ولا تزال تتجدَّدُ عليَّ بين الحين والحين بالآلام ذاتها ، لأن

المكفوف لا يزال يُرفَض تعيينه لمجرد كونه مكفوفاً ، وهنا أذكر على سبيل المثال لا الحصر ، زميلتنا الآنسة " جهينة مبيّض " ، التي تم الإحجام عن استكمال تعيينها معيدة في قسمنا بعد القبول به في عام ٨٦ ، فأصبحت ضحية إرهاقين نفسي وعضوي كبيرين .

أيتها السيدة الوزيرة : باسم المكفوفين جميعاً أكتب إليك ، لِما توسَّمنا فيك من المسحة الإنسانية والعقل النظيف . باسمهم جميعاً أتساءل عن الحل الذي يمكن أن يُقدَّم إزاء هذه القضية الخطيرة والملحّة التي لا تقتضي سيرورة الحياة إبقاءها معلقةً هكذا .

هل نطالب الأطفال منهم بالرضوخ لواقعهم الذي نشؤوا عليه ؟ والكف عن اتخاذ أي خطوة ما دامت النتائج ستكون عبثية إلى هذا الحد ؟

هل نطالب الذين توصّلوا إلى منتصف الطريق أو نهايته بالعودة إلى حيث كانوا ؟ ورهن ذواتهم في محابس لا تحصى ؟

أليس ما يُطلَق عليه اليوم الموت الرحيم بأكثر رحمة في مثل هذه الحال ؟

أيتها السيدة الوزيرة : إننا نبتغي استعادة حقوقنا على يديك ، حقنا بالحياة ، بالمساواة مع إخوتنا السليمين جسدياً الذين لا بد من أن يكونوا قد حملوا – هم الآخرون – نواقص كثيرة ، ولكن بشكل خفيٍّ غير ظاهر للعيان لحسن الحظ .

أيتها السيدة الوزيرة : إننا لا نهدف سوى إلى أمر واحد فحسب ، وهو إخراج النص القانوني الذي صدر لصالحنا منذ سنوات بعيدة ، من حيّز التنظير إلى حيّز التطبيق ، وهو على النحو التالي :

في عام ١٩٥٨ صدر القانون الذي يحمل الرقم ١٤٤ سمح للمكفوفين وضعاف البصر بأن يشغلوا وظائف معينة في الدولة ، وتُرك هذا الأمر لوزير الشؤون الاجتماعية .

وفي عام ١٩٧٧ أصدر وزير الشؤون الاجتماعية بناء على هذا الأمر القرار رقم ٧٨٧ ، سمح لهم فيه بالتدريس في المؤسسات التربوية والمعاهد والجامعات) .

ويجدر بي أن أذكر ، أنني لم أتلقَّ بشأن هذه الرسالة ، أي رد من أي نوع كان .

- ٢١ -

بحصولي على راتبي الأول الذي أكَّدَ حقيقة تعييني ، وجدتُ أنه أصبح عليَّ أن أتهيّأ للمرحلة الأكثر تعقيداً من دراساتي العليا ، وهي مرحلة الماجستير ، لا من حيث اختيار البحث الذي سأتناوله ، فهذا أمر لم يكن قد آن أوانه وفق منظوري ، إنما من حيث الانكباب على القراءات الكثيرة المتنوعة التي ستسهم في إغناء أساسي الثقافي ، ومحافظتي على تميُّزي ، وحصولي على تلك الدرجة العلمية العالية بصورة أكثر جدارة . وهكذا قضيتُ ثلاث سنوات أتنقَّل فيها من كتاب إلى كتاب ، ومن مجال معرفي أو أدبي إلى مجال ، غير مستجيبة لإلحاحات عميدنا من أجل تقدُّمي بطلب إيفاد ، أو غير آبهة بمفاخرات أقراني لدى اقتحامهم مباشرةً ما كنتُ أمهد له ، لأنني

كنتُ أدرك تماماً ، أي تقدُّم عليهم أحققه من جانب آخر ، وأي بناء أسعى إلى إقامته على تلك الأرض الرافضة أي هشاشة .

لكن هذا تطلَّب مني الاستعانة بفتاة قارئة سوى أمي ، أمي التي بتُّ أشعر بأنني أتعبتُها طويلاً ، وابتغيتُ إعفاءها من عبء المرحلة الجديدة الذي سيغدو مضاعفاً . هذا وإن كنتُ قد بذلتُ الكثير من الجهود لدى بحثي عن مثل هذه الفتاة ، ولا سيما أنني كنتُ مضطرة إلى ملازمة السرية تجاه من أصرَّتْ على ملازمتي حتى النهاية . لذا فينبغي تصوُّر أي مفاجأة باغتَتْ أمي ! أي حزن سكنها ! أي دموع ذرفَتْها ، حين دخلَتْ بيتنا من كانت ستحلّ محلّها ، أو من أتت لتسلبها أقدس مهمة في حياتها .

كان من المفترض تلقائياً ، أن يشرف على بحثي في الماجستير أستاذي الدكتور عبد الكريم حسن ، لا لإمكاناته العلمية المتميزة فحسب ، بل لِما وُجِدَتْ بينه وبين أسرتي من صداقة حميمة ، قد تشكَّلَتْ من سماته الخلقية الرفيعة ، وبصورة أكثر خصوصية من تعامله مع قضية تعييني وكأنها قضيته الشخصية . لكن للأسف ما لبث أن تم العدول عن هذا الإشراف ، نظراً لعدم حيلولة التقارب الروحي فيما بيننا دون حدوث التباعد الفكري ، فأستاذي كان يُؤْثِر أن أعمل في أحد مناهج البنيوية التي التزمَ بها ، بينما لم أتمكن أنا بالمقابل من التآلف معها ، أو من الاقتناع بإسرافها في الموضوعية إزاء الأدب .

وهكذا انتقل الإشراف إلى أستاذي الدكتور تامر سلّوم ، الذي التقيتُه ووالدي في يومي الجامعي الأول ، وأبدى تجاهنا من

الاستعداد لتقديم ما نحتاج إليه من مساعدات . وحين كان ينبغي أن نتفق على بحث ، وضع أمامي ثلاثة عنوانات . وعلى الرغم من وقوفه الوافي عند كل منها ، ما لبث أن أبدى لي رغبته العميقة في اختيار ثالثها ، أي الذي يتعلق بنقد طه حسين ، دون الأول الذي يتعلق بالأسطورة في شعر الشعراء التموزيين ، ودون الثاني الذي يتعلق بالحركة النقدية حول روائي ما . وبرغم احترامي لرغبته ، وكذلك للباعث النبيل الذي وجَّهه إليها ، فإنني لم أسارع إلى العمل بها ، نظراً لمحاولتي ولوج هذا البحث قبلاً باقتراح من والدي ، وانتهائي لدى قراءة بعض كتب الناقد المذكور ، إلى ملازمته كثيراً من الذاتية في نقده ولغته ، مقابل ما أوحى به من ملازمته الموضوعية .

ويحدث خلال الفترة التي تفصلني عن مراجعة أستاذي ، والتي يُفترَض أن يستغرقها استقراري على أحد الأبحاث الثلاثة ، أن تصاب أمي بالتهاب كلوي حادّ ، قد بعث على المزيد من قلقنا ، وعلى ما يشبه اليأس لدى الأطباء المعالجين ، لذا لم أتمكن في ذات صباح ، إلا أن أحقق حلماً زارها في الليلة السابقة ، ولا سيما أنه تلا مرورها بنوبة شديدة . لقد رأت في ذلك الحلم ، أن طه حسين في بيت جارتنا التي تعلونا ، وأنها – أي أمي – عزمتْ بإلحاح وحماس على اصطحابي إليه ، فمررنا خلال ذلك بطريق حجري عسير ، قد حمَّلَنا ما تنوَّعَ من المصاعب والمشاقّ . وهكذا إلى أن تمكنّا في النهاية ، من العثور على من نقصده ، إنما في هيئة شيخ مهلهل محني الظهر . وبذلك فحين ذهبتُ إلى أستاذي منتقيةً البحث

بخصوص طه حسين ، ظهرتُ أمامه وكأنني استجبتُ لرغبته ، في حين أنني لم أكن منصرفة قبل حلم أمي ، إلا إلى الحيرة ما بين البحثين الآخرين .

ولم تمضِ أيام على اتفاقي وأستاذي حول البحث ، حتى أُنبئتُ بتهيُّئه للسفر إلى الجزائر ، وبعزمه على قضائه فيها سنوات ، بغية التدريس في إحدى جامعاتها . وبذلك فإنه إذا ما كان لإرادتي الدور في تحقيق شطر من حلم أمي ، أي ذلك الذي يتعلق باختياري البحث حول طه حسين ، فقد تبيَّنَ لي دور الأقدار في تحقيق شطره الثاني ، ذلك حين انتقل الإشراف على بحثي ذاته ، إلى الدكتور فؤاد المرعي الذي هو من تلكلخ ، أو بالأحرى من بلدة جارتنا التي رأتها أمي في حلمها وقد زارها طه حسين .

لم ألتقِ أستاذي المشرف الجديد الدكتور فؤاد المرعي الذي يدرّس في جامعة حلب ، إلا بعد أن قطعتُ شوطاً غير قصير من قراءاتي، وأمسكتُ بالنقطة المركزية التي سأنطلق منها لدى صياغة بحثي ، إذ ما كدتُ أعود إلى أعمال الناقد ، حتى نبَّهَني أخي عمر من خلال مطالعة أخيرة له ، إلى اتهام ساطع الحصري لمن أبحث فيه بالنزعة الفرعونية. وبرغم عدم اهتمامي في البداية بهذه الإشارة ، لعدم عثوري قبلاً على ما يثبتها ، فإنني ما لبثتُ بعد أيام أن لاحظتُ إمكان ربطها بنقده الشعر الجاهلي ، ذلك لأن مبالغته في شكه الذي صدر عنه ، قد تعود إلى كون الشعر المذكور جزءاً من التراث العربي ، أو بالأحرى من التاريخ العربي الذي لا يُفتَرَض أن

تعيره تلك النزعة الإقليمية سوى موقع ثانوي ، ولا بد من أن تُغلِّب عليه التاريخ الفرعوني الأصيل .

ثم أخذتُ أتقدّم في قراءاتي ، ليتوثق لي يوماً بعد يوم ما كنتُ أضعه في إطار الاحتمال ، ولتزداد غبطتي شيئاً بعد شيء بإمكان إتياني بالجديد ، ولا سيما أنني أصبحتُ سأشمل به نقد طه حسين بأكمله ، ولن أقتصر فيه على نقده الشعر الجاهلي ، إذ إنني ما لبثتُ أن عثرتُ على بعض تصريحاته التي أكّدَتْ نزعته تلك ، مثل " مصر فرعونيةٌ روحاً وهوىً ودماً وفكراً – مصر فرعونيةٌ قبل أن تكون عربية " . ثم لاحظتُ إمكان الربط بين أبعادها المتعددة ومنهجياته النقدية التي رأيتُها تتبدل بناءً عليها . وهكذا فإنني من خلال تناولي الشامل هذا الناقد ، وردّي على ما كثر من أعماله ، ظهرتُ وقد حققتُ فوق ما حلمتُ به في السنة الجامعية الأولى ، أو بعبارة أخرى فوق ما تقتُ إليه من الرد مستقبلاً على كتابه " في الشعر الجاهلي " .

لا شك في أنني فاجأتُ أستاذي المشرف في لقائنا الأول ، حين أطلعتُه على ما توصّلتُ إليه من نتائج ، نظراً لِما تمَّتْ الألفة عليه من تلقيب طه حسين بعميد الأدب العربي ، لذا لم يتأخر عن مساءلتي ملاطفاً مبتسماً ، عن سبب تحاملي على الناقد ؟ أو بالأحرى .. عن سبب عدم حُبّي إياه ؟ فأجبتُه بأنني أشعر تجاه هذا الإنسان بما هو أكبر من الحب ، ما دام لا يزال يشكل بالنسبة إليَّ قدوتي السامية التي أستضيء بها ، لكنه هو الذي علَّمني كيف

ينبغي الابتعاد عن تقديس ما أُخضِعُه للبحث ، وأن أستخدم ما أَمكَنَ من الموضوعية التي ستسهم في كشف الحقائق .

ومقابل ذلك ، لا ينبغي أن أنكر فضل أستاذي ، نظراً لِما كان له من دور في إعانتي على إنجاز بحثي ، ولِما مَنَحَني من الثقة بإمكاناتي ، والحرية من أجل التعبير عن آرائي ، وإن بدت بعيدة إلى حد ما عن رأيه القائم على الإعجاب بطه حسين . علماً أنه ما إن انتهيتُ من إعداد بحثي ، حتى صرح لي بتمكني من إقناعه، ومن تحقيق انسجامه شيئاً فشيئاً مع ما كوّنتُ من رؤيا جديدة بصدد الناقد . فكان مني حينئذٍ أن ازددتُ احتراماً لهذا الأستاذ ، هذا الذي إلى جانب تحريره طالبتَه ، لم يجد غضاضة في الأخذ ببراهينها .

ذلك فيما يتعلق بأستاذي المشرف ، أما فيما يتعلق بلجنة الحُكم التي كان عليها أن تناقشني لمنحي درجة الماجستير ، والتي شَكَّلها أستاذي من عضو سوري وآخر غير سوري ، فقد كان موقفها مختلفاً تماماً ، ذلك في فترة ما قبل المناقشة ، لِما أظهر لي العضوان من جفاء وحقد لم يُعرف مبرر لهما ، وكذلك خلال ساعات المناقشة الأربع ، لِما أظهرا لي من حدة وعنف لم تشهد المناقشات الأخرى لهما مثيلاً ، قد تَمثَّلا في لهجة غير السوري التي ظلت على درجة واحدة من التعنت والتصلب ، وفي لهجة السوري التي أخذت تتعالى حتى وصوله بها إلى الصراخ ، وإلى إرفاقها بحركات عاصفة من جسده كله ، ومن يديه اللتين أخذتا تعلوان وتهبطان وتمتدان وكأنهما تريدان الوصول إليَّ والبطش بي . وهكذا إلى أن أتت لحظة إعلان النتيجة ، وتم منحي درجة الماجستير

بتقدير جيد وعلامة السبعين ، أي هذه التي لم تُعطَ عادةً إلا لمن يحتاج إلى العون والرحمة ، والتي جعلَتْني أشك فيما أسمع عن أستاذي لدى تلاوته قرار اللجنة ، فما كان مني إلا أن تجمدتُ في مكاني حتى ذُكِّرتُ بضرورة مصافحة المناقشين ، وما كان من أمي التي نفد صبرها ، وخاب حلمها في هذا اليوم إلا أن أخذت تصرخ في قاعة المناقشة ، فاقدةً صوابها ، ناسيةً أين هي ، مردِّدةً ملء دموعها : هذا ظلم – هذا ظلم ، ليست هذه بعلامة ابنتي . هذا بالإضافة إلى ما سمحَتْ به لنفسها الرصينة ، من زجر العضو السوري لدى دنوِّه لمصافحتها ، وما سبَّبَتْ بذلك من رجوعه خائباً مغتاظاً ، مستغرباً من تصرف أمي ، السيدة الفاضلة بحسب تعبيره.

وفيما يتعلق بالحاضرين الذين تدفّقوا بأعدادهم الكبيرة ، وتألّفوا من خيرة المثقفين في مدينة اللاذقية ، فإنهم لا يزالون حتى الآن ، أي بعد مرور سنوات من المناقشة التي كانت بتاريخ ٤ / ٧ / ١٩٩٢ ، يعبّرون عن اندهاشهم الكبير حيال ما حدث ، حيال توجُّهات الأستاذين التي كانت أقرب إلى الثورة ، وردودي التي ظلت محافظة حتى النهاية على موضوعيتها وهدوئها ، والتي أقنعَتْ الجميع إلا هما ، بذريعة أنني لستُ بمستوى طه حسين حتى أقدِّم بشأنه ما قدّمتُ . علماً أن الأمر – وفق منظوري – لا يمكن أن يكون قد انبنت شدته على مخالفتهما الفكرية لي ، بقدر ما انبنت على أساس آخر لا يزال مجهولاً حتى الآن ، ما داما لم يتمكّنا في أثناء المناقشة من الرد على براهيني الواضحة ، وكذلك ما داما قد حملا الكثيرين بعد المناقشة على مساءلتي ما إذا كان يوجد من

خلاف شخصي بيني وبينهما ؟ أو ما دام الأستاذ السوري قد استقبل نسخة بحثي في الشطر الأول من مرحلة ما قبل المناقشة ، أي قبل حدوث تحوله المفاجئ بحفاوة كبيرة تناسبت وتقديره السابق لي ولأسرتي ، وما دام الأستاذ غير السوري قد أرسل لي في فترة رضى الأستاذ السوري عني ، التهاني بالدرجة التي سأحصل عليها بفعل إعجابه ببحثي جداً جداً جداً وفق تعبيره . وعلى أي حال ، فإنه حتى لو كان خلافنا فكرياً ، لا ينبغي أن أعيره ذلك الاهتمام ، نظراً لكون أحد الأستاذين يعتقد انتهاء فعل " نرجو " بألف ، أو لكونه يحار ما بين حرفي الزاي والذال في كلمة " غزل " ، أو لعدم إيجاد أستاذي المشرف حرجاً في مواجهته ، مقارناً ما بين لغتي السليمة التي لم تنزلق في خطأ واحد خلال ساعات المناقشة الأربع ، ولغته التي حفلت منذ عبارته الأولى بثلاثة أخطاء .

بل إنه أتيح للأستاذ السوري الامتداد بتحامله عليَّ ، إلى مرحلة ما بعد المناقشة ، حين أُنعِم عليه بتسليمه مباشرةً رئاسة قسم اللغة العربية ، ثم بتسليمه بعد أشهر قليلة عمادة كلية الآداب ، وما وَجد في هذين الأمرين من فرصة لتأخيره قرار مجلس القسم بمنحي رسمياً درجة الماجستير شهرين كاملين ، وتأخيره قرار إيفادي وإيفاد زملائي للعمل في بحث الدكتوراه عامين كاملين ، قد تخللهما ما يكفي من توتري ودموعي ، ويأسي من الوصول إلى الدرجة التي كنت أصبو إليها ، إذ كنا كلما تقدمنا إليه بطلب ، رده بالرفض ، بذريعة أنه لا يريد هذا الأستاذ المشرف ولا يريد ذاك . علماً أننا كنا ندرك تماماً

عدم ارتباط هذه القضية بالإشراف ، بقدر ارتباطها بالرغبة في تأخيرنا ، ووضع العراقيل في طريقنا .

وهكذا ظللنا على هذه الحال ، حتى وصلت إحدانا في غضبها إلى الذروة ، وتبرعَت بشكوى سرية إلى وزيرة التعليم العالي ، إذ ما لبثت الوزيرة بعد أيام قليلة ، أن ردَّت على تلك الشكوى بكتاب تأنيب وجَّهَتْه إلى إدارة الكلية ، بل إنها انتهزت هذه المناسبة لدعوة جميع المعيدين ورؤساء الجامعات في سورية للاجتماع بها في دمشق ، فلعلها تحقق التَّماس الأكثر مباشرةً معهم ، وتتفتح على المزيد من القضايا . وبذلك استمعَتْ إليّ وإلى زميلتين لي بقدر ما يسمح به الوقت ، ثم وجهتنا إلى رئيس جامعتنا الذي طلبت منه مباشرةً الاجتماع في اللاذقية بجميع المعيدين وعمداء الكليّات .

وفي موعدنا المحدد مع رئيس الجامعة ، يبدو أنه لم يتجرأ أحد سواي على إعلامه بما حدث أمام عميدنا ، أمام الذي لا يبغي تقدُّمنا ، سواء أأحسنّا إليه أم أسأنا . لذا وقفتُ أمام الجميع بهدوء ، وأخذتُ أرسم قضيتنا بتفصيل ووضوح ، خطوةً خطوة ، ومرحلةً مرحلة ، إلى أن أنهيتُ مداخلتي بهذا التعقيب: إننا نعلم أن هناك رئيساً ومرؤوساً ، لكننا وصلنا إلى درجة من السنّ والعلم ، لا تجعل من اللائق التعامل معنا وفق هذه الطريقة ، ولا سيما في مؤسسة تربوية كالجامعة التي تشكل عبر كل الأزمنة والأمكنة منبراً للكلمة الحرة المسؤولة ، والسلوك الحر المسؤول . فكان أن شعرتُ في النهاية بما حظيتُ به من إعجاب رئيس الجامعة ودهشته الصامتين، ومما يماثلهما من عمداء الكليات ، باستثناء عميدنا حتماً ، ذلك

الذي راح ما بين يوم وآخر من تلك الفترة التي غدت عصيبة عليه ، يطلق احتجاجاته الصريحة، وتهديداته بإمكان تنفيذه الكثير حيالي ، لولا مراعاته وضعيَ الخاص .

وهكذا لم تمضِ أشهر قليلة حتى أُزيح عميدنا من منصبه ، وتم إيفادنا الذي انتظرناه من عام ١٩٩٣إلى ١٩٩٥.

وبذلك أخذتُ أتفرغ للعمل الجادّ في بحثي الذي كنت قد اخترتُه لنيل درجة الدكتوراه بعنوان " حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي " . وقد تم هذا تحت إشراف الدكتور تامر سلّوم الذي كان خلال عامَي الشقاء من بين المرفوضين من العميد ، وكذلك تحت إشراف الدكتور يعقوب البيطار الذي كان ينبغي في هذا المجال أن يكون أستاذاً مشاركاً . وقد حظيتُ من الأستاذين بما يكفي من رعايتيهما اللتين وجدتُ فيهما تعويضاً عما مر بي فيما سبق ، لكن حين تسنى لهما السفر خارج القطر ، انتقل الإشراف إلى الدكتور أحمد زياد محبِّك الذي لم يُبدِ لي أقل مما أبداه السابقان ، وتلقّيتُ منه وعداً مماثلاً لِما تلقّيتُ من الدكتور تامر صراحةً ، ذلك من محاولة التعويض في مناقشة الدكتوراه عما لحق بي في المناقشة السابقة من ظلم . علماً أن وعد الدكتور محبّك عنى المزيد من التشديد عليَّ حرصاً منه على إنجاز بحثي وفق الصورة المثلى . لذا فما إن انتهيتُ من إعداد بحثي ، حتى طالبَني بإعادة النظر فيه، ذلك بغية إشباع كل فكرة من فِكَرِهِ بالمزيد من التعليق والمناقشة . وإذا كان من البديهي أن يكون هذا الأمر قد ضيّق عليَّ في البدايات، وكلَّفَني خلال ثلاثة أشهر من جهود ربما عادلَتْ ما بذلتُ

في السنوات السابقة ، فلا بد في النهاية من أن أعبّر عن المزيد من تقديري لهذا الأستاذ ، وعن فضله في رفع بحثي درجات أخرى تعلو على التي رضيتُ بها قبل الأشهر الثلاثة تلك .

أما الأستاذ السوري ، فإنه إذا ما كان قد أخّر إيفادي لنيل درجة الدكتوراه عامين كاملين ، فقد كان له الفضل من جانب آخر في تحقيق ما نفعَني خلال حياتي كلها ، عملاً بالآية الكريمة " عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم " ، ذلك حين بدأتُ منذ ظهور تلك الأزمة بكتابة هذه المذكرات ، أو حين احتاجت موهبتي الشعرية التي كانت تنمو ببطء إلى مثل هذا الظرف القاسي والمديد لكي تتفتق عن ثمارها ، ولكي أبدأ من ثم في تحقيق ذاتي خارج الجامعة ومشكلاتها. لذا فما كاد ينتهي عام ١٩٩٥ الذي تَيَسَّرَ فيه إيفادي ، حتى أصدرَتْ لي وزارة الثقافة بدمشق مجموعتي الشعرية الأولى " العرّافة " ، بعونٍ من الأديب حنا مينه الذي عبّر عن دهشته حيالها من خلال كتابة مقدمة لها ، وبعون من وزيرة الثقافة الدكتورة نجاح العطار التي تحدَّدَ فضلها في كونها أول من أطلق عليَّ صفة شاعرة، ذلك حين كتبَتْ تعقيباً على قراءتها المجموعة : " موهبة رائعة تستحق التشجيع والنشر إذا أرادت الشاعرة ذلك " . هذا بالإضافة إلى ما نالته مجموعتي من تجاوب اللجنة المسؤولة عن تفحُّص الأعمال قبل نشرها . الأمر الذي حفَّز الأستاذ حنّا على إعلان المزيد من إعجابه بها ، ذلك بعدما كان يخشى من دور الصداقة بينه وبين والدي في تكوينه . علماً أنني حين عرضتُها على الأديب المذكور ، لم أكن أطمع منه إلا بإبداء عفوي لرأيه الإيجابي

أو السلبي حولها ، فإذا هو يرسله إليَّ هاتفياً من صوته الذي ظننتُ للوهلة الأولى أنه يحلق بفعل أمر آخر ، لا بفعل انتهائه للتو من قراءة أشعاري .

وقد وجَّهتُ الإهداء في مجموعتي هذه إلى أختي رفيف قائلة : " إلى رفيف قارئتي الأولى .. إلى رفيف شقيقةً وصديقة " . فكثّفتُ بهذه الكلمات القليلة العلاقة المتميزة التي تقوم فيما بيننا . فأنا أشكل بالنسبة إلى رفيف منذ طفولتها حتى وقتنا الحاضر القدوة التي تستضيء بها ، ما دامت تماثلني في وضعي الصحي ، وتجد في تجربتي الحياتية الناجحة ما يلوّح لها بضرورة التقدم ، وعدم الحذر من العراقيل التي تمكنتُ من اجتيازها . لذا رأيتُها وقد تفوقَتْ مثلي في دراستها ، ودخلَتْ قسم اللغة العربية الذي كنتُ قد دخلتُه ، وهي منذ سنوات حصلت مثلي على درجة الدكتوراه ، إذ كانت قد اتَّبعَتْ في ذلك طريقتي ذاتها ، القائمة على الاستماع من آلة التسجيل إلى قراءات القارئة ، وتسجيلها هي صوتياً الفِكَر التي تريد كتابتها ، لأقوم أنا بعد ذلك بنسخها لها على الآلة الكاتبة التي تعلمتُ استخدامها خلال أربعة أيام ، ذلك عن طريق أخي عمر ، وبتشجيع من صديقتي الدكتورة فاتن محجازي التي يمكن أن أعدها بهذا قد قدمت لي خدمة كبيرة ، تحددت في الاستغناء عن جهود القارئة ضمن مجال الكتابة .

هذا مع العلم أن رفيفاً لم تلقَ في حياتها سوى اليسر والظروف الملائمة ، وما عنى هذا من ظهوري وكأنني مهدتُ دربها الذي هو دربي ، واقتلعتُ لها منه كل ما يمكن أن يعترضها فيه من عقبات .

فحين دخلَتْ المدرسة المجاورة لبيتنا ، مدرسة شهداء الأرمن الخاصة، كانت دائماً في ذهابها وإيابها برفقة الطفلات الثلاث لجارتنا المخلصة " جورجيت جربيت " ، ومجاورة لإحداهن على مقعدها خلال المرحلة الابتدائية ، وهي الطفلة " زابيل موسى " ، زابيل التي لا تشبه أبداً الطفلة القريبة س التي جاورتني في أيامي الأولى من السنة التمهيدية . أو بالأحرى إن زابيل قد لا تتمكن من أن تكون مثل س هذه ، ما دامت أمها قد وصلت إلى درجة من الإنسانية كافية لكي تعدَّ أولادها كما تريد ، أو كيلا تكون مثل أم س التي حفَّزَتْ هي نفسها ابنتها على هجر مقعدي .

أما في المراحل التالية ، الإعدادية والثانوية والجامعية ، فإلى جانب زابيل ، انضمَّتْ إلى رفيف من كن كافيات من الوفيات الأخريات ، واللائي يمكن أن أخص منهن بالذكر صديقتها في الجامعة عبير شيخ خميس ، هذه التي لم أرَ فيها سوى شقيقة ثالثة لرفيف ، نظراً لاستمرارها إلى الآن في مساعدتها ضمن ما اختلف من مجالات . لقد كانت إلى جانبها في مجال القراءة ، فتَلَتْ عليها في كثير من الأحيان ما كثر من المحاضرات ، والتزمَتْ بصورة دائمة بمحاضرات اللغة السريانية التي تُدرَّس لطلاب قسم اللغة العربية في السنتين الأولى والثانية ، والتي جعلَتْني أعاني الكثير لدى نقل أمي غير العارفة بهذه اللغة إليَّ رسم حروفها . كما كانت إلى جانبها في مجال الكتابة حين أخذت تنسخ لها كل ما كانت تُكلَّف به من أبحاث خلال السنوات الجامعية الأربع . أما في مجال المرافقة ، فقد كان يكفي منه غياب عبير عن محاضراتها هي ، لتكون إلى

جانب رفيف لعام كامل في محاضرات دبلوم الدراسات العليا . هذا بالإضافة إلى ما لا تزال تحققه لها من أسباب الترفيه والإبهاج ، التي تأخذ في التنوع ما بين التنزه والتسوُّق والزيارات .

ومثلما تيسَّرَتْ على رفيف صداقاتها التي أراها مهمة في تجربتينا، كذلك تيسر على والديّ تدريسها ، ما داما قد امتلكا من خلال تجربتهما معي ما يكفي من خبرات ، أو ما داما قد حظيا بما يكفي من مساعدات مَنْ درّسها خلال المراحل كافةً . علماً أن رفيفاً لم تصبح معيدة في الجامعة مثلي ، أو بالأحرى لم تحاول أن تصبح، ربما لعدم رغبتها في أن تخوض عبثاً طريق التعيين الذي لا يزال شائكاً على أمثالنا ، وكذلك لعدم وصول معدلها إلى تلك الدرجة المتميزة التي وصل إليها معدلي ، والتي شكلَتْ بعد طول شقاء ذريعة لاستثنائي . إنها آثرَت بدلاً من العمل الجامعي العمل الصحفي ، وسرعان ما تحقَّقَ لها ما أرادت ، بتعيينها بمنتهى اليسر والعفوية صحفية في جريدة الوحدة التي تصدر في محافظتنا . وبناء على هذا التفاوت بين حياتينا ، بين حياتي القاسية المعقدة واحتمالي الكبير لها ، وحياتها اليسيرة الناعمة وعدم احتمالها غيومَها الرقيقة إلا بصوت وجسد مرتجفين ، كان ينبغي أن أحظى منها دائماً بلقب " صوّان " ، وكان ينبغي أن تحظى مني دائماً بلقب " المحظوظة ".

واقتداء رفيف بي لم يَحُلْ دون حدوث الصداقة الأعمق فيما بيننا، على الرغم من أنها أصغر إخوتي سناً ، وامتداد الفارق بيني وبينها إلى أحد عشر عاماً ونصف . بل ربما تم التقليل من شأن علاقتنا إذا ما اكتُفِيَ بتسميتها بالصداقة ، ولم يتم الارتفاع إلى تسميتها

بوحدة الحال ، ولا سيما أن الكثيرين يظنوننا توأمين ، ويخلطون فيما بيننا لتشابه صورتينا إلى جانب تشابه الطباع . أنا ورفيف دائماً نمرح ، دائماً نتفكه ، دائماً نظهر هازئتين بالحياة التي ظنت نفسها يوماً أنها ستنتصر علينا ، دائماً نتحادث ، دائماً نتحاور حول كل ما ينتاب فكرنا وشعورنا ، ذلك بصورة علنية أحياناً ، وفي أحيان كثيرة بصورة هامسة ، يتعذر حتى على والدينا فك ألغازها . إننا لا ينبغي أن نتباعد أبداً ، وإذا ما حدث ذلك لِما تفرض الحياة من ظروف وانشغالات ، فينبغي أن نتوق إلى معاودة التقارب ، والتحدث أو الثرثرة حول كل ما سمعنا أو لاحظنا . الأمر الذي يجعلنا نتصور أي تسلية سنقدم للناس إذا ما صغنا علاقتنا مسلسلاً إذاعياً أو تلفزيونياً ، أو يحملنا مراراً على التساؤل عن المصير الذي ستنتهي إليه إحدانا ، إذا ما أفقدتها الأقدار الأخرى ؟ فننتهي إلى تمني الحلِّ الأكثر يسراً علينا نحن الاثنتين ، حلِّ أن نموت سويةً .

وبناء على هذا كله ، كيف لا أُسمع رفيفاً كل قصيدة من قصائدي عقب نظمها ؟ فتتخذ زورقها المماثل لزورقي ، وتجوب بحار تأملاتي ، ثم تعود إلى مرفئي ، مغتبطةً بما تلقَّتْ ، متفائلةً بغدي الشعري .

ثم ما كاد يمضي عامان آخران على صدور مجموعتي الشعرية الأولى ، حتى صدرت لي عام ١٩٩٧ عن وزارة الثقافة أيضاً ، مجموعتي الشعرية الثانية " كل آفاقي لأغنياتكِ " ، بكلمة غلاف من رئيس اللجنة الخاصة بفحص الإنتاج الأدبي الأستاذ أنطون المقدسي، وبتقديم من والدي الذي ألحَّ عليه الأديب حنّا مينه أن يقوم

بذلك ، لا من أجلي أنا ، بل من أجل أن يكشف عن موهبته الكتابية التي لا يجود عليها إلا بالإخفاء . وهكذا فإنني لا أزال أسير على هذا الدرب لأقطع شوطاً متقدماً فيه ، ولأنشر ما بين الحين والآخر من أعمالي العديدة التي تنوعت ما بين شعر ونثر وقصّ قد تمثَّلَ بصورة رئيسة في سيرتي الذاتية هذه . وكذلك لأشترك بين الحين والحين في بعض الأمسيات الأدبية ، التي إن حققَتْ شيئاً من ظهوري في المجال الشعري ، فإنها حققَتْ حلمي باستعادة تواصلي مع الجمهور ، استعادة عيشي تلك اللحظات الصوفية الجميلة ، بعد انقطاع قد بدأ منذ مغادرتي عالم الغناء .

– ٢٢ –

ويتم تحديد مناقشتي لنيل درجة الدكتوراه في الخامس من أيار ١٩٩٨ ، ذلك بعد أن تشكلت لجنة الحكم من دون الأستاذ السوري حتماً ، وكذلك من دون الأستاذ غير السوري الذي ما لبث أن قضى نحبه نتيجة حادث سير . إنها تألفت من أستاذي المشرف الدكتور أحمد زياد محبّك ، وأستاذي في السنوات الجامعية الأولى الدكتور عبد الكريم يعقوب ، والدكتور عبد الرزاق خشروم من جامعة حلب ، والدكتور محمد عيسى من جامعة حمص ، والدكتور فاخر ميّا من جامعة اللاذقية . أو بالأحرى من أولئك الذين لم أتلقَّ منهم خلال فترة ما قبل المناقشة ، سوى ما حملني على الطمأنينة والثقة ، وما أشعَرَني بامتلاكهم تلك الروح الإنسانية الشفافة ، والإمكانات العلمية

التي أتاحت لهم التقدير الموضوعي لبحثي . الأمر الذي جعلني لا أكفُّ عن المقارنة ما بين وضعي المريح هذا ومعاناتي التي ارتبطت بالمناقشة السابقة .

ولعل أول من يستحق الذكر بصدد عرفاني بالجميل تجاه اللجنة الجديدة هو أستاذي المشرف ، ذلك حين لم يكفّ خلال الفترة السابقة للمناقشة عن الاتصال الهاتفي بي من حلب ، ليملأني بالراحة والشجاعة ، ويعاود وعده بمحاولة إيصالي إلى النتيجة التي أستحقها ، ولا سيما بعد أن انتهى من قراءته الأخيرة لبحثي ، وخطَّ لي من الملاحظات الإيجابية التي تنم على ارتفاع مستواه من جوانبه المختلفة . وكان من بين ما أورد :

(أقدِّر عملكِ في إنجاز رسالتكِ للدكتوراه حقَّ تقدير ، وأبارك في جهودكِ ، فرسالتكِ للدكتوراه متماسكة ، شكلاً ومضموناً ، أسلوباً ورؤيةً ، منهجاً ومصطلحاً ، وهي تؤكد استيعابكِ لموضوعكِ ، وتمكنكِ منه ، وسيطرتكِ عليه ، فهو واضح في ذهنكِ ، وآخره مشدود إلى أوله بترابط قوي ، وتسلسل علمي منطقي ، يتدرج من الأبسط إلى الأعقد ، ومن الأقدم إلى الأحدث ، وهو مشفوع بمناقشات قوية ، وتعليقات سليمة ، وتقسيماته دقيقة ، وعناوينه الفرعية دالة بوضوح ، ومعبّرة بدقة ... آذَنُ لكِ في طبع الرسالة ، ولا بد من إطلاعي على المادة المطبوعة في صورتها النهائية قبل تصوير النُّسَخ وتجليدها ، ولا بد من مقارنتها بالأصل للاطمئنان . أهنّئكِ بإنجاز عملكِ ، وأبارك لكِ فيه ، ولكنكِ سوف تتحملين مسؤولية المناقشة ، وإن كنتُ لن أتخلى عنكِ ، وسأدافع عنكِ ما

وسعني السبيل إلى الدفاع ، ولن أخذلكِ ، ولن أقصّر في حقكِ أبداً والله ولي التوفيق .

٢٤/ ١٢ / ١٩٩٧) .

ومقابل اتصالات أستاذي المشرف الكثيرة بي ، كان لا يتأخر عن إبداء استعداده لتلقّي اتصالاتي في أي وقت حول أي أمر يتبادر إلى ذهني ، وما كان هذا يُشعرني من ضخامة دَيني تجاهه ، وتعذُّر ردّه إلا من خلال هذه السطور التي آمل أن تنقش اسمه على جدران الزمن . وإلى جانب أستاذي المشرف هناك الدكتور " محمد عيسى " الذي أخذ يكرر عليَّ قبل المناقشة أيضاً عبارة " أشدُّ على يديكِ " بكل ما وجدتُها تستبطن من تقدير لبحثي وتجربتي . وأيضاً الدكتور فاخر ميّا الذي أطالَ اتصالاً هاتفياً بي ليكرر عليَّ أن بحثي يشكل حَدَثاً في جامعة اللاذقية .

هذا مع العلم أن فترة ما قبل المناقشة المذكورة لم تكن قد خلَتْ – من جانب آخر – مما شوّبها بكثير من القتامة ، وبعث على حزني وألمي الكبيرين ، أو على استعدادي لكي أتخلى عن درجة الدكتوراه التي كنت سأحصل عليها مقابل أمر واحد ، وهو أن يعيد إليَّ الله صحة والدي الذي كان قد أُصيب مؤخَّراً بأذىً كبير ، وأخسرَني الكثير من الدموع حذرَ ألا يتمكّن من شهود يومي الآتي . ففي مساء الثاني عشر من شباط ١٩٩٨ ، عاد إلى البيت مصطحباً كعادته الكثير من المرح والتفاؤل بالحياة ، وما كدنا نركن إلى جلستنا المشتركة المألوفة ، حتى بدأ يشكو ألماً في ظهره وكتفيه . وإذا كان من البديهي أن يظن وأفراد أسرتي عودة هذا الألم إلى

مصدر عضلي ، فإنني سرعان ما أدركتُ عودته إلى إصابة قلبية ، استناداً إلى تشابه هذه الأعراض مع الأعراض التي شكا منها الإعلامي رياض شرارة قبل وفاته . لكنني للأسف لم أجرؤ على التصريح لهم بهذه النبوءة القاسية ، حذرَ أن أظهر متشائمة إزاء مصير والدي وحياته .

وبذلك فإن والدي إذا ما استعاد شيئاً من حيويته حتى يوم المناقشة ، فإنني لم أتمكن حتى الآن من أن أكفَّ عن معاتبة نفسي، أنا التي ربما أسهمتُ من خلال صمتي فيما أُصيبَ به قلبه من احتشاء ، أو من تعطُّل في أحد أجزائه ، إذ إن بسبب التضيُّق الذي حدث في أحد شرايينه حينذاك ، وما رافق ذلك من آلام كنا غائبين عنها بالرقاد ، تمت الحيلولة دون وصول الدم الكافي إلى العضلة القلبية ، أو بالأحرى دون تلقّيها ما يكفل لخلاياها استمرار الحياة . إنني ما كان ينبغي أن أعبّر عن حبي الكبير لوالدي بهذه الطريقة ، هذه التي بدلاً من أن تقوم على تنبيهه إلى ما كان يزحف نحوه من خطر ، قامت على إخفائه عنه ريثما تَمكَّنَ هذا الخطر من سلب عافيته .

ومثلما ظهرَتْ مواقف المناقشين الإيجابية قبل المناقشة ، ظهرَت حقاً في أثنائها ، إذ افتتحها الدكتور عبد الكريم يعقوب بعبارة " مرحباً بكِ يا ريم في يوم تكريمكِ " ، وما كادت تفعل بي لولا شيء من تماسكي نتيجة مقارنة فورية أجريتُها ما بين هذا اليوم الذي هو لتكريمي إذن ، وذلك اليوم المقابل الذي كان مختلفاً تماماً . ثم تلا الدكتور عبد الكريم يعقوب من تلاه من المناقشين الآخرين الذين

افتتح كل منهم مداخلته أيضاً بما لا يقلُّ عن تلك العبارة سمواً وتأثيراً. ومقابل ذلك أخذوا يمارسون حقّهم في إبداء ملاحظاتهم حول البحث ، لكن التي لم تُثِر انفعالاتهم وأصواتهم وأجسادهم ، ولم تحظَ مني إلا بالاحترام والتقدير ، والانكباب فيما بعد على العمل بما أقنعَني منها .

وتأتي لحظة إعلان النتيجة ، فأتذكر ما أتذكر من نتيجة الماجستير التي حالت لفترة طويلة دون تمكُّني من سماع أي نطق بالحكم . لكن حين تميَّزَ كل أمر في هذه المناقشة الجديدة ، كان ينبغي أن يتميز أمرها هذا أيضاً ، فإذا أستاذي المشرف يتلو بعد انحباس أنفاسي وأنفاس الآخرين قرار منحي درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز وعلامة قدرها خمس وثمانون ، وإذا أنا أرفع يديَّ عالياً معبرة عن إفقاد فرحي جزءاً من وعيي ، ثم أندفع برغم ما أصابني من تشنج إلى إلقاء كلمة شكر ، قد أبكت ببكائي الجميع ، وحملتهم على ذلك التصفيق المديد الذي نمَّ على مدى تعاطفهم وتأثرهم ، ثم توجَّهتُ إلى مصافحة الأساتذة المناقشين ، ليكون الدكتور محمد عيسى – كما نبهني أستاذي المشرف – أول من أطلق عليَّ لقب " دكتورة " . وقد كانت كلمتي التي ألقيتُها :

شكراً لكم أعضاءَ اللجنة الكريمة .

شكراً لكِ كليةَ الآداب ، أساتذةً وزملاء وعاملين .

شكراً لكِ أسرتي المناضلة العظيمة .

شكراً لكل من رافقني خطوة للوصول إلى هذه اللحظات .

وشكراً للحضور جميعاً .

وهكذا بدأتُ منذ ذلك اليوم الذي هو الأسعد في حياتي أتلقّى ما أتلقّى من تهاني المهنئين ، الشفهية والكتابية ، الكثيرة والمندهشة بما حقّقتُ . وكان من بينهم عقب عودتي من جلسة المناقشة السيدة سامية حداد التي درَّسَتْني في بدايات الثاني الابتدائي ، وكان لها الفضل في كونها المعلمة الأولى التي وقفت بجانب أمي . علماً أن مبادرتها في التهنئة لم تشكل سوى رد على مبادرتي التي قمت بها حيالها في اليوم السابق ، إذ اتصلتُ بها هاتفياً إلى مسكنها في دمشق ، بعدما بذلنا من الجهود الكثيرة للإتيان برقمها . وما كدت أعرّفها بنفسي بعد غياب ثلاثين عاماً ، وأدعوها إلى حضور مناقشتي التي سأنال من خلالها درجة الدكتوراه ، أو بالأحرى الثمرة التي أسهمت في وضع بذورها ، حتى فعلَتْ بها المفاجأة ما تصورتُ فعله ، وبدأَتْ بالصياح والبكاء فرحاً ، وإخباري عن أي قشعريرة أحدثتُها في جسدها ، أنا التي أشكل بالنسبة إليها كما صرحَتْ ، أو كما أظن دائماً ، مَن لم تقلّ عن ابنتها شأناً ، لكن حبذا لو تسنى لي أن أخبرها بموعد مناقشتي قبلاً ، لكي تكون هي أول الحاضرين ، أو لكي تحقق حلمها برؤيتي بعد طول سؤالها عني خلال تلك السنوات .

وهذه رسالة من السيدة خديجة حكيم التي كان لحكمتها الفضل في إقناع والدي بإدخالي المدرسة ، والتي رافقتنا في ذلك اليوم الأول العسير إلى ذلك العالم العسير : (دكتورتي الغالية :

اليوم تمنيت أن أكون كتلك المصرية التي تدوّر لسانها وتطلق الزغاريد لتملأ المنزل .

اليوم أقول كلمة أهنّئكِ ، فأراها أصغر بكثير من أن تعبّر عما يكنّه قلبي .

أَأُهنّئكِ ؟ أأقول مبروك ؟ لا وحتى دموع الفرح التي انسابت على الهاتف لا تتحمل بل لا تتجرأ على أن تفيك حقكِ ولا تليق بهذا المجد الذي نلتِه يا ريم .

تقولين أمي الثانية !! أي غار وضعتِه على جبين يخجل أن يشارك تلك الأم الرائعة الخلاقة به .

تقولين لن أنساكِ !! والله يا ريم لم أسمع هذه الأحرف بهذا الصدق إلا من فمك الطاهر . اسمعي يا صغيرتي !! همساتك في الهاتف أعادت إليَّ ثقتي في الوجود .

أإمساك يد صغيرة ، ومصاحبة أقدام بطيئة لمدة لا تتعدى سويعات ، تهبني شكراً أبدياً ؟ مع أنني عشت عمري أعطي وأعطي ولم أسمعها بهكذا نغم إلا منكِ .

لن أنساكِ !!

أنا التي لا أنساكِ !! ولن أنساكِ !! ولن أنسى صوتاً رقيقاً ناعماً خجولاً يهتف شكراً يا خالتي .. لأول مرة أرى وأسمع الشكر يكبر معنا وانتقل من مقاعد الدرس الصغيرة إلى الجامعة إلى أن حمل اليوم أكبر شهادة وبدرجة امتياز .

ريم .. أأقول مبروك لكِ أم لعبد ودعد ؟ وأظن يا ريم أن ما نلتِه اليوم كان أكبر تعويض من الله لهما ... درجة امتياز وضعتِها اليوم بين أطهر أيادٍ وأثمن أنامل رافقتكِ يا غالية .

أقول لهما : التهاني لكما بما نلتما .. واسمحوا لي جميعاً أن أهنئ خديجة تلك الصديقة التي رافقت منزلكم دوماً بحلوه ومره .

ريم .. القبل !! والعناق !! ودموع الفرح و ... لن تعبر ولن تقدر أن تصف هذه اللحظات .

الساعة الخامسة إلا ربع سمعت صوتك المنهك المليء بالافتخار والاعتزاز والثقة ... كل هذه الصفات تقف لتقول لي " أنتِ أول من أزف إليه بشرى نجاحي " .

وصوتاً باكياً فرحاً يكاد يقتلع كل الآلام الماضية يقول لي الدرجة خمس وثمانون بامتياز ، وأنا أعلم بأنه ذلك الهرم الصامت يقف بعيداً يختبئ خلف جبروته وعنفوانه ، ويقول الآن وصلتُ .

ريم .. الآن أعطني يدك لأمسك بها كم أصبحتْ هذه الأنامل قوية .

وأقول شكراً لك يا ريم لن أنساكِ . ولن أنسى تلك اليد الصغيرة التي أمسكتُها منذ زمن ، لتمسكْ بي الآن وترفعني معها لتصفّني جنباً إلى جنب عملاقين كبيرين زرعا وأحسنا الزرع ، وها أنا أفخر بأنني كنت معولاً صغيراً ساهم للحظات في وضع غرسة كبرت وأينعت وأصبحت شجرة أتمنى أن أتفيأ في ظلها .

ريم الغالية :

يقولون خطي رديء . لسنوات وسنوات أحاول تحسينه ، إنما يزداد تعرجاً . اليوم علمتُ بأنني أكتب بقلم اسمه الروح ومداد اسمه القلب، لذا أنا يا ريم على ثقة بأن خطي لن يفهمه إلا عبد ودعد .

بكل فخر واعتزاز أمُّكِ الثانية خديجة) .

وهذه قصيدة " أمل " من صديق والدي الوفي الأستاذ الشاعر جميل حسن الذي يحدثني كلامه وسلوكه أحياناً ، وصمته أحياناً عن أي تقدير يكمن في داخله تجاهي :

يا ريمُ ! حبُّكِ لا شعري ولا قلمي تحيةُ الحبِّ أغنى من رؤى الكَلِمِ
يا ريمُ ! عمُّكِ قِرطاسٌ وقــافيةٌ مـن الحروفِ ، وقلبٌ سائحٌ بفـمِ
يغني غناه ، ويستهدي برحمته فالقلبُ قلبيَ مشغولٌ بسفكِ دمـي
دمي فداءٌ لنبــضٍ في أحبَّتـه تأتيه بسمتــهم في أكرم النّعــمِ
لمّا رأيتكِ في المحـراب واقفـةً رأيـتُ فاطمةَ الزَّهراءَ في حلـمي
لمّا سمعتُكِ حيّتنــي رؤى أملـي حتى شُغلتُ عن الأوجاع والألــمِ
وأنتِ تدرين أن الحزنَ مصطحبٌ نومي وصحوي وقيّومٌ على قيمــي
يا زهرةً عبقت في ليلنا فَصَحَت على شذاها نفوسٌ من دُجى العدمِ
أبناؤنا وحدهــم باقون في غدنا يكفكفـون دموع الهــمّ والنَّــدمِ
سلي أباكِ : لماذا الدَّمعُ يغمره حتى بفرحتــه حتــى مع النَّغمِ
سليه عن ذنبنا. ماذا جنت يدُنا سليه عن مُثــلٍ فُزِعنَ كالغــنمِ
سليه تاريخه تاريــخ كوكبــةٍ من الرجال أضاءت حالِكَ الظُّلَــمِ
وأشرقَ الوطنُ الغالي بموكبــها حتى غدا أملاً يسعى علـى قَــدَمِ
عَلَت فأعلت ولم تنزلْ بساحتها أحدوثةٌ غيرَ جودِ البأسِ والشِّــيَمِ
ونازلت دهرها والدَّهرُ يعصفها بالنازلات بليلٍ كالجنون عَــــمِي
لولا شروقكم في دربــها لغدت أيامُها الشاحبات العمرَ كالعــدمِ
لا تسأليني إذ قالوا لنا: نجحتْ بل فاسألي دمعتي: مــاذا مع الكَلِمِ
راجعتُ عمري وتاريخي بومض سناً وعشـتُ لحظـةَ مجدٍ باذخ الشَّــممِ
ألم أقل إنني قلـــبٌ وقافيــةٌ وريشةٌ تتخطى رعشــة الهــــرمِ

أعدتِني لصبا عمري لكوكبتــي   لوعدها ولما وفّتــــــه من ذمـــمِ
تحيتي من أخيها للتي وهبــت   عينَيّ مضحية في غايـة الكـــرمِ
لفلذة أزبدَت مســـكاً وغالـيـةً   وأشرقـــــت زهرة فواحة النّــــسَمِ
تحيتي لرفيف الجنّتينِ، ففــــي   ميعـادها وقفةٌ أخرى مـــع الحُلُـمِ

اللاذقية   ٦ / ٥ / ١٩٩٨

- ٢٣ -

قارئي ..

أَمَا وقد قاربت سيرتي على نهايتها ، لاشك أنكَ وصلتَ إلى الذروة في تساؤلكَ : " وماذا عن الحب لدى ريم ؟! "

وهنا سرعان ماأجيب : إنني حَيِيتُه حقاً ، حَيِيتُه حتى الأعماق ، لأن الحياة إذا ما حكمت عليَّ بالتجابه معها عبر تلك السنوات ، فإنها لم تنسَ بالمقابل أنني واحدة من البشر ، أمتلك من الأحاسيس والمشاعر مايكفي لكي أكون مُحِبَّة وحبيبة . إنني حَيِيتُ الحب في أكثر من حكاية ، لكن ماإن كانت كل واحدة تتوهج بأملي حتى تأخذ بالانطفاء والأفول رماداً في بحار العدم ، وكأنها لم تكن يوماً .

أما بشأن حكايتي الأخيرة التي أعيشها منذ سنوات ، والتي بدأت منذ عام ٢٠٠٣ ، فإن الله اصطفى لي إنساناً حدَّثَني حدسي منذ اللحظة الأولى ، بأنه سيكون بجانبي ما حَيِيتُ ، إنساناً عرفني مصادفةً وهو يشاهدني عبر برنامج متلفز كُرِّمتُ من خلاله ، وازداد معرفةً بي بعد أن قرأ الطبعة الأولى من كتاب سيرتي هذا ، فسعى إلى الاتصال بي هاتفياً من مدينة غير مدينتي ، فكان ذلك فاتحة لصداقة حميمة نَمتْ فيما بيننا بالمهاتفة أحياناً ، والتراسل أحياناً ، شعراً ونثراً ، حتى أضحت واحة خضراء ألوذ بها من رمضاء حياتي.

وفي يوم ، وقد مضى على صداقتنا ما يقارب العام ، أدلى إليَّ عبر الهاتف بما كان يضمره لي من رغبة في أن يلتئم شملنا بالارتباط . حاصرتني فرحتي ، ولُذتُ بالصمت لبرهة لا أدري ما أقول ، وأخبرتُه أنها لحظةٌ لن تُمحى من ذاكرتي ، سأضمها إلى أسعد لحظات حياتي . حلّقتُ بالبهجة عبر السويعة التي استغرقها تحاورنا ، إلى أن رأيتُ نفسي وإياه ، ومنذ الخطوة الأولى ، مكبَّلين بكل ما يمكن أن يعوق تقدّمنا نحو ما نصبو إليه .

والآن .. وبعد مرور هذا العمر على حكايتنا ، وتخطّينا الواحدة تلو الأخرى من الصعاب والعراقيل بما لايمكن تصوره من الغزارة والألوان والتفاصيل .. ارتأينا أن نسلّم نفسينا للقدر ، الذي ربما لم يشأ أن يجمعنا في بيتنا الوردي الجميل ، فنقتصر في أمرنا على أن

نبقى زوجين روحيين حبيبين ، ونؤجل تحقيق أحلامنا الذهبية إلى جنان الخلود التي ستكون بمشيئة الله أكثر رأفةً بنا ، فتضمنا عصفورين غَرِدَين ، أو غصنين متعانقين أبداً في خميلة من نور .

- ٢٤ -

وبعد ..

سلامي عليكم أيها الأخيار

الذين التقيتُ أضواءكم في طريقي .
وسلامي عليكم أيها الذين لم تكونوا كذلك
لأن بكم تكاملَتْ قصتي .
وسلامي على عينيكِ أنتِ التي ..
ألا تتذكَّرين ؟
ذات يومٍ مِن يفاعتي
بينما كنت أسير ووالدي
نبَّهَتْ صديقتَها بصوت واضح جداً :
انظري إلى هذه التي لا ترى .
التفَتَ إليَّ والدي

بامتعاضٍ واضحٍ جداً التفَتَ إليَّ وقال :

– لو خُيِّرتِ ابنتي

ما بين بصر هذه وبصيرتكِ أنتِ

فأيهما تُؤْثِرين ؟

– البصيرة يا والدي

البصيرة ....